(منهاج العابدين) للشيخ الامام العارف بالله تعالى زين الدين
حجة الاسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
الطوسي قدس الله روحه ونور ضريحه
ونفعنا والمسلمين
بعلومه
آمين

(وبهامشه الكتاب المسمى بداية الهداية للمؤلف أيضا)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الصالح الزاهد عبد الملك بن عبد الله غفر الله له أملى علىّ شيخى الاجل الامام الزاهد الموفق حجة الاسلام زين الدين شرف الائمة أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى قدس الله روحه ورفع الله فى الجنة درجته هذا الكتاب المختصر وهو آخر كتاب صنفه ولم يستمله منه الا خواص أصحابه (الحمد لله) الملك الحكيم الجواد الكريم العزيز الرحيم الذى خلق الانسان فى أحسن تقويم و السموات والارض بقدرته ودبر الامور فى الدارين بحكمته وما خلق الجن والانس الا لعبادته فالطريق واضح للقاصدين والدليل عليه لائح للناظرين ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين والصلاة على سيد المرسلين وعلى آله الابرار الطيبين الطاهرين وسلم وعظم الى يوم الدين أما بعد فاعلموا اخوانى أسعدكم الله واياى بمرضاته أن العبادة ثمرة العلم وفائدة العمر وحاصل العبيد الاقوياء وبضاعة الاولياء وطريق الاتقياء وقسمة الاعزة ومقصد ذوى الهمة وشعار الكرام وحرفة الرجال واختيار أولى الابصار وهى سبيل السعادة ومنهاج الجنة قال الله تعالى وأنا ربكم فاعبدون وقال تعالى ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ثم انا نظرنا فيها وتأملنا طريقها من مباديها الى مقاصدها التى هى أمانى سالكيها فاذا هى طريق وعر وسبيل صعب كثيرة العقبات شديدة المشقات بعيدة المسافات عظيمة الآفات كثيرة العوائق والموانع خفية المهالك والمقاطع غزيرة الاعداء والقطاع عزيزة الاشياع والاتباع وهكذا يجب أن تكون لانها طريق الجنة فيصير هذا تصديقا لما قاله صلى الله عليه وسلم وان الجنة حفت بالمكاره وان النار حفت بالشهوات وقال صلى الله عليه وسلم ألا وان الجنة حزن بربوة ألا وان النار سهل بسهوة ثم مع ذلك كله فان العبد ضعيف والزمان صعب وأمر الدين متراجع والفراغ قليل والشغل كثير والعمر قصير وفى العمل تقصير والناقد بصير والاجل قريب والسفر بعيد والطاعة هى الزاد فلا بد منها وهى فائتة فلا مرد لها فمن ظفر بها فقد فاز وسعد أبد الآبدين ودهر الداهرين ومن فاته

مقام

(بسم الله الرحمن الرحيم) قال الشيخ الامام العالم العلامة حجة الاسلام وبركة الانام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالى الطوسى قدس الله روحه ونور ضريحه آمين * الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه من بعده (أما بعد) فاعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم المظهر من نفسه صدق الرغبة وفرط التعطش اليه أنك ان كنت تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهاة والتقدم على الاقران واستمالة وجوه الناس اليك وجمع حطام الدنيا فانت ساع فى هدم دينك وهلاك نفسك وبيع آخرتك بدنياك فصفقتك خاسرة وتجارتك بائرة ومعلمك معين لك على عصيانك وشريك لك فى خسرانك وهو كبائع سيف من قاطع طريق كما قال صلى الله عليه وسلم من اعان على معصية ولو بشطر كلمة كان شريكا له فيها وان كانت نيتك وقصدك بينك وبين الله تعالى من طلب العلم الهداية دون مجرد الرواية فأبشر فان الملائكة تبسط لك اجنحتها اذا مشيت وحيتان البحر تستغفر لك اذا سعيت

المخسر مع الخاسرين وهالك مع الهالكين فصار هذا الخطب اذاً والله معضلاً والخطر عظيماً ولذلك عز من يقصد هذا الطريق وقل ثم عز من القاصدين من يسلكه ثم عز من السالكين من يصل الى المقصود ويظفر بالمطلوب وهم الاعزة الذين اصطفاهم الله عز وجل لمعرفته ومحبته وسددهم بتوفيقه وعصمته ثم أوصلهم بفضله الى رضوانه وجنته فنسأله جل ذكره أن يجعلنا واياكم من أولئك الفائزين برحمته ثم انا لما وجدنا هذه الطريق بهذه الصفة نظرنا فأمعنا النظر في كيفية قطعها وما يحتاج اليه العبد من الاهبة والعدة والآلة والحيلة من علم وعمل عسى أن يقطعها بحسن توفيق الله في سلامة ولا ينقطع في عقباتها المهلكة فيهلك مع الهالكين والعياذ بالله فصنفنا في قطع هذه الطريق وسلوكها كتبا كاحياء علوم الدين والقربة الى الله تعالى وغير ذلك تحتوي على دقائق من العلوم اعتاصت على افهام العامة فقدحوا فيها وخاضوا فيما لم يحسنوه منها فأي كلام أفصح من كلام رب العالمين وقد قالوا فيه انه أساطير الاولين ألم تسمع الى قول زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين

اني لأكتم من علمي جواهره * كيلا يرى ذاك ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن * الى الحسين ووصى قبله الحسنا
يارب جوهر علم لو أبوح به * لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي * يرون أقبح ما يأتونه حسنا

فاقتضت الحال عند ذوي الدين الذين هم أشرف خلق الله تعالى النظر الى كافة خلق الله تعالى بعين الرحمة وترك المماراة فابتهلت الى من بيده الخلق والامر أن يوفقني لتصنيف كتاب يقع عليه الاجماع ويحصل بقراءته الانتفاع فأجابني الى ذلك الذي يجيب المضطر اذا دعاه واطلعني بفضله على أسرار ذلك وألهمني فيه ترتيبا عجيبا لم أذكره في المصنفات التي تقدمت في أسرار معاملات الدين وهو الذي أناله واصف (فأقول وبالله التوفيق) ان أول ما ينبه العبد للعبادة ويحركه لسلوك طريقها خطرة سماوية من الله وتوفيق خاص الهي هو المعنى بقوله سبحانه وتعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وأشار اليه صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه فقال ان النور اذا دخل القلب انفسح وانشرح فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها فقال التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزول الموت فاذا خطر بقلب العبد أول كل شئ اني اجدني منعما بضروب من النعم علي كالحياة والقدرة والعقل والنطق وسائر المعاني الشريفة واللذات مع ما ينصرف عني من ضروب المضار والآفات وان لهذه النعم منعما يطالبني بشكره وخدمته فان غفلت عن ذلك فيزيل عني نعمته ويذيقني بأسه ونقمته وقد بعث الي رسولا أيده بالمعجزات الخارقة للعادات الخارجة عن مقدور البشر واخبرني بأن لي ربا جل ذكره قادرا عليما حيا مريدا متكلما يأمر وينهى قادرا على ان يعاقبني ان عصيته ويثيبني ان أطعته عالما بالأسرار وما تختلج بالأفكار وقد وعد وأوعد وأمر بالتزام قوانين الشرع فيقع في قلبه أنه ممكن اذ لا استحالة لذلك في العقل أول البديهة فيخاف على نفسه عند ذلك ويفزع فهذا خاطر الفزع الذي ينبه العبد ويلزمه الحجة ويقطع عنه المعذرة ويزعجه الى النظر والاستدلال فيهتاج العبد عند ذلك ويقلق وينظر في طريق الخلاص وحصول الأمان له مما وقع بقلبه أو سمع بأذنه فلم يجد فيه سبيلا سوى النظر بعقله في الدلائل والاستدلال بالصنعة على الصانع ليحصل له علم اليقين بما هو مغيب ويعلم ان له ربا كلفه وأمره ونهاه (فهذه أول عقبة) استقبلته في طريق العبادة وهي عقبة العلم والمعرفة ليكون من الامر على بصيرة فيأخذ في قطعها من غير بحسن النظر في الدلائل ووفور التأمل والتعلم والسؤال من علماء الآخرة أدلاء الطريق سرج الامة وقادة الائمة والاستفادة منهم واستهداء الدعاء الصالح منهم للتوفيق والاعانة الى ان يقطعها بتوفيق الله سبحانه فيحصل له علم اليقين

ولكن ينبغي لك أن تعلم قبل كل شئ أن الهداية التي هي ثمرة العلم لها بداية ونهاية وظاهر وباطن ولا وصول الى نهايتها الا بعد احكام بدايتها ولا عثور على باطنها الا بعد الوقوف على ظاهرها وها أنا مشير عليك ببداية الهداية لتجرب بها نفسك وتمتحن بها قلبك فان صادفت قلبك اليها مائلا ونفسك بها مطاوعة ولها قابلة فدونك التطلع الى النهايات والتغلغل في بحار العلوم وان صادفت قلبك عند مواجهتك اياها بها مسوفا وبالعمل بمقتضاها مماطلا فاعلم أن نفسك المائلة الى طلب العلم هي النفس الامارة بالسوء وقد انتهضت مطيعة للشيطان اللعين ليدليك بحبل غروره فيستدرجك بمكيدته الى غمرة الهلاك وقصده أن يروج عليك الشر في معرض الخير حتى يلحقك بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء وما ورد فيه من الآثار والاخبار ويلهيك عن قوله صلى الله عليه وسلم من ازداد علما ولم يزدد هدى لم

بالغيب وهو ان له الها واحدا لا شريك له هو الذي خلقه وأنعم عليه بكل هذه النعم وانه كلفه شكره وأمره
بخدمته وطاعته بظاهره وباطنه وحذره الكفر وضروب المعاصي وحكم له بالثواب الخالد ان أطاعه
وبالعقاب الخالد ان عصاه وتولى عنه فعند ذلك تبعثه هذه المعرفة واليقين بالغيب على التشمير للخدمة والاقبال
على العبادة لهذا السيد المنعم الذي طلبه فوجده وعرفه بعدما جهله ولكنه لا يدري كيف يعبده وماذا
يلزمه في خدمته بظاهره وباطنه فبعد حصول هذه المعرفة بالله سبحانه وتعالى جهد حتى يتعلم ما يلزمه من
الفرائض الشرعية ظاهرا وباطنا فلما استكمل العلم والمعرفة بالفرائض انبعث ليأخذ في العبادة ويشتغل بها
فنظر فاذا هو صاحب جنايات وذنوب وهذا حال الاكثر من الناس فيقول كيف أقبل على العبادة وأنا مصر على
المعصية متلطخ بها فيجب على أولا أن أتوب اليه ليغفر لي ذنوبي ويخلصني من أسرها ويطهرني من أقذارها
فأصلح للخدمة وبساط القربة فتستقبله ههنا (عقبة التوبة) فيحتاج لا محالة الى قطعها ليصل الى ما هو
المقصود منها فيأخذ في ذلك باقامة التوبة بحقوقها وشرائطها الى أن يقطعها فلما ان حصلت له التوبة الصادقة
وفرغ من هذه العقبة حن الى العبادة ليأخذ فيها فنظر فاذا حوله عوائق محدقة به كل واحد منها يعوقه عما
قصد من العبادة بضرب من التعويق فتأمل فاذا هي أربعة الدنيا والخلق والشيطان والنفس فاحتاج لا محالة
الى دفع هذه العوائق وازاحتها عنه والا فلا يتأتى له مراده من العبادة فاستقبلته ههنا (عقبة العوائق) فيحتاج
الى قطعها بأربعة أمور التجرد عن الدنيا والتفرد عن الخلق والحراب مع الشيطان والقهر للنفس فأما النفس
فأشدها اذ لا يمكنه التجرد عنها ولا ان يقهرها بمرة ويقمعها كالشيطان اذ هي المطية والآلة ولا مطمع أيضا
في موافقتها على ما يقصده العبد من العبادة والاقبال عليها اذ هي مجبولة على ضد الخير كالهوى واتباعها له
فاحتاج اذا الى أن يلجمها بلجام التقوى لتبقى له فلا تنقطع وتنقاد له فلا تطغى فيستعملها في المصالح والمراشد
ويمنعها من المهالك والمفاسد فيأخذ اذا في قطع هذه العقبة ويستعين بالله جل ذكره على ذلك فلما فرغ من قطعها
رجع الى قصد العبادة فاذا عوارض تعترضه فتشغله عن الاقبال على مقصوده من العبادة وتصده عن التفرغ
لذلك كما ينبغي فتأمل فاذا هي أربعة الرزق تطالبه النفس به وتقول لابد لي من رزق وقوام وقد تجردت عن الدنيا
وتفردت أيضا عن الخلق فمن أين يكون قوامي ورزقي والثاني الاخطار من كل شيء يخافه أو يرجوه أو يريده
أو يكرهه ولا يدري صلاحه في ذلك أو فساده فان عواقب الامور مبهمة فيشتغل قلبه بها فانه ربما وقع في فساد
أو مهلكة والثالث الشدائد والمصائب تنصب عليه من كل جانب لا سيما وقد انتصب لمخالفة الخلق ومحاربة
الشيطان ومضادة النفس فكم من غصة يتجرعها وكم من شدة تستقبله وكم من هم وحزن يعترضه وكم من
مصيبة تلقاه والرابع أنواع القضاء من الله سبحانه وتعالى بالحلو والمر ترد عليه حالا فحالا والنفس تسارع الى
السخط وتبادر الى الفتنة فاستقبلته ههنا (عقبة العوارض الاربعة) فاحتاج الى قطعها بأربعة أشياء
التوكل على الله سبحانه وتعالى في موضع الرزق والتفويض اليه جل وعز في موضع الخطر والصبر عند نزول
الشدائد والرضا عند نزول القضاء فأخذ في قطع هذه العقبة باذن الله تعالى وحسن تأييده فلما فرغ من
قطعها وعاد الى قصد العبادة نظر فاذا النفس فاترة ضعيفة كسلى لا تنشط ولا تنبعث لخير كما يحق وينبغي وانما ميلها
أبدا الى غفلة ودعة وراحة وبطالة بل الى شر وفضول وبلية وجهالة فاحتاج معها ههنا الى سائق يسوقها الى
الخير والطاعة وينشطها له وزاجر يزجرها عن الشر والمعصية وينفرها عنه وهما الرجاء والخوف فالرجاء
في عظيم ثواب الله سبحانه وحسن ما وعد من أنواع الكرامة وتذكر ذلك سائق يسوقها فيبعثها على الطاعة
ويحركها لذلك وينشطها والخوف من أليم عقاب الله عز وجل وصعوبة ما أوعد من أنواع العقوبة والاهانة
زاجر يزجرها عن المعصية ويجنبها وينفرها عن ذلك (فهذه عقبة البواعث) استقبلته ههنا فاحتاج الى قطعها
بهذين المذكورين فأخذ فيها بحسن توفيق الله عز وجل فقطعها فلما فرغ منها رجع الى الاقبال على العبادة

يزدد من الله الا بعدا ومن
قوله صلى الله عليه وسلم
ان أشد الناس عذابا يوم
القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه
وكان صلى الله عليه وسلم
يقول اللهم اني أعوذ بك
من علم لا ينفع وقلب لا يخشع
وعمل لا يرفع ودعاء لا يسمع
ومن قوله صلى الله عليه وسلم
مررت ليلة أسري بي
بأقوام تقرض شفاههم
بمقاريض من نار فقلت من
أنتم قالوا كنا نأمر بالخير ولا
نأتيه وننهى عن الشر
ونأتيه فاياك يا مسكين ان
تذعن لتزويره فيدليك بحبل
غروره فويل للجاهل
حيث لم يتعلم مرة واحدة
وويل للعالم حيث لم يعمل
بما علم ألف مرة واعلم ان
الناس في طلب العلم على
ثلاثة أحوال رجل طلب
العلم ليتخذه زاده الى المعاد
ولم يقصد به الا وجه الله والدار
الآخرة فهذا من الفائزين
ورجل طلبه ليستعين به على
حياته العاجلة وينال به
العز والجاه والمال وهو عالم
بذلك مستشعر في قلبه ركاكة
حاله وخسة مقصده فهذا
من المخاطرين فان عاجله
أجله قبل التوبة خيف عليه
من سوء الخاتمة وبقي أمره
في خطر المشيئة وان وفق
للتوبة قبل حلول الاجل

فلم يرعاها ولا شاغلا وجد باعثا وداعيا فنشط فى العبادة فأقامها وعانقها بتمام الشوق والرغبة فأداها فانظر فاذا انه تبدو لهذه العبادة العظيمة التى احتمل فيها كل ذلك آفتان عظيمتان وهما الرياء والعجب تارة يرائى بطاعته الناس فيفسدها وأخرى يمتنع عن ذلك ويلوم نفسه فيعجب بنفسه فيحبط العبادة عليه ويتلفها ويفسدها فاستقبلته ههنا (عقبة القوادح) فاحتاج الى قطعها بالاخلاص وذكر المنة ونحوها ليسلم له ما يعمل من خير فأخذ فى قطع هذه العقبة باذن الله سبحانه وتعالى بجد واحتياط وتيقظ بحسن عصمة الجبار تعالى وتأييده فلما فرغ من هذه كلها حصلت له العبادة كما يحق وينبغى وسلمت من كل آفة ولكنه نظر فاذا هو غريق فى بحور منن الله تعالى وأياديه من كثرة ما أنعم الله عليه من امداد التوفيق والعصمة وأنواع التأييد والحراسة والكرامة وخاف أن يكون منه اغفال للشكر فيقع فى الكفران فينحط عن تلك المرتبة الرفيعة التى هى مرتبة الخدم الخالصين لله عز وجل وتزول عنه تلك النعم الكريمة من ضروب ألطاف الله تعالى وحسن نظره اليه فاستقبلته ههنا (عقبة الحمد والشكر) فأخذ فيها فقطعها بما أمكنه من كثرة الحمد والشكر على كثير نعمه فلما فرغ من قطع هذه العقبة ونزل فاذا هو بمقصوده ومبتغاه بين يديه فلم يسر الا قليلا حتى وقع فى سهل الفضل وصحراء الشوق وعرصات المحبة ثم يقع فى رياض الرضوان وبساتين الانس الى بساط الانبساط ومرتبة التقريب ومجالس المناجاة ونيل الخلع والكرامات فهو يتنعم فى هذه الحالات ويتقلب فى طيبها أيام بقائه وبقية عمره بشخص فى الدنيا وقلبه فى العقبى ينتظر البريد وما فيه وما حق على الخلق كلهم ويستقذر الدنيا ويحن الى الموت ويستكمل الشوق الى الملأ الأعلى فاذا هو برسل رب العالمين اليه يردون عليه بالروح والريحان والبشرى والرضوان من عند رب راض غير غضبان فينقلونه فى طيبة النفس وتمام البشر والانس من هذه الدار الفانية المفضية الى الحضرة الالهية ومستقر رياض الجنة فيرى لنفسه الضعيفة الفقيرة نعيما مقيما وملكا كبيرا عظيما ويأتى هنالك من سيده الرحيم المتفضل الكريم جل ذكره من اللطف به والعطف والترحيب والتقريب والانعام والاكرام ما لا يحيط به وصف الواصفين ونعت الناعتين فهو كل يوم فى زيادة الى أبد الآبدين فيا لها من سعادة عظيمة ويا لها من دولة عالية ويا له من عبد مسعود وأمرئ مغبوط وشأن محمود وطوبى له وحسن مآب نسأل الله البر الرحيم سبحانه وتعالى أن يمن علينا وعليكم بهذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة وما ذلك على الله بعزيز وأن لا يجعلنا من الذين لا نصيب لهم من هذا الامر الا وصف وسماع وعلم وتمن بلا انتفاع وأن لا يجعل ما تعلمناه من العلم حجة علينا يوم القيامة وأن يوفقنا جميعا للعمل بذلك والقيام به كما يحب ويرضى انه أرحم الراحمين وأكرم الاكرمين وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم وشرف وكرم (فهذا) هو الترتيب الذى ألهمنى مولاى فى طريق العبادة (فاعلم الآن) بتوفيق الله ان الحاصل من الجملة سبع عقبات الاولى عقبة العلم الثانية عقبة التوبة الثالثة عقبة العوائق الرابعة عقبة العوارض الخامسة عقبة البواعث السادسة عقبة القوادح السابعة عقبة الحمد والشكر وبتمامها يتم كتاب منهاج العابدين الى الجنة ونحن الآن نتتبع هذه العقبات بشرح موجز اللفظ مشتمل على النكت المقصودة من هذا الشأن كل منها فى باب مفرد ان شاء الله عز وجل والله سبحانه ولى التوفيق والتسديد بمنه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

(العقبة الاولى وهى عقبة العلم)

(فأقول) وبالله التوفيق يا طالب الخلاص والعبادة عليك أولا وفقك الله بالعلم فانه القطب وعليه المدار واعلم ان العلم والعبادة جوهران لاجلهما كان كل ما ترى وتسمع من تصنيف المصنفين وتعليم المعلمين ووعظ الواعظين ونظر الناظرين بل لاجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل بل لاجلهما خلقت السموات والارض وما فيهن من الخلق وتأمل آيتين فى كتاب الله عز وجل احداهما قوله جل ذكره الله الذى خلق سبع سموات

وأضاف الى العلم العمل وتدارك ما فرط فيه من الخلل لحق بالفائزين فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان فاتخذ علمه ذريعة الى التكاثر بالمال والتفاخر بالجاه والتعزز بكثرة الاتباع يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضى من الدنيا وطره وهو مع ذلك يضمر فى نفسه انه عند الله بمكان لاتسامه بسمة العلماء وترسمه برسومهم فى الزى والمنطق مع تكالبه على الدنيا ظاهرا وباطنا فهذا من الهالكين ومن الحمقى المغرورين اذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه انه من المحسنين وهو غافل عن قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون وهو ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقيل وما هو يا رسول الله فقال علماء السوء وهذا لان الدجال غايته الاضلال ومثل هذا العالم وان صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو داع لهم اليها بأعماله وأحواله ولسان الحال أفصح من لسان المقال وطباع الناس الى المشاهدة فى الاعمال أميل

ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد أحاط بكل شيء علما وكفى
بهذه الآية دليلا على شرف العلم لاسيما علم التوحيد والآية الثانية قوله جل من قائل وما خلقت الجن
والانس الا ليعبدون وكفى بهذه الآية دليلا على شرف العبادة ولزوم الاقبال عليها فاعظم بأمرين هما المقصود
من خلق الدارين فحق للعبد أن لا يشتغل الا بهما ولا يتعب الا لهما ولا ينظر الا فيهما واعلم ان ما سواهما من
الامور باطل لا خير فيه ولغو لا حاصل له فاذا علمت ذلك فاعلم ان العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم ان فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمتي وقال صلى الله عليه وسلم نظرة
الى العالم أحب الي من عبادة سنة صيامها وقيامها وقال صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على أشرف أهل
الجنة قالوا بلى يارسول الله قال هم علماء أمتي فبان لك أن العلم أشرف جوهرا من العبادة ولكن لابد
للعبد من العبادة مع العلم والا كان علمه هباء منثورا فان العلم بمنزلة الشجرة والعبادة بمنزلة ثمرة من ثمراتها
فالشرف للشجرة اذ هي الاصل لكن الانتفاع انما يحصل بثمرتها فاذا لابد للعبد من أن يكون له من كلا
الامرين حظ ونصيب ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله اطلبوا هذا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا
هذه العبادة طلبا لا يضر بالعلم ولما استقر انه لابد للعبد منهما جميعا فالعلم أولى بالتقديم لامحالة لانه الاصل
والدليل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم العلم امام العمل والعمل تابعه وانما صار العلم أصلا متبوعا يلزمك تقديمه
على العبادة لامرين أحدهما لتحصل لك العبادة وتسلم فانك أولا يجب عليك أن تعرف المعبود ثم تعبده وكيف
تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل في نعته فربما تعتقد فيه وفي صفاته شيأ والعياذ
بالله مما يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثورا وقد شرحنا ما في ذلك من الخطر العظيم في بيان معنى
سوء الخاتمة من كتاب الخوف من جملة كتب احياء علوم الدين ثم يجب عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات
الشرعية على ما أمرت به لتفعل ذلك وما يلزمك تركه من المناهي لتترك ذلك والا فكيف تقوم بطاعات لا تعرفها
ما هي وكيف هي وكيف يجب أن تفعل أم كيف تجتنب معاصي لا تعلم أنها معاص حتى لا توقع نفسك فيها
فالعبادات الشرعية كالطهارة والصلاة والصوم وغيرها يجب أن تعلمها بأحكامها وشرائطها حتى تقيمها فربما
أنت مقيم على شيء سنين وأزمانا مما يفسد عليك طهارتك وصلواتك ويخرجهما عن كونهما واقعتين على
وفاق السنة وأنت لا تشعر بذلك وربما يعترض لك مشكل ولا تجد من تسأله عن ذلك وأنت ما تعلمته ثم مدار
هذا الشأن أيضا على العبادات الباطنة التي هي مساعي القلب يجب أن تعلمها من التوكل والتفويض والرضا
والصبر والتوبة والاخلاص وغير ذلك مما سيأتي ذكره ان شاء الله تعالى ويجب أن تعلم مناهيها التي هي
اضداد هذه الامور كالسخط والامل والرياء والكبر لتجتنب ذلك فان هذه فرائض ونص الله تعالى على الامر
بها والنهي عن أضدادها في كتابه العزيز وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى وعلى الله فتوكلوا ان
كنتم مؤمنين واشكروا الله ان كنتم اياه تعبدون واصبر وما صبرك الا بالله وقوله وتبتل اليه تبتيلا أي أخلص
اليه اخلاصا ونحو ذلك من الآيات كما نص على الامر بالصلاة والصوم فمالك أقبلت على الصلاة والصوم وتركت
هذه الفرائض والامر بهما من رب واحد في كتاب واحد بل غفلت عنها فلا تعرف شيأ منها أفتوى من أصبح
بعاجل حظه مشغوفا حتى صير المعروف منكرا والمنكر معروفا ومن أهمل العلوم التي سماها الله في كتابه نورا
وحكمة وهدى وأقبل على ما به يكتسب الحرام ويكون مصيدة للحطام اما تخاف أيها المسترشد أن تكون مضيعا
لشيء من هذه الواجبات بل لأكثرها وتشتغل بصلاة التطوع وصوم النفل فتكون في لاشيء وربما أنت مصر
على معصية من هذه المعاصي التي تستوجب بها النار وتترك مباحا من طعام أو شراب أو نوم تبتغي به قربة الى
الله عز وجل فتكون في لاشيء وأشد من ذلك كله أنك تكون في اسر الامل والامل معصية محضة فتظنه نية
خير لجهلك بالفرق بينهما وتقاربهما في بعض الوجوه وكذلك تكون في جزع وسخط فتظنه تضرعا وابتهالا الى

ثم الى القاسية في الاقوال
فما أشد هذا المغرور
بأعماله أكثر مما أصلحه
بأقواله اذ لا يجترئ الجاهل
على الرغبة في الدنيا الا
باستجراء العلماء فقد صار علمه
سببا لجراءة عباد الله على
معاصيه ونفسه الجاهلة مدلة
مع ذلك تمنيه وترجيه وتدعوه
الى أن يمن على الله بعلمه
وتخيل اليه نفسه انه خير من
كثير من عباد الله فكن أيها
الطالب من الفريق الاول
واحذر أن تكون من
الفريق الثاني فكم من
مسوف عاجله الاجل قبل
التوبة فخسر واياك ثم اياك
أن تكون من الفريق
الثالث فتهلك هلاكا لا يرجى
معه فلاحك ولا ينتظر
صلاحك فان قلت فما بداية
الهداية لأجرب بها نفسي
فاعلم ان بدايتها ظاهرة
التقوى ونهايتها باطنة التقوى
فلا عاقبة الا بالتقوى ولا
هداية الا للمتقين والتقوى
عبارة عن امتثال أوامر الله
تعالى واجتناب نواهيه فهما
قسمان وها أنا أشير عليك
بجملة مختصرة من ظاهر علم
التقوى في القسمين جميعا

(القسم الاول في الطاعات)

اعلم ان أوامر الله تعالى
فرائض ونوافل فالفرض
رأس المال وهو أصل التجارة

الله عز وجل وتكون في غرور يا مغرور وتحسبه يحمد الله سبحانه وتعالى أو دعوة الناس الى الخير فتأخذ تعتد على الله
سبحانه المعاصي بالطاعات وتحتسب الثواب العظيم في مواضع العقوبات فتكون في غرور عظيم وغفلة قبيحة
فهذه والله مصيبة قطيعة للعاملين من غير علم ثم مع ذلك كله فان للاعمال الظاهرة علائق من المساعي الباطنة
تصلحها وتفسدها كالاخلاص والرياء والعجب وذكر المنة وغيره فمن لم يعرف هذه المساعي الباطنة ووجوه
تأثيرها في العبادات الظاهرة وكيفية الاحتراس منها وحفظ العمل عنها فقلما يسلم له عمل الظاهر أيضا فتفوته
طاعات الظاهر والباطن ولا يبقى بيده الا الشقاء والكد وهذا هو الخسران المبين ولهذا قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم في صفة العلم ان نوما على علم خير من صلاة على جهل فان العامل بغير علم يفسد أكثر مما يصلح وقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم في العلم انه يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء والعجب والعلم عند الله سبحانه ان احدى شقوته
ان لا يتعلم العلم ثم يشق ويتعب في العبادة على خبط فما يكون له من ذلك الا العناء والعياذ بالله من علم وعمل لا ينفع
ولهذا اعظمت عناية العلماء الزهاد العاملين رضي الله عنهم بالعلم خاصة من بين سائر الناس فان مدار امر
العبودية وملاك العبادة والخدمة لله رب العالمين على العلم وهكذا يكون نظر أولي الابصار وأهل التأييد
والتوفيق فاذا تبين لك بهذه الجملة أن الطاعة لا تحصل للعبد ولا تسلم له الا بالعلم فيلزم اذا تقديمه في شأن العبادة
(وأما الخصلة الثانية) التي توجب تقديم العلم فهي أن العلم النافع يثمر خشية الله تعالى ومهابته قال الله تعالى
انما يخشى الله من عباده العلماء وذلك أن من لم يعرفه حق معرفته لم يهبه حق مهابته ولم يعظمه حق تعظيمه وحرمته
فبالعلم يعرفه ويعظمه ويهابه فصار العلم يثمر الطاعات كلها ويحجز عن المعصية كلها بتوفيق الله وليس وراء
هذين مقصد للعبد في عبادة الله سبحانه وتعالى فعليك بالعلم أرشدك الله يا سالك طريق الآخرة أول كل شيء
والله ولي التوفيق بفضله ورحمته واعلم أن تقول قد ورد الخبر عن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه
عليه انه قال طلب العلم فريضة على كل مسلم فما العلم الذي طلبه فرض لازم وما الحد الذي لابد للعبد من تحصيله
في أمر العبادة (فاعلم) أن العلوم التي طلبها فرض في الجملة ثلاثة علم التوحيد وعلم السر أعني به ما يتعلق
بالقلب ومساعيه وعلم الشريعة (وأما) حد ما يجب من كل واحد منها فالذي يتعين فرضه من علم التوحيد
مقدار ما تعرف به أصول الدين وهو ان لك الها عالما قادرا مريدا حيا متكلما سميعا بصيرا واحدا لا شريك له
متصفا بصفات الكمال منزها عن النقصان والزوال ودلالات الحدوث منفردا بالقدم عن كل محدث وان محمدا صلى
الله عليه وسلم عبده ورسوله الصادق فيما جاء به عن الله تعالى وتقدس وفيما ورد على لسانه من أمور الآخرة
(ثم مسائل) في شعائر السنة تجب معرفتها واياك أن تبتدع في دين الله سبحانه وتعالى ما لم يأت به كتاب ولا أثر
فتكون مع الله سبحانه على أعظم خطر وجميع أدلة التوحيد موجود أصلها في كتاب الله سبحانه وقد ذكرها
شيوخنا رضي الله عنهم في كتبهم التي صنفوها في أصول الديانات وعلى الجملة كل ما لا تأمن الهلاك في جهله
فطلب علمه فرض لا يسوغ لك تركه فهذه هذه وبالله التوفيق وأما الذي يتعين فرضه من علم السر فمعرفة مواجبه
ومناهيه حتى يحصل لك تعظيم الله تعالى والاخلاص له والنية وسلامة العمل وجميع ذلك يأتي في كتابنا
هذا ان شاء الله عز وجل (وأما) ما يتعين من علم الشريعة فكل ما يتعين عليك فرض فعله وجب عليك
معرفته لتؤديه كالطهارة والصلاة والصوم وأما الحج والزكاة والجهاد فان تعين عليك فرضه وجب عليك
علمه لتؤديه والا فلا فهذا حد ما يلزم العبد تحصيله من العلم لا محالة وتعين فرضه بحيث لابد له من ذلك
(فان قلت) فهل يفترض علي أن أتعلم من علم التوحيد ما أنقض به جميع ملل الكفر وألزمهم حجة
الاسلام وانقض به جميع البدع وألزمهم حجة السنة (فاعلم) ان هذا فرض على الكفاية وانما يتعين
عليك ما تصحح به اعتقادك في أصول الدين لا غير وكذلك لا يتعين عليك معرفة فروع علم التوحيد
ودقائقه والاتيان على جميع مسائله (نعم) ان وردت عليك شبهة في أصول الدين تخاف ان تقدح في اعتقادك

وبه تحصل النجاة والنقل
هنو الربح وبه الفوز في
الدرجات قال صلى الله عليه
وسلم يقول الله تبارك
وتعالى ما تقرب الي المتقربون
بمثل اداء ما افترضت عليهم
ولا يزال العبد يتقرب الي
بالنوافل حتى أحبه فاذا
أحببته كنت سمعه الذي
يسمع به وبصره الذي يبصر
به ولسانه الذي ينطق به
ويده التي يبطش بها ورجله
التي يمشي بها ولن تصل أيها
الطالب الى القيام بأوامر
الله تعالى الا بمراقبة قلبك
وجوارحك في لحظاتك
وانفاسك من حين تصبح الى
حين تمسي فاعلم ان الله تعالى
مطلع على ضميرك ومشرف
على ظاهرك وباطنك ومحيط
بجميع لحظاتك وخطراتك
وخطواتك وسائر سكناتك
وحركاتك وانك في مخالطتك
وخلواتك متردد بين يديه فلا
يسكن في الملك والملكوت
ساكن ولا يتحرك متحرك
الا وجبار السموات والارض
مطلع عليه يعلم خائنة الاعين
وما تخفي الصدور ويعلم
السر وأخفى فتأدب أيها
المسكين ظاهرا وباطنا بين
يدي الله تعالى تأدب العبد
الذليل المذنب في حضرة
الملك الجبار القهار واجتهد
ان لا يراك مولاك حيث

فتعين عليك لحل تلك الشبهة بما أمكن من الكلام المقنع وإياك والمماراة والمجادلة فإنهما داء محض لا دواء له فاحذرهما جهدك فإن من ابتلي بهما لم يفلح الا أن يتغمده الله تعالى برحمته ولطفه (ثم اعلم) انه اذا كان في كل قطر داع من دعاة أهل السنة يحل الشبه ويرد على أهل البدع ويستقل بهذا العلم ويصفي قلوب أهل الحق عن وساوس المبتدعة فقد سقط الفرض عن سواه وكذلك لا يلزمك من معرفة دقائق علم السر وجميع شرح عجائب القلب الا ما يتوقف عليك فساد تلك قلبك فيلزمك معرفته لتجتنبه وما يلزمك فعله كالاخلاص والحمد والشكر والتوكل ونحو ذلك فيلزمك معرفته لتؤديه (وأما) ما سوى ذلك فلا وكذلك لا يلزمك معرفة سائر أبواب الفقه من البيوع والاجارات والنكاح والطلاق والجنايات انما كل ذلك فرض على الكفاية (فان قلت) هذا القدر من علم التوحيد هل يحصل بنظر الانسان من غير معلم (فاعلم) ان الاستاذ فاتح ومسهل والتحصيل معه أسهل وأروح والله تعالى بفضله يمن على من يشاء من عباده فيكون هو معلمهم سبحانه وتعالى (ثم اعلم) ان هذه العقبة التي هي عقبة العلم عقبة كؤود ولكن بها ينال المطلوب والمقصود ذو عقبها كثير وقطعها شديد وخطرها عظيم كم من عدل عنها فضل وكم من سلكها فزل وكم من تاه فيها فتحير وكم من سعى فيها منقطع وكم من سأل قطعها في مدة يسيرة وآخر متردد فيها سبعين سنة والامر كله بيد الله عز وجل أما انه فعلى ما ذكرنا من شدة الحاجة للعبد اليه وبناء أمر العبادة كله عليه لا سيما علم التوحيد وعلم السر (فلقد روي) ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام فقال يا داود تعلم العلم النافع فقال الهي وما العلم النافع فقال ان تعرف جلالي وعظمتي وكبريائي وكمال قدرتي على كل شئ فان هذا الذي يقربك الي (وعن علي كرم الله وجهه) أنه قال ما يسرني ان لو مت طفلا وادخلت الجنة ولم أكبر فأعرف ربي فان أعلم الناس بالله أشدهم خشية وأكثرهم عبادة وأحسنهم في الله سبحانه وتعالى نصيحة (وأما) شدتها فانك تحتاج فيها الى الاخلاص في طلب العلم وليكن الطالب طالب دراية لا طالب رواية (واعلم) ان الخطر عظيم فمن طلب العلم ليصرف به وجوه الناس اليه ويجالس به الامراء ويباهي به النظراء ويتصيد به الحطام فتجارته بائرة وصفقته خاسرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب العلم ليفاخر العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس اليه ادخله الله النار (قال) أبو يزيد البسطامي رحمه الله عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيأ أشد علي من العلم وخطره واياك ان يزين لك الشيطان فيقول لك اذا كان قد ورد هذا الخطر العظيم في العلم فتركه أولى فلا تظنن ذلك (فلقد روي) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اطلعت ليلة المعراج على النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء قالوا يا رسول الله من المال قال لا بل من العلم فمن لا يتعلم العلم لا يتأتى له احكام العبادات والقيام بحقوقها كما ينبغي ولو ان رجلا عبد الله سبحانه عبادة ملائكة السموات بغير علم كان من الخاسرين فشمر في طلب العلم بالبحث والتلقين والتدريس واجتنب الكسل والملال والا فانت في خطر الضلال والعياذ بالله عز وجل (ثم جملة الامر) أنك اذا نظرت في دلائل صنع الله عز وجل وأمعنت النظر علمت أن لك ولنا الها قادرا عالما حيا مريدا سميعا بصيرا متكلما منزها عن حدوث الكلام والعلم والارادة متقدسا عن كل نقص وآفة لا يوصف بصفات المحدثين ولا يجوز عليه ما يجوز على المخلوقين ولا يشبه شيأ من خلقه ولا يشبهه شئ ولا تتضمنه الاماكن والجهات ولا تحله الحوادث والآفات (وانظرت) في معجزات الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وآياته وأعلام نبوته علمت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمينه على وحيه وما كان السلف الصالح يعتقدونه من أن الله تعالى يرى في الآخرة وأنه موجود وليس في جهة محدودة وأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق وليس بحروف مقطعة ولا أصوات اذ لو كان كذلك لكان من جملة المخلوقات وأنه لا يكون في الملك والملكوت فلتة خاطر ولا لفتة ناظر الا بقضاء الله تعالى وقدره وارادته ومشيئته فمنه الخير والشر والنفع والضر والايمان والكفر وأنه لا واجب على الله تعالى لاحد من خلقه فمن أثابه فبفضله ومن عاقبه فبعدله وما ورد على لسان صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه من أمور الآخرة كالحشر

والنشر

ع حالك ولا تشتغل بحرف أمرك ولن تقدر على ذلك الا بأن توزع أوقاتك وترتب أورادك من صباحك الى مسائك واسمع الى ما يلقى اليك من أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظنا من منامك الى وقت رجوعك الى مضجعك

(فصل في آداب الاستيقاظ من النوم)

فاذا استيقظت من النوم فاجتهد ان تستيقظ قبل طلوع الفجر وليكن أول ما يجري على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى فقل عند ذلك الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله رب العالمين أصبحنا على فطرة الاسلام وعلى كلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين اللهم انا نسألك ان تبعثنا في هذا اليوم الى كل خير وأعوذ بك أن أجترح فيه سوأ أو أجره الى مسلم اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك النشور نسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ونعوذ بك

والقبر وعذاب القبر وسؤال منكر ونكير والميزان والصراط فهذه أصول دين السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين على اعتقادها والتمسك بها ووقع عليها الاجماع قبل تنوع البدع وظهور الاهواء نعوذ بالله من الابتداع في الدين واتباع الهوى بغير دليل (ثم تعرف) في اعمال القلوب الواجبات الباطنة والمناهي التي تأتي في هذا الكتاب ليحصل لك علمه ثم تعرف جملة ما تحتاج الى استعماله كالطهارة والصلاة والصوم ونحوه (فاذا أديت) فرض الله تعالى عليك الذي تعبدك به في باب العلم ولقد صرت من علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم الراسخين في العلم فان عملت بعلمك وأقبلت على عمارة معادك كنت عبدا عالما عاملا لله تعالى على بصيرة غير جاهل ولا مقلد ولا غافل فلك الشرف العظيم ولعلمك القيمة الكبيرة والثواب الجزيل وكنت قد قطعت هذه العقبة وخلفتها وراءك وقضيت حقها باذن الله تعالى والله سبحانه مسؤول أن يمدك وايانا بحسن توفيقه وتيسيره انه أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(العقبة الثانية وهي عقبة التوبة)

ثم عليك يا طالب العبادة وفقك الله بالتوبة وذلك لامرين (أحدهما) ليحصل لك توفيق الطاعة فان شؤم الذنوب يورث الحرمان ويعقب الخذلان وان قيد الذنوب يمنع من المشي الى طاعة الله عز وجل والمسارعة الى خدمته لان ثقل الذنوب يمنع من الخفة للخيرات والنشاط في الطاعات وان الاصرار على الذنوب مما يسود القلوب فتجدها في ظلمة وقساوة لا اخلاص فيها ولا صفاوة ولا لذة ولا حلاوة وان لم يرحم الله فستجر صاحبها الى الكفر والشقاوة فيا عجبا كيف يوفق للطاعة من هو في شؤم وقسوة وكيف يدعى الى الخدمة من هو مصر على المعصية ومقيم على الجفوة وكيف يقرب للمناجاة من هو متلطخ بالاقذار والنجاسات ففي الخبر عن الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا كذب العبد تنحى عنه الملكان من نتن ما يخرج من فيه فكيف يصلح هذا اللسان لذكر الله عز وجل فلا جرم لا يكاد يجد المصر على العصيان توفيقا ولا تخف أركانه لعبادة الله تعالى فان اتفق فبكد لا حلاوة معه ولا صفوة وكل ذلك لشؤم الذنوب وترك التوبة (ولقد) صدق من قال اذا لم تقو على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك مكبول قد كبلتك خطيئتك فهذه هذه (والثاني) من الامرين انما تلزمك التوبة لتقبل منك عبادتك فان رب الدين لا يقبل الهدية وذلك أن التوبة عن المعاصي وارضاء الخصوم فرض لازم وعامة العبادة التي تقصدها نفل فكيف يقبل منك تبرعك والدين عليك حال لم تقضه وكيف تترك لاجله الحلال والمباح وأنت مصر على فعل المحظور والحرام وكيف تناجيه وتدعوه وتثني عليه وهو والعياذ بالله عليك غضبان فهذا ظاهر حال العصاة المصرين على المعصية والله المستعان (فان قلت) فما معنى التوبة النصوح وما حدها وما ينبغي للعبد أن يفعله حتى يخرج من الذنوب كلها (فأقول) أما التوبة فانها اسم من مساعي القلب وهي عند التحصيل في قول العلماء رضي الله عنهم تنزيه القلب عن الذنب (قال شيخنا رحمه الله) في حد التوبة انه ترك اختيار ذنب سبق مثله عنه منزلة لا صورة تعظيما لله تعالى وحذرا من سخطه فلها اذن أربعة شرائط (احداها) ترك اختيار الذنب وهو ان يوطن قلبه ويجرد عزمه على انه لا يعود الى الذنب البتة فأما ان ترك الذنب وفي نفسه انه ربما يعود اليه أو لا يعزم على ذلك بل يتردد فانه ربما يقع له العود فانه ممتنع عن الذنب غير تائب منه (والثانية) أن يتوب من ذنب قد سبق عنه مثله اذ لو لم يسبق عنه مثله لكان متقيا غير تائب ألا ترى انه يصح القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان متقيا عن الكفر ولا يصح القول بانه كان تائبا عن الكفر اذ لم يسبق عنه كفر بحال وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان تائبا عن الكفر لما سبق عنه ذلك (والثالثة) أن الذي سبق عنه يكون مثل الذي يترك اختياره في المنزلة والدرجة لا في الصورة ألا ترى ان الشيخ الهرم الفاني الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق اذا أراد ان يتوب عن ذلك تمكنه التوبة لا محالة اذ لم يغلق عنه بابها ولا يمكنه ترك اختيار الزنا وقطع الطريق اذ هو لا يقدر الساعة على فعل ذلك فلا يقدر على ترك اختياره فلا يصح وصفه بانه

من شر هذا اليوم وشر ما فيه فاذا لبست ثيابك فانو به امتثال أمر الله تعالى في ستر عورتك واحذر أن يكون قصدك من لباسك مراآة الخلق فتخسر

(باب آداب دخول الخلاء)

فاذا قصدت بيت الماء لقضاء الحاجة فقدم في الدخول رجلك اليسرى وفي الخروج رجلك اليمنى ولا تستصحب شيئا عليه اسم الله تعالى ورسوله ولا تدخل حاسر الرأس ولا حافي القدمين وقل عند الدخول بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم وعند الخروج غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني وينبغي ان تعد النبل قبل قضاء الحاجة وان لا تستنجي بالماء في موضع قضاء الحاجة وان تستبرئ من البول بالتنحنح والنتر ثلاثا وبامرار اليد اليسرى على أسفل القضيب وان كنت في الصحراء فابعد عن عيون الناظرين واستتر بشيء ان وجدته ولا تكشف عورتك قبل الانتهاء الى موضع الجلوس ولا تستقبل القبلة ولا الشمس ولا القمر ولا تستدبرها ولا تبل في متحدث الناس ولا تبل في الماء الراكد وتحت الشجرة المثمرة ولا في الجحر وابعد عن

تاركاً له ممتنع عنه وهو عاجز عنه غير متمكن منه لكنه يقدر على فعل ما هو مثل الزنا وقطع الطريق في المنزلة والدرجة كالكذب والقذف والغيبة والنميمة اذ جميع ذلك معاص وان كان الاثم يتفاوت في كل واحدة بقدرها لكن جميع هذه المعاصي الفرعية كلها بمنزلة واحدة وهي دون منزلة البدعة ومنزلة البدعة دون منزلة الكفر فلذلك تصح منه التوبة عن الزنا وقطع الطريق وسائر ما مضى من الذنوب التي هو عاجز عن أمثالها اليوم في الصورة (والرابعة) أن يكون ترك اختياره لذلك تعظيماً لله عز وجل وحذراً من سخطه وأليم عقابه مجرداً لا لرغبة دنيوية أو رهبة من الناس أو طلب ثناء أو صيت أو جاه أو ضعف في النفس أو فقر أو غير ذلك فهذه شرائط التوبة وأركانها اذا حصلت واستكملت فهي توبة حقيقية صادقة وأما مقدمات التوبة فثلاث (احداها) ذكر غاية قبح الذنوب (والثانية) ذكر شدة عقوبة الله عز وجل وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة لك به (والثالثة) ذكر ضعفك وقلة حيلتك في ذلك فان من لا يحتمل حر شمس ولا لطمة شرطي ولا قرص نملة كيف يحتمل حر نار جهنم وضرب مقامع الزبانية ولسع حيات كاعناق البخت وعقارب كالبغال خلقت من النار في دار الغضب والبوار نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وعذابه فاذا واظبت على هذه الاذكار وعاودتها آناء الليل والنهار فانها ستحملك على التوبة النصوح من الذنوب والله الموفق بفضله (فان قيل) اليس قد قال النبي صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يذكر مما ذكرتم من شرائطها وشددتم شيأ يقال له اعلم أولاً ان الندم غير مقدور للعبد ألا ترى أنه تقع الندامة عن أمور في قلبه وهو يريد أن لا يكون ذلك والتوبة مقدورة للعبد مأمور بها ثم انا قد علمنا أنه لو ندم على الذنوب لما ذهب بذلك جاهه بين الناس أو ماله في النفقة فيها فان ذلك لا يكون توبة بلا ريب فعلمت بذلك ان في الخبر معنى لم تفهمه من ظاهره وهو أن الندم لتعظيم الله سبحانه وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح فان ذلك من صفات التائبين وحالهم فانه اذا ذكر الاذكار الثلاثة التي هي مقدمات التوبة ندم وحملته الندامة على ترك اختيار الذنوب وتبقى ندامته في قلبه في المستقبل فتحمله على الابتهال والتضرع فلما كان ذلك من أسباب التوبة وصفات التائب سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم التوبة فافهم ذلك موفقاً ان شاء الله تعالى (فان قلت) كيف يمكن الانسان ان يصير بحيث لا يقع منه ذنب البتة من صغير أو كبير كيف وأنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه الذين هم أشرف خلق الله سبحانه وتعالى قد اختلف فيهم أهل العلم هل نالوا هذه الدرجة أم لا (فاعلم) ان هذا أمر ممكن غير مستحيل ثم هو هين والله يختص برحمته من يشاء (ثم) من شرط التوبة أن لا يتعمد ذنباً فأما ان وقع منه بسهو أو خطأ فهو معفو عنه بفضل الله تعالى وهذا هين على من وفقه الله تعالى (فان قلت) انما يمنعني من التوبة أني أعلم من نفسي أني أعود الى الذنب ولا أثبت على التوبة فلا فائدة في ذلك (فاعلم) ان هذا من غرور الشيطان ومن أين لك هذا العلم فعسى أن تموت تائباً قبل ان تعود الى الذنب وأما الخوف من العود فعليك العزم والصدق في ذلك وعليه الاتمام فان أتم فذاك المقصود من فضله وان لم يتم فقد غفرت ذنوبك السالفة كلها وتخلصت منها وتطهرت وليس عليك الا هذا الذنب الذي أحدثته الآن وهذا هو الربح العظيم والفائدة العظيمة الكبيرة فلا يمنعك خوف العود عن التوبة فانك من التوبة أبداً بين احدى الحسنيين والله ولي التوفيق والهداية فهذه هذه (وأما) الخروج عن الذنوب والتخلص منها (فاعلم) ان الذنوب في الجملة ثلاثة أقسام (أحدها) ترك واجبات الله سبحانه وتعالى عليك من صلاة أو صوم أو زكاة أو كفارة أو غيرها فتقضي ما أمكنك منها (والثاني) ذنوب بينك وبين الله سبحانه وتعالى كشرب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا ونحو ذلك فتندم على ذلك وتوطن قلبك على ترك العود الى مثلها أبداً (والثالث) ذنوب بينك وبين العباد وهذا أشكل وأصعب وهي أقسام قد تكون في المال وفي النفس وفي العرض وفي الحرمة وفي الدين (فما كان في المال) فيجب عليك أن ترده عليه ان أمكنك فان عجزت عن ذلك لعدم وفقر فتستحل منه فان عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موته وأمكن التصدق عنه فافعل وان لم يمكن فعليك بتكثير حسناتك والرجوع الى الله بالتضرع

والابتهال

الارض الصلبة ومهب الريح احترازاً من الرشاش لقوله صلى الله عليه وسلم ان عامة عذاب القبر منه واتكئ في جلوسك على الرجل اليسرى ولا تبل قائماً الا عن ضرورة واجمع في الاستنجاء بين استعمال الحجر والماء فاذا أردت الاقتصار على أحدهما فالماء أفضل وان اقتصرت على الحجر فعليك ان تستعمل ثلاثة أحجار طاهرة منشفة للعين تمسح بها محل النجو بحيث لا تنقل النجاسة عن موضعها وكذلك تمسح القضيب في ثلاثة مواضع من حجر فان لم يحصل الانقاء بثلاثة فبخمسة أو سبعة الى ان ينقى بالايتار فالايتار مستحب والانقاء واجب ولا تستنج الا باليد اليسرى وقل عند الفراغ من الاستنجاء اللهم طهر قلبي من النفاق وحصن فرجي من الفواحش وادلك يدك بعد تمام الاستنجاء بالارض أو بحائط ثم اغسلها

(آداب الوضوء)

فاذا فرغت من الاستنجاء فلا تترك السواك فانه مطهرة للفم ومرضاة للرب ومسخطة للشيطان وصلاة بسواك أفضل من سبعين صلاة بلا سواك وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم

والابتهال ان يرضيه عنك يوم القيامة (وأما ما كان في النفس) فتمكنه من القصاص أو أوليائه حتى يقتص منك أو يجعلك في حل فان عجزت فالرجوع الى الله سبحانه والابتهال اليه أن يرضيه عنك يوم القيامة (وأما في العرض) فان اغتبته أو بهته أو شتمته فحقك أن تكذب نفسك بين يدي من فعلت ذلك عنده وان تستحل من صاحبه ان أمكنك هذا اذا لم تخش زيادة غيظ أو هيج فتنة في اظهار ذلك أو تجديده فان خشيت ذلك فالرجوع الى الله سبحانه وتعالى ليرضيه عنك ويجعل له خيرا كثيرا في مقابلته والاستغفار الكثير لصاحبه (وأما الحرمة) بان خنته في أهله أو ولده أو نحوه فلا وجه للاستحلال والاظهار لانه يولد فتنة وغيظا بل تتضرع الى الله سبحانه ليرضيه عنك ويجعل له خيرا كثيرا في مقابلته فان أمنت الفتنة والهيج وهو نادر فتستحل منه (وأما في الدين) بان كفرته أو بدعته أو ضللته فهو أصعب الامور فتحتاج الى تكذيب نفسك بين يدي من قلت له ذلك وأن تستحل من صاحبك ان أمكنك والا فالابتهال الى الله تعالى جدا والتندم على ذلك ليرضيه عنك (وجملة الامر) فما أمكنك من ارضاء الخصوم عملت وما لم يمكنك رجعت الى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والابتهال والتصدق ليرضيه عنك فيكون ذلك في مشيئة الله سبحانه يوم القيامة والرجاء منه بفضله العظيم واحسانه العميم أنه اذا علم الصدق من قلب العبد فانه يرضي خصماءه من خزانة فضله ولا حكم فاعلم هذه حقها راشدا فهذه هذه (فاذا أنت) عملت ما وصفناه وبرأت القلب عن اختيار مثلها في المستقبل فقد خرجت من الذنوب كلها وان حصلت منك تبرئة القلب ولم يحصل منك قضاء الفوائت وارضاء الخصوم فالتبعات لازمة وسائر الذنوب مغفورة ولهذا الباب شرح يطول فلا يحتمله هذا المختصر وانظر كتاب التوبة من كتاب احياء علوم الدين أولا وكتاب القربة الى الله تعالى ثانيا وكتاب الغاية القصوى ثالثا تجد فوائد كثيرة وشرحا والذي ذكرناه ههنا هو الاصل الذي لا بد منه وبالله التوفيق

(فصل) ثم اعلم يقينا أن هذه العقبة عقبة صعبة أمرها مهم وضررها عظيم (فلقد بلغنا) عن الاستاذ أبي اسحق الاسفرايني رحمه الله وكان من الراسخين في العلم العاملين به أنه قال دعوت الله سبحانه ثلاثين سنة أن يرزقني توبة نصوحا ثم تعجبت في نفسي فقلت سبحان الله حاجة دعوت الله فيها ثلاثين سنة فما قضيت الى الآن فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول لي أتتعجب من ذلك أتدري ماذا تسأل الله انما تسأل الله سبحانه أن يحبك أما سمعت قوله جل جلاله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين أفهذه حاجة هينة فانظر الى هؤلاء الائمة واهتمامهم ومواظبتهم على صلاح قلوبهم والتزودلمعادهم (وأما) الضرر الخوف في تأخير التوبة فان أول الذنب قسوة وآخره والعياذ بالله شؤم وشقوة فاياك أن تنسى أمر ابليس وبلعم بن باعوراء اذ كان مبدأ أمرهما ذنبا وآخره كفرا فهلكا مع الهالكين أبد الآبدين فعليك رحمك الله بالتيقظ والجهد عسى أن تقلع من قلبك عرق هذا الاصرار وتتخلص رقبتك من هذه الاوزار ولا تأمن قساوة القلب من الذنوب وتأمل حالك فانه قد قال بعض الصالحين ان سواد القلب من الذنوب وعلامة سواد القلب أن لا تجد للذنوب مفزعا ولا للطاعة موقعا ولا للموعظة منجعا ولا تستحقرن من الذنوب شيأ فتحسب نفسك تائبا وأنت مصر على الكبائر (فلقد بلغنا) عن كهمس بن الحسن انه قال اذنبت ذنبا فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة فقيل ما هو يا أبا عبد الله قال زارني أخ لي في الله فاشتريت له سمكا فأكل ثم قمت الى حائط جاري فاخذت منه قطعة طين فغسل بها يده فناقش نفسك وحاسبها وسارع الى التوبة وبادر فان الاجل مكتوم والدنيا غرور والنفس والشيطان عدوان وتضرع الى الله سبحانه وابتهل اليه واذكر حال أبينا آدم صلى الله عليه وسلم الذي خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه وحمله الى جنته على اعناق الملائكة لم يذنب الا ذنبا واحدا فنزل به ما نزل حتى روي ان الله تعالى قال له يا آدم أي جار كنت لك قال نعم الجار يا رب قال يا آدم اخرج من جواري وضع عن رأسك تاج كرامتي فانه لا يجاورني من عصاني حتى انه فيما روي بكى على ذنبه مائتي سنة حتى قبل الله توبته وغفر

بالسواك في كل صلاة وعنه صلى الله عليه وسلم أمرت بالسواك حتى خشيت ان يكتب علي * ثم اجلس للوضوء مستقبل القبلة على موضع مرتفع كيلا يصيبك الرشاش وقل بسم الله الرحمن الرحيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب ان يحضرون ثم اغسل يديك ثلاثا قبل ان تدخلهما الاناء وقل اللهم اني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ثم انو رفع الحدث أو استباحة الصلاة ولا ينبغي ان تعزب نيتك قبل غسل الوجه فلا يصح وضوءك ثم خذ غرفة لفيك وتمضمض بها ثلاثا وبالغ في رد الماء الى الغلصمة الا أن تكون صائما فترفق وقل اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة * ثم خذ غرفة لانفك واستنشق بها ثلاثا واستنثر ما في الانف من رطوبة وقل في الاستنشاق اللهم أرحني رائحة الجنة وأنت عني راض وفي الاستنثار اللهم اني أعوذ بك من روائح النار وسوء الدار ثم خذ غرفة لوجهك واغسله بها من مبتدا تسطيح الجبهة الى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول ومن الاذن الى الاذن في العرض وأوصل

ذنبه الواحد هذا حاله مع نبيه وصفيه في ذنب واحد فكيف حال الغير في ذنوب لا تحصى وهذا تضرع التائب وابتهاله فكيف بالمصر المتعسف ولقد أحسن من قال

يخاف على نفسه من يتوب * فكيف ترى حال من لا يتوب

فان تبت ثم نقضت التوبة وعدت الى الذنب ثانيا فعد الى التوبة مبادرا وقل لنفسك لعلي اموت قبل ان أعود الى الذنب هذه المرة وكذلك ثالثا ورابعا كما اتخذت الذنب والعود اليه حرفة فاتخذ التوبة أيضا والعود اليها حرفة ولا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب ولا تيأس ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فانه دلالة الخير أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم خياركم كل مفتن تواب أي كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه والرجوع الى الله جل جلاله بالندامة والاستغفار وتذكر قوله سبحانه ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما فهذه هذه وبالله التوفيق

(فصل) وجملة الامر أنك اذا ابتدأت فبرأت قلبك عن الذنوب كلها بأن توطنه على ان لا تعود الى الذنب أبدا البتة الا ما كان منك في علم الله على وجه علم الله سبحانه وتعالى صدق عزمك من قلب نقي وترضي الخصوم بما أمكنك وتقضي الفوائت بما تقدر عليه وترجع في البواقي الى الله سبحانه وتعالى بالابتهال والتضرع ليكفيك ذلك ثم تذهب فتغتسل وتغسل ثيابك وتصلي أربع ركعات كما يجب وتضع وجهك على الارض في مكان خال لا يراك الا الله سبحانه وتعالى ثم تجعل التراب على رأسك وتمرغ وجهك الذي هو أعز أعضائك في التراب بدمع جار وقلب حزين وصوت عال وتذكر ذنوبك واحدا واحدا ما أمكنك وتلوم نفسك العاصية عليها وتوبخها وتقول أما تستحيين يا نفس اما آن لك ان تتوبي ألك طاقة بعذاب الله سبحانه ألك حاجة بسخط الله سبحانه وتذكر من هذا كثيرا وتبكي ثم ترفع يديك الى الرب الرحيم سبحانه وتقول (الهي) عبدك الآبق رجع الى بابك عبدك العاصي رجع الى الصلح عبدك المذنب أتاك بالعذر فاعف عني بجودك وتقبلني بفضلك وانظر الي برحمتك اللهم اغفر لي ما سلف من الذنوب واعصمني فيما بقي من الاجل فان الخير كله بيدك وأنت بنا رؤف رحيم ثم تدعو دعاء الشدة وهو يا مجلي عظائم الامور يا منتهى همة المهمومين يا من اذا أراد أمرا فانما يقول له كن فيكون أحاطت بنا ذنوبنا أنت المذخور لها يا مذخورا لكل شدة كنت اذخرتك لهذه الساعة فتب علي انك أنت التواب الرحيم ثم أكثر من البكاء والتذلل والتضرع وقل يا من لا يشغله شان عن شان ولا سمع عن سمع يا من لا تغلطه كثرة المسائل يا من لا يبرمه الحاح الملحين أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك برحمتك يا أرحم الراحمين انك على كل شئ قدير ثم تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله ثم تستغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات وترجع الى طاعة الله جل جلاله فتكون قد تبت توبة نصوحا وقد خرجت من الذنوب طاهرا كيوم ولدتك أمك وأحبك الله سبحانه ولك من الاجر والثواب وعليك من البركة والرحمة ما لا يحيط به وصف الواصفين وحصل لك الامن والخلاص ونجوت من غضبه وغصة المعاصي وبليتها في الدنيا والآخرة وكنت قد قطعت هذه العقبة باذن الله سبحانه وتعالى والله ولي الهداية بمنه وفضله

(العقبة الثالثة وهي عقبة العوائق)

ثم عليك يا طالب العبادة وفقك الله تعالى بدفع العوائق حتى تستقيم عبادتك وقد ذكرنا أن العوائق أربعة (أحدها) الدنيا وما فيها ودفعها انما هو بالتجرد عنها والزهد فيها وانما لزمك هذا التجرد والزهد لامرين أحدهما لتستقيم لك العبادة وتكثر فان الرغبة في الدنيا تشغلك أما ظاهرك فبالطلب وأما باطنك فبالارادة وحديث النفس وكلاهما يمنع العبادة فان النفس واحدة والقلب واحد فاذا اشتغل بشئ انقطع عن ضده وان مثل الدنيا والآخرة كمثل الضرتين ان أرضيت احداهما أسخطت الاخرى وانهما كالمشرق والمغرب بقدر ما تميل الى أحدهما تعرضت عن الآخر أما شغلها في الظاهر فقدر وينا عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال

الماء الى موضع الحذف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو ما بين رأس الاذن الى زاوية الجبين أعني ما يقع منه في جهة الوجه وأوصل الماء الى منابت الشعور الاربعة الحاجبين والشاربين والاهداب والعذارين وهما ما وازى الاذنين من مبتدأ اللحية ويجب ايصال الماء الى منابت الشعر من اللحية الخفيفة دون الكثيفة وقل عند غسل الوجه اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك ولا تترك تخليل اللحية الكثيفة ثم اغسل يدك اليمنى ثم اليسرى مع المرفقين الى انصاف العضدين فان الحلية في الجنة تبلغ مواضع الوضوء وقل عند غسل اليمنى اللهم أعطني كتابي بيميني وحاسبني حسابا يسيرا وعند غسل الشمال اللهم اني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري * ثم استوعب رأسك بالمسح بان تبل يديك وتلصق رؤس أصابع يدك اليمنى باليسرى وتضعهما على مقدمة الرأس وتمرهما الى القفا ثم تردهما الى المقدمة فهذه مرة تفعل ذلك ثلاث مرات وكذلك في سائر الاعضاء

زاولت

زاوات أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأقبلت على العبادة وتركت التجارة (وعن عمر رضي الله عنه) أنه قال لو كانتا تجتمعان لأحد غيري لاجتمعتا لي لما أعطاني الله سبحانه من القوة واللين فاذا كان الحديث كذلك فاضر بالفانية واختر السلامة والسلام (وأما) شغلها بالقلب وهو الباطن لمكان الارادة فلما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى فبان لك أنه اذا اشتغل ظاهرك بالدنيا وباطنك بارادتها فلا تتيسر لك العبادة حقها وأما اذا زهدت فيها فتفرغت بظاهرك وباطنك تيسرت لك العبادة بل تعاونك أعضاؤك عليها (والذي روي) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قال ان العبد اذا زهد في الدنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه في العبادة فهذه (والثاني) من الامرين أنه يكثر قيمة عملك ويعظم قدره وشرفه فلقد قال صلى الله عليه وسلم ركعتان من رجل عالم زاهد قلبه خير وأحب الى الله جل جلاله من عبادة المتعبدين الى آخر الدهر أبدا سرمدا فاذا كانت العبادة تشرف وتكثر بذلك فحق لمن طلب العبادة أن يزهد في الدنيا ويتجرد عنها (فان قلت) فما معنى الزهد في الدنيا وما حقيقة ذلك (فاعلم) أن الزهد عند علمائنا رحمهم الله زهدان زهد مقدور للعبد وزهد غير مقدور فالذي هو مقدور ثلاثة أشياء ترك طلب المفقود من الدنيا وتفريق المجموع منها وترك ارادتها واختيارها (وأما) الزهد الذي هو غير مقدور للعبد فهو برودة الشيء على قلب الزاهد (ثم) الزهد الذي هو مقدور للعبد مقدمات للزهد الذي هو غير مقدور للعبد فاذا أتى به العبد بأن لا يطلب ما ليس عنده من الدنيا ويفرق ما عنده منها ويترك بالقلب ارادتها واختيارها لاجل الله وعظيم ثوابه بتذكره الآخرة أورثته تلك برودة الدنيا على قلبه وهذا عندي هو الزهد الحقيقي (ثم اعلم) أن أصعب الامور الثلاثة انما هو ترك الارادة بالقلب اذ كم من تارك لها بالظاهر محب مريد لها بباطنه فهو في مكابدة ومقاساة شديدة من نفسه والشأن كله في هذه ألم تسمع الى قوله سبحانه عز من قائل تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا علق الحكم بنفي الارادة دون الطلب والفعل المراد وقوله سبحانه من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب وقوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء وقوله ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها الآية أما ترى الاشارة كلها الى الارادة فأمرها هو المهم اذ لا يمكن العبد اذا واظب واستقام على الاولين أعني التفريق والترك فأمول من فضل الله سبحانه أن يوفقه لدفع هذه الارادة والاختيار عن قلبه فانه المتفضل الكريم عز وجل (ثم الذي يبعث على الترك والتفريق) ويهون عليك ذلك ذكر آفات الدنيا وعيوبها وقد أكثر الناس القول في ذلك فمنهم من يقول بعضهم تركت الدنيا لقلة غنائها وكثرة عنائها وسرعة فنائها وخسة شركائها (قال شيخي الامام رحمه الله) لكن يجي عن هذه فمن أقبح الرغبة الخالية فلان من شركائها أحد أحب وصاله ومن ترك شيئا لمكان الشركاء فيه أحب لو انفرد به فالقول البالغ فيه ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى ان الدنيا عدو الله عز وجل وأنت تحبه ومن أحب أحدا أبغض عدوه (قال) ولانها في أصلها وسخة جيفة الا ترى ان آخرها الى القذر والفساد والتلاشي والاضمحلال والنفاد لكنها جيفة مغشت بلبس وطويت بزينة فاغتر بظاهرها الغافلون وزهد فيها العاقلون (فان قيل) فما حكم الزهد في الدنيا أهو فرض أم نفل (فاعلم) أن الزهد يقع عند نافي الحلال والحرام فهو في الحرام فرض وفي الحلال نفل ثم منزلة هذا الحرام لمستقيمي الطاعات بمنزلة الميتة المستقذرة لا يقدم عليها الا عند الضرر وبقدر دفع الضرر (وأما) الزهد في الحلال فانما يكون في منزلة الابدال يكون عندهم الحلال بمنزلة الميتة لا يتناولون منها الا قدر الابد منه والحرام عندهم بمنزلة النار لا يخطر ببالهم قصد تناولها بحال وهذا معنى البرودة على القلب بأن يقطع همته عنها ويستقذرها ويستنكرها جدا فلا يبقى لها في قلبه اختيار ولا ارادة (فان قلت) كيف يمكن أن تصير الدنيا في شهواتها ولذاتها العجيبة المطلوبة عند الانسان بمنزلة النار أو بمنزلة الجيفة المستقذرة المستحيلة والنفيسة بتقيا

وقل اللهم غشني برحمتك وأنزل علي من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل الا ظلك اللهم حرم شعري وبشري على النار ثم تمسح أذنيك ظاهرهما وباطنهما بماء جديد وأدخل مسبحتيك في صماخي أذنيك وامسح ظاهر أذنيك ببطن ابهاميك وقل اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعني منادي الجنة في الجنة مع الابرار ثم امسح رقبتك وقل اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والاغلال ثم اغسل رجلك اليمنى ثم اليسرى مع الكعبين وخلل بخنصر اليسرى أصابع رجليك مبتدئا بخنصر اليمنى حتى تختم بخنصر اليسرى وتخلل الاصابع من أسفل وقل اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم مع أقدام عبادك الصالحين وكذلك تقول عند غسل اليسرى اللهم اني أعوذ بك ان تزل قدمي على الصراط في النار يوم تزل أقدام المنافقين والمشركين وارفع الماء الى أنصاف الساقين وراع التكرار ثلاثا في جميع أفعالك فاذا فرغت من الوضوء فارفع بصرك الى السماء وقل أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له

والطبيع طبعنا (فاعلم) أن من وفق التوفيق الخاص وعلم آفاتها وقذرها في أصلها فتصير عنده كذلك وانما يتعجبنا من هذا الراغبون العميان عن عيوب الدنيا وآفاتها المغترون بظاهرها وزينتها وسأضرب لك مثلا لذلك (فاعلم) أن هذا مثل بانسان صنع خبيصا بأشرف ما فيه من السكر وغيره ثم طرح فيه قطعة سم قاتل وأبصر ذلك رجل ولم يبصره آخر ووضع الخبيص بين أيديهما فتناثر شيئا فالرجل الذي أبصر ما جعل فيه من السم يكون زاهدا في ذلك الخبيص لا يخطر بباله أن يتناول منه بحال البتة ويكون ذلك عنده بمنزلة النار بل أصعب لمكان ما يعلم من آفاته فلا يغتر بظاهره وزينته (وأما) الرجل الآخر الذي لم يبصر ما جعل فيه اغتر بظاهره المزخرف وحرص عليه ولم يصبر عنه وأخذ يتعجب من صاحبه الزاهد فيه وربما يسفهه في ذلك فهذا مثل حرام الدنيا مع البصراء المستقيمين والجهال الراغبين فان لم يطرح فيه السم ولكن بصق فيه أو امتخط ثم ضمخه وزينه فالرجل الذي شاهد منه ذلك الفعل يكون مستقذرا لذلك الخبيص نافرا عنه لا يكاد يقدم عليه الا عند الضرورة وشدة الحاجة اليه والذي لم يشاهد ذلك فهو جاهل بما فيه مغتر بظاهره حريص عليه مكب متعجب فهذا مثل حلال الدنيا مع الفريقين أهل البصيرة والاستقامة وأهل الرغبة والغفلة وانما اختلف حال الرجلين مع تساويهما في الطبع والبنية لبصارة وعلم كان لأحدهما وجهل وجفاء كان للآخر فلو علم الراغب وأبصر ما علمه الزاهد لكان زاهدا مثله ولو جهل الزاهد وعمي عما عمي عنه الراغب لكان راغبا مثله فعلمت بذلك أن هذا التمييز لمكان البصائر دون الطبائع وهذا أصل مفيد وكلام بين سديد اعترف به من عقل وأنصف والله تعالى ولي الهداية والتوفيق بفضله (فان قيل) فلا بد لنا من قدر من الدنيا ليكون قواما لنا فكيف نزهد فيها (فاعلم) أن الزهد في الفضول مما لا يحتاج اليه في قوام البنية فالمقصود القوام والقوة حتى تعبد الله سبحانه لا الأكل والشرب والتلذذ والله تعالى ان شاء أقامها بشيء وسبب وان شاء تعالى أقامها بغير سبب كالملائكة عليهم السلام ثم ان كان بشيء ان شاء فبشيء حاصل عندك أو بطلبك وكسبك وان شاء بشيء غيره يسببه لك من حيث لا تحتسب من غير طلب منك وكسب كما قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب فاذا لا احتياج بحال الى طلب وارادة فان لم تقو على ذلك الزهد وطلبت وأردت فانو بذلك العدة والتقوي على عبادة الله سبحانه وتعالى دون الشهوة واللذة فانك اذا نويت ذلك كان الطلب والارادة منك خيرا وطلبا للآخرة بالحقيقة لا للدنيا ولا يقدح في زهدك وتجردك فاعلم هذه الجملة راشدا وبالله التوفيق

(العائق الثاني الخلق) ثم عليك وفقك الله وايانا لطاعته بالتفرد عن الخلق وذلك لأمرين (أحدهما) انهم يشغلونك عن عبادة الله عز وجل على ما حكي عن بعضهم انه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله أشهى الي من كلامك فقلت أنت وحدك فقال معي ربي وملكاي فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت أين الطريق فأشار بيده نحو السماء وقام وتركني وقال أكثر خلقك عنك شاغل فالخلق اذا يشغلونك عن العبادة بل يمنعونك منها بل يوقعونك في الشر والهلاك على ما قال حاتم الأصم رحمه الله طلبت من هذا الخلق خمسة أشياء فلم أجدها طلبت منهم الطاعة والزهادة فلم يفعلوا فقلت أعينوني عليهما ان لم تفعلوا فلم يفعلوا فقلت ارضوا عني ان فعلت فلم يفعلوا فقلت لا تمنعوني عنهما اذا فعلت فلم يفعلوا فقلت لا تدعوني الى ما لا يرضي الله العظيم ولا تعادوني عليه ان لم أتابعكم فلم يفعلوا فتركتهم واشتغلت بخاصة نفسي (واعلم) أيها الأخ في الدين ان نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم وصف زمان العزلة وبين نعته ونعت أهله وأمر فيه بالتفرد وكان صلى الله عليه وسلم لا محالة أعلم بالمصالح وأنصح لنا منا لأنفسنا فان وجدت زمانك على ما وصف وبين فامتثل أمره صلى الله عليه وسلم واقبل نصيحته ولا تشك في انه صلى الله عليه وسلم كان أعرف بما يصلح لك في زمانك ولا تتعلل بالعلل الكاذبة ولا تخادع نفسك والا فأنت هالك ولا عذر لك والوصف الذي ذكرناه منها ما هو في الخبر المشهور عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما انه قال

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت عملت سوءا وظلمت نفسي أستغفرك وأتوب اليك فاغفر لي وتب علي انك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين واجعلني صبورا شكورا واجعلني أذكرك ذكرا كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا فمن قال هذه الدعوات في وضوئه خرجت خطاياه من جميع أعضائه وختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك الوضوء الى يوم القيامة واجتنب في وضوئك سبعا لا تنفض يديك فترش الماء ولا تلطم رأسك ووجهك بالماء لطما ولا تتكلم في أثناء الوضوء ولا تزد في الغسل على ثلاث مرات ولا تكثر صب الماء من غير حاجة بمجرد الوسوسة فللوسوسين شيطان يلعب بهم يقال له الولهان ولا تتوضأ بالماء المشمس ولا في الأواني الصفرية فهذه السبعة مكروهة في الوضوء وفي الخبر انه من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه الا ما أصابه الماء

بينا نحن حول النبي صلى الله عليه وسلم اذ ذكر الفتنة فقال اذا رأيتم الناس مرجت عهودهم وخفت اماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه قلت ما أصنع عند ذلك جعلني الله فداك قال الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة وذكر في خبر آخر انه عليه الصلاة والسلام قال ذلك ايام الهرج قيل وما ايام الهرج قال حين لا يأمن الرجل جليسه (وذكر) ابن مسعود رضي الله عنه في خبر آخر الحرث بن عميرة انه صلى الله عليه وسلم قال له ان يدفع عن عمرك فسيأتي عليك زمان كثير خطباؤه قليل علماؤه كثير سؤاله قليل معطاوه الهوى فيه قائد العلم قال ومتى ذلك قال اذا اميتت الصلاة وقبلت الرشا وبيع الدين بعرض يسير من الدنيا فالنجاء النجاء ويحك ثم النجاء (قلت) وجميع ما ذكر في هذه الاخبار تراه بعينك في زمانك وأهله فانظر لنفسك (ثم) ان السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله وآثروا العزلة وأمروا بذلك وتواصوا به ولا شك انهم كانوا أبصر وأنصح وان الزمان لم يصر بعدهم خيرا مما كان بل أشر منه وأمر وهو ما ذكر عن يوسف بن اسباط انه قال سمعت الثوري يقول والله الذي لا اله الا هو لقد حلت العزلة في هذا الزمان (قلت) انا وائن حلت في زمانه ففي زماننا هذا وجبت وافترضت (وعن سفيان الثوري أيضا) انه كتب الى عباد الخواص رحمهما الله أما بعد فانك في زمان كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتعوذون بالله من أن يدركوه فيما بلغنا ولهم من العلم ما ليس لنا فكيف بنا حين ادركناه على قلة علم وقلة صبر وقلة أعوان على الخير وكدر من الدنيا وفساد من الناس فان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال في العزلة راحة من خلطاء السوء وفي مثل هذا قيل

هذا الزمان الذي كنا نحاذره * في قول كعب وفي قول ابن مسعود

دهر به الحق مردود باجمعه * والظلم والبغي فيه غير مردود

أعمى أصم من الازمان ملتبس * فيه لابليس تصويب وتصعيد

ان دام هذا ولم يحدث له غير * لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

(ولقد) وجدت عن سفيان بن عيينة انه قال قلت للثوري أوصني قال اقلل من معرفة الناس (قلت) يرحمك الله أليس قد جاء في الخبر اكثروا من معرفة الناس فان لكل مؤمن شفاعة قال لا احسبك رأيت قط ما تكره الا ممن تعرف قلت أجل ثم مات رحمه الله فرأيته بعد موته في المنام فقلت يا أبا عبد الله أوصني قال أقلل من معرفة الناس ما استطعت فان التخلص منهم شديد وقد قيل في معنى هذا الخبر نظما

ومازلت مذ لاح المشيب بمفرقي * افتش عن هذا الورى واكشف

فان عرفت الناس الاذمتهم * جزى الله خيرا كل من لست اعرف

ومالي ذنب استحق به الجفا * سوى انني احببت من ليس ينصف

قال وقيل كتب على باب الدار جزى الله من لا يعرفنا خيرا ولا جزى بذلك اصدقاءنا فانا أوذينا فقط الا منهم وانشدوا فيه

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا * ولا بينه ود ولا نتعارف

فما صابنا هم ولا نالنا اذى * من الناس الا من نود ونعرف

(قال الفضيل رحمه الله) هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر (وقال) سفيان الثوري هذا زمان السكوت ولزوم البيوت والرضا بالقوت الى ان تموت (وعن داود الطائي) رحمه الله صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الاسد وعن أبي عبيدة ما رأيت حكيما قط الا قال لي في عقب كلامه ان احببت ان لا تعرف فأنت من الله على بال والاخبار في هذا الباب اكثر من ان يحتملها هذا الكتاب وقد صنفنا فيه كتابا مفردا وسميناه كتاب اخلاق الابرار والنجاة من الاشرار فقف عليه ترى العجب العجاب والعاقل يكفيه اشارة والله ولي التوفيق والهداية بفضله (واما الخصلة

(آداب الغسل)

فاذا أصابتك جنابة من احتلام أو وقاع فاحمل الاناء الى المغتسل واغسل يديك أولا ثلاثا وأزل ما على بدنك من قذر وتوضأ كما سبق وضوءك للصلاة مع جميع الدعوات وأخر غسل رجليك كي لا يضيع الماء فاذا فرغت من الوضوء فصب الماء على رأسك ثلاثا وأنت ناو رفع الحدث من الجنابة ثم على شقك الايمن ثلاثا ثم على الايسر ثلاثا وأدلك ما اقبل من بدنك وما أدبر وخلل شعر رأسك ولحيتك وأوصل الماء الى معاطف البدن ومنابت الشعر ما خف منه وما كثف واحذر ان تمس ذكرك بعد الوضوء فان اصابته يدك فأعد الوضوء والفريضة من جملة ذلك كله النية وازالة النجاسة واستيعاب البدن بالغسل ومن الوضوء غسل الوجه واليدين مع المرفقين ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين الى الكعبين مرة مرة مع النية والترتيب وما عداها سنن مؤكدة فضلها كثير وثوابها جزيل والمتهاون بها خاسر بل هو بأصل فرائضه مخاطر فان النوافل جوابر للفرائض

(آداب التيمم)

فان عجزت عن استعمال الماء لفقده بعد الطلب أو لعذر

(الثانية) التى تقتضى التفرد عن الناس فى هذا الشأن ان الناس يفسدون عليك ما يحصل لك من العبادة ان لم يعصم الله سبحانه بسبب ما يعرض من قبلهم من دواعى الرياء والتزين ولقد صدق يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله حيث قال رؤية الناس بساط الرياء وهؤلاء الزهاد قد بنوا على أنفسهم من هذا المعنى حتى تركوا الملاقاة والتزاور ولقد ذكر ان هرم بن حيان قال لاويس القرنى رحمهما الله يا أويس صلنا بالزيارة واللقاء فقال أويس قد وصلتك بما هو أنفع لك منهما وهو الدعاء على ظهر الغيب لان الزيارة واللقاء يعرض فيهما التزين والرياء (وقيل لسليمان الخواص) حين قدم ابراهيم بن أدهم أفلا تأتيه فقال لان ألقى شيطانا ماردا أحب الى من ان ألقاه فاستنكر واذلك من قوله فقال انى أخاف اذا لقيته ان أتزين له واذا لقيت شيطانا استعذت منه ولقد لقى شيخى الامام بعض العارفين فتذاكرا ما شاء دعوا فى آخر حديثهما فقال شيخى الامام للعارف ما أظننى جالست مجلسا أنا له ارجى من مجلسى هذا فقال له العارف لكنى ما جلست مجلسا انا له أخوف من مجلسى هذا ألست تعمد الى أحسن حديثك وعلومك فتحدثنى بها وتظهرها بين يدى وانا كذلك فقد وقع الرياء فبكى شيخى الامام ملياثم غشى عليه فكان بعد ذلك يتمثل بهذه الابيات

ياويلتا من موقف ماله * اخوفه من ان يعدل الحاكم

ابارز الله بعصيانه * وليس لى من دونه راحم

يارب عفوا منك عن مذنب * اسرف الا انه نادم

يقول فى الليل اذا ما دجى * آه الذنب ستر العالم

فهذه حال أهل الزهد والرياضة فى ملاقاتهم فكيف حال أهل الرغبة والبطالة بل حال أهل الشر والجهالة (اعلم) ان الزمان قد أصبح فى فساد عظيم وأصبح الناس فى ضر كثير فانهم يشغلونك عن عبادة الله تعالى حتى لا يكاد يحصل لك منها شئ ثم يفسدون عليك ما حصل لك حتى لا يكاد يسلم لك منها شئ فلزمتك العزلة والتفرد عن الناس والاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله والله تعالى الحافظ بفضله ورحمته (فان قيل) فما حكم العزلة والتفرد عن الناس فبين لنا حال طبقات الخلق فيها والحد الذى يجب منها اعلم رحمك الله وايانا ان الناس فى هذا الباب رجلان رجل لا حاجة بالخلق اليه فى علم وبيان حكم فالاولى بهذا الرجل التفرد عن الناس فلا يخالطهم الا فى جمعة أو جماعة أو عيد أو حج أو مجلس علم بالسنة أو حاجة فى معيشة لا بد له من ذلك والا فيوارى شخصه ويلزم كنه لا يعرف ولا يعرف فأما ان أحب هذا الرجل ان ينقطع عن الناس فلا يخالطهم فى أمر من الامور البتة من دين أو دنيا وجماعة وجمعة أو غيرهما المسارى له فى ذلك من مصلحته وفراغه فانه لا يسعه ذلك الا بأحد أمرين (اما) ان يصير الى موضع لا يلزمه هنالك هذه الفروض كرؤس الجبال وبطون الاودية ونحوها ولعل هذا أحد الوجوه التى دعت العباد الى تلك المواضع البعيدة عن الناس (واما) ان يتيقن بالحقيقة ان الضرر الذى يلحقه فى مخالطة الناس بسبب هذه الفروض أعظم من تركها فحينئذ يكون له عذر فى تركها ولقد رأيت أنا بمكة حرسها الله بعض المشايخ المنفردين من أهل العلم وهو لا يحضر المسجد الحرام فى الجماعات مع قربه منه وسلامة حاله فحاورته فى ذلك يوما فى حال ترددى اليه فذكر من عذره ما أشرنا اليه وهو ان ما يحصل له من الثواب لا يفى بما يلحقه من الآثام والتبعات فى الخروج الى المسجد ولقاء الناس (قلت أنا) وجملة الامور فلا عتب على المعذور والله تعالى أعلم بالعذر وهو عليم بذات الصدور ولكن الطريق العدل فيه هو الاول بأن يشارك الناس فى الجمعة والجماعات وضروب الخيرات ويباينهم فيما سوى ذلك فان أحب الطريق الثانى بأن ينقطع عن الناس مرة فسبيله الخروج الى مواضع لا تتوجه عليه هذه الفروض ثم لان الطريق الثالث وهو ان يكون مع الناس فى مصر واحد لا يحضر جمعة ولا جماعة لعذر يراه فى ذلك من وزر أو تبعة عليه فانه يحتاج الى نظر دقيق وعوارض عظيمة حتى يسقط ذلك عنه وفيه خطر من الغلط فالاولى أن أسلم وأحفظ له والله ولى الهداية بفضله (وأما الرجل

من مرض أو لمانع من الوصول اليه من سبع أو حبس أو كان الماء لحاجة تحتاج اليه لعطشك أو عطش رفيقك أو كان ملكا لغيرك ولم يبع الا بأكثر من ثمن المثل أو كانت بك جراحة أو مرض تخاف منه على نفسك فاصبر حتى يدخل وقت الفريضة ثم اقصد صعيدا طيبا عليه تراب خالص طاهر لين فاضرب عليه بكفيك ضاما بين أصابعك وانو استباحة فرض الصلاة وامسح بهما وجهك مرة واحدة ولا تتكلف ايصال الغبار الى منابت الشعر خف أو كثف ثم انزع خاتمك واضرب ضربة ثانية مفرقا بين أصابعك وامسح بهما يديك مع مرفقيك فان لم تستوعبهما فاضرب ضربة أخرى الى ان تستوعبهما ثم امسح احدى كفيك بالاخرى وامسح ما بين أصابعك بالتخليل وصل به فرضا واحدا وما شئت من النوافل فان أردت فرضا ثانيا فاستأنف له تيمما آخر (آداب الخروج الى المسجد) فاذا فرغت من طهارتك فصل فى بيتك ركعتى الفجر ان كان الفجر قد طلع كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توجه الى المسجد ولا تدع الصلاة فى الجماعة لاسيما الصبح فصلاة

الثاني) فرجل يكون قدوة في العلم بحيث يحتاج الناس اليه في أمر دينهم لبيان حق أو رد على مبتدع أو دعوة الى خير بفعل أو بقول أو نحو ذلك فلا يسع مثل هذا الرجل الاعتزال عن الناس بل ينصب نفسه بينهم ناصحا لخلق الله ذابا عن دين الله تعالى مبينا لاحكام الله فلقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله هذا اذا كان بينهم واذا خرج من بينهم فلا يجوز له أيضا الاعتزال (ولقد حكى) ان الاستاذ أبا بكر بن فورك رحمه الله قصد ان ينفرد لعبادة الله عن الناس فبينما هو في بعض الجبال اذ سمع صوتا ينادي يا أبا بكر اذ صرت من حجج الله على خلقه تركت عباد الله فرجع وكان هذا سبب صحبته للخلق (وذكر لي) مأمون بن أحمد رحمه الله ان الاستاذ أبا اسحق رحمه الله قال لعباد جبل لبنان يا أكلة الحشيش تركتم أمة محمد صلى الله عليه وسلم في أيدى المبتدعة واشتغلتم ههنا بأكل الحشيش قالوا انا لا نقوى على صحبة الناس وانما أعطاك الله قوة فلزمك ذلك فصنف بعد ذلك كتابه الجامع للجلى والخفى وكان لهم رضى الله عنهم مع غزارة علمهم العمل الجم والنظر الدقيق في سلوك طريق الآخرة (واعلم) ان مثل هذا الرجل المحتاج اليه الناس في طرق باب الدين يحتاج في صحبة الخلق الى أمرين شديدين (أحدهما) صبر طويل وحلم عظيم ونظر لطيف واستعانة بالله تعالى دائمة (والثانى) أن يكون في هذا المعنى منفردا عنهم وان كان بالشخص معهم فان تكلموا كلمهم وان زاروه عظمهم على قدرهم وشكرهم وان سكتوا عنه واعرضوا عنه استغنم ذلك منهم وان كانوا في حق ونحوه ساعدهم وان صاروا الى لغو وشرخالفهم وهجرهم بل رد عليهم وزجرهم ان رجا قبولهم ثم يقوم بجميع حقوقهم من الزيارات والعيادات وقضاء الحاجات التى ترفع اليه ما أمكنه ولا يطالبهم بالمكافآت ولا يرجو ذلك منهم ولا يريهم من نفسه استيحاشا لذلك ويباسطهم بالبذل ان قدر وينقبض عنهم في الاخذ ان اعطى ويتحمل منهم الاذى ويظهر لهم البشر ويتجمل بظاهره لهم ويكتم حاجاته عنهم فيقاسمهم بنفسه ويعالجها في سره وباطنه ثم يحتاج مع ذلك ان ينظر لنفسه خاصة فيجعل لها حظا من العبادة الخالصة كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان نمت الليل لاضيعن نفسى وان نمت النهار لاضيعن الرعية فكيف لى بالنوم بين هاتين وفى هذا المعنى عرض لى أبيات من الشعر وهى

فان كنت في هدى الأئمة راغبا * فوطن على ان تحتملك الوقائع
بنفس وقور عند كل كريهة * وقلب صبور وهو فى الصدر مائع
لسانك مخزون وطرفك ملجم * وسرك مكتوم لدى الرب ذائع
وذكرك مغمور وبابك مغلق * وثغرك بسام وبطنك جائع
وقلبك مجروح وسوقك كاسد * وفضلك مدفون وطعنك شائع
وفى كل يوم أنت جارع غصة * من الدهر والاخوان والقلب طائع
نهارك شغل الناس من غير منة * وليلك شوق غاب عنه الطلائع
فدونك هذا الليل خذه ذريعة * ليوم عبوس عز فيه الذرائع

نعم يكون بالنفس معهم والقلب ما أبعده عنهم وذلك لعمرى أمر شديد وعيش نكد وفيه يقول شيخنا رحمه الله فى وصيته يا بنى عش مع أهل زمانك ولا تقتد بهم ثم قال ما أشد هذا العيش مع الاحياء والاقتداء بالاموات وعن ابن مسعود رضى الله عنه خالط الناس وزايلهم ودينك لا تكلمنه فهذه نكتة مقنعة (ثم أقول) اذا ماج الفتن بعضها فى بعض وتراجع الامر وولى الناس عن أمر الدين مدبرين لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ولا يطالبون عالما ولا يرمقون مفيدا ولا يعنيهم أمر دينهم البتة وترى الفتنة تعم العامة وتدب بين الخاصة فللعالم العذر فى العزلة والتفرد ودفن العلم وأخاف ان ما ذكرناه هو هذا الزمان النكد الصعب والله المستعان وعليه التكلان فهذا حكم العزلة والتفرد عن الناس فافهمه فان الغلط فيه عظيم وضرره كثير وبالله التوفيق (فان قيل) أليس النبى صلى

الجماعة تفضل على صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة فان كنت تتساهل فى مثل هذا الربح فأى فائدة لك فى طلب العلم وانما ثمرة العلم العمل به فاذا مشيت الى المسجد فامش على الهينة والسكينة ولا تعجل وقل فى طريقك اللهم بحق السائلين عليك وبحق الراغبين اليك وبحق ممشاى هذا اليك فانى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فاسألك ان تنقذنى من النار وان تغفر لى ذنوبى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت

(آداب دخول المسجد)

فاذا أردت الدخول الى المسجد فقدم رجلك اليمنى وقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ومهما رأيت فى المسجد من يبيع فقل لا أربح الله تجارتك واذا رأيت فيه من ينشد عن ضالة فقل لا رد الله عليك ضالتك كذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تصلى ركعتى التحية فان لم تكن على طهارة أو لم ترد فعلها كفتك الباقيات الصالحات ثلاثا وقيل أربعا وقيل ثلاثا الممدث وواحدة

الله عليه وسلم قال عليكم بالجماعة فان يد الله تعالى على الجماعة وان الشيطان ذئب الانسان يأخذ الشاذة والقاصية والفاذة وقال ان الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد (فاعلم) ان هذه وردت وورد أيضا الزم بيتك وعليك بالخاصة ودع أمر العامة فأمر بالعزلة والتفرد في الزمان السوء ولا تناقض في قوله صلى الله عليه وسلم ولا بد من الجمع بين الخبرين بحول الله وتوفيقه (فاقول) قوله صلى الله عليه وسلم عليكم بالجماعة يحتمل ثلاثة أوجه * أحدها انه يعني به في الدين والحكم اذ لا تجتمع هذه الامة على ضلالة فخرق الاجماع والحكم بخلاف ما عليه جمهور الامة والشذوذ عنهم باطل وضلال واما ان يعتزل عنهم لصلاح في دينه فليس هذا من ذلك في شئ (والثاني) عليكم بالجماعة بان لا تنقطعوا عنهم في جمعهم وجماعاتهم ونحوها فان فيها قوة الدين وكمال الاسلام وغيظ الكفار والملحدين ولا تخلو ذلك من بركات ونظر من الله عز وجل بالرحمة ولذلك نقول ان حق المنفرد ان يشارك الناس في الجموع العامة في الخير وان يجانبهم في الصحبة والمزاحمة في سائر الامور لما فيها من ضروب الآفات (والثالث) ان ذلك في غير زمان الفتنة للرجل الضعيف في أمر الدين وأما الرجل البصير القوي في أمر الله تعالى اذا رأى زمان الفتنة الذي حذر النبي صلى الله عليه وسلم الامة منه وأمرهم بالعزلة فيه فالعزلة أولى لما في المخالطة من الفساد والآفات وينبغي له ان لا ينقطع من جموع الاسلام والخيرات العامة وان أراد ان ينفرد عن الناس بمرة فليسكن بشاهق جبل أو بطن فلاة لصلاح يراه في دينه (ثم قلت) ولا أرى مثل هذا الرجل أينما كان الا ويمكنه الله عز وجل من حضور الجماعات والجمعات وسائر جموع الاسلام فيحضر لئلا يفوته الحظ منها أيضا فان جموع الاسلام من الله تعالى بمكان وان تغير الناس وفسدوا كذا سمعنا من حال الابدال انهم يحضرون جموع الاسلام أينما كانوا ويسيرون من الارض حيث شاؤا وان الارض لهم قدم واحد (وفي الاخبار) ان الارض تطوى لهم وينادون بالتحيات ويتحفون بأنواع البر والكرامات فهنيأ لهم بما ظفروا به وأحسن الله عزاء من غفل عن النظر في خلاص نفسه وأعان الطالب الذي لم يصل الى المقصود كأمثالنا ولقد عرض لي في صفة حالي أبيات من الشعر وهي

ظفر الطالبون واتصل الوصل وفاز الاحباب بالاحباب
وبقينا مذبذبين حيارى * بين حد الوصال والاجتناب
ترتجي القرب بالبعاد وهذا * نفس حال المحال للالباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغم ونهدي الى طريق الصواب
ياطبيب السقام يامرهم الجرح * ح ويامنقذي من الاوصاب
است أدري بما أداوي سقامي * أو بماذا أفوز يوم الحساب

ولنقبض الآن عنان الجنان ونرجع الى المقصود من شأن العزلة فقد خرجنا عن شرط الباب (فان قيل) أليس قد قال النبي صلى الله عليه وسلم رهبانية أمتي الجلوس في المساجد وفيه زجر عن التفرد فاعلم ان ذلك في غير زمن الفتنة كما ذكرناه وأيضا فانه يجلس في المسجد ولا يخالط الناس ولا يداخلهم فيكون بالشخص معهم وفي المعنى منفردا عنهم وهذا هو المعنى في العزلة والتفرد الذي نحن في شرحه لا التفرد بالشخص والمكان فافهم ذلك رحمك الله وفيه يقول ابراهيم بن أدهم رحمه الله كن واحدا جامعيا ومن ربك ذا أنس ومن الناس وحشيا (فان قيل) فما تقول في مدارس علماء الآخرة ورباطات الصوفية سالكي طريق الآخرة والسكون فيها (فاعلم) ان تلك الطريقة المثلى في هذا الشأن لعامة أهل العلم والاجتهاد وذلك لانها جمعت المعنيين والفائدتين اللتين احداهما العزلة عن الناس والتفرد عنهم بالصحبة والمخالطة والمزاحمة في أمورهم والثانية المشاركة معهم في جمعهم وجماعاتهم وتكثير شعائر الاسلام فتحصل السلامة التي هي للمنفردين والخير الكثير الذي هو لعامة المسلمين مع ما للناس فيهم من القدوة والبركة والنصيحة فصار السكون فيها اعدل طريق واحسن حال واسلم سبيل ولهذا

الشأن

للمتوحدين فان لم تكن صليت ركعتي الفجر فيجزئك اداؤهما عن التحية فاذا فرغت من الركعتين فانو الاعتكاف وادع بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتي الفجر فقال اللهم اني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعثي وترد بها الفتن وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي وتبيض بها وجهي وتلهمني بها رشدي وتقضي لي بها حاجتي وتعصمني بها من كل سوء اللهم اني أسألك ايمانا خالصا يباشر قلبي وأسألك يقينا صادقا حتى أعلم انه لن يصيبني الا ما كتبته علي والرضا بما قسمته لي اللهم اني أسألك ايمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر واسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة اللهم اني أسألك الصبر عند القضاء والفوز عند اللقاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الاعداء ومرافقة الانبياء اللهم اني أنزل بك حاجتي وان ضعف رأيي وقصر عملي وافتقرت الى رحمتك فاسألك ياقاضي الامور وياشافي الصدور كما تجير بين البحور ان تجيرني من عذاب السعير

الشأن أقام أ كثر العارفين بين الناس لنفعهم لعباد الله تعالى فى باب الدين وقلة أذاهم ومشاهدة الخلق لآدابهم وحسن رسومهم ليقتدوا بهم فان لسان الحال أفصح من لسان المقال فصار ذلك أحسن تدبير فى أمر الدين للعلم والعبادة وأحكم رأى (فان قيل) فما حال المريد مع المجتهدين والمرتاضين أيصحبهم أم يعتزلهم (فاعلم) انهم اذا كانوا ثابتين على رسومهم الاولى وسيرتهم الموروثة عن سلفهم فهم أجل اخوان فى الله عز وجل وأصحاب وأعوان على عبادة الله تعالى فلا تسعك عنهم عزلة وتفردوا غنامهم مثل ما تسمع من زهاد لبنان وغيرهم ان منهم جماعات يتعاونون على البر والتقوى ويتواصون بالحق والصبر وأما اذا تغيروا عن سيرتهم وتركوا رسومهم واخلوا بطريقتهم الموروثة عن أسلافهم الصالحين فحكم هذا المجتهد المرتاض معهم كحكمه مع سائر الناس يلزم زاويته ويكف لسانه ويشاركهم فى خيراتهم ويجانبهم فى سائر أحوالهم وآفاتهم فيكون هو فى عزلة من أهل العزلة منفردا عن المنفردين (فان قلت) فان اختار هذا المجتهد المرتاض أن يخرج من بينهم الى مكان آخر لصلاح يراه فى نفسه وتجنب آفة تدخل عليه فى صحبتهم (فاعلم) ان هذه المدارس والرباطات بمنزلة حصن حصين يتحصن بها المجتهدون عن القطاع والسراق وان الخارج بمنزلة الصحراء تدور فيها فرسان الشياطين عسكرا عسكرا فتسلبه أو تستأسره فكيف حاله اذا خرج الى الصحراء وتمكن العدو منه من كل جانب يعمل به ما يشاء فاذا ليس لهذا الضعيف الا لزوم الحصن وأما الرجل القوى البصير الذى لا يغلبه الاعداء واستوى عنده الحصن والصحراء فلا خوف عليه اذا خرج غير ان الكون فى الحصن أحوط على كل حال اذ لا يؤمن من الفلتات والاتفاقات مع قرناء السوء واذا كان الامر بهذه المثابة فالكون مع رجال الله والصبر على مشقة الصحبة أولى للمرتاض وطالب الخير بكل حال وان لا مانع للقوى البالغ مبلغ الاستقامة عن التفرد منهم فاعلم هذه الجملة وتأملها تفهم وتسلم ان شاء الله تعالى (فان قيل) فما تقول فى زيارة الاخوان فى الله عز وجل ومواصلة الاصحاب بالتلاقى والتذاكر (فاعلم) ان زيارة الاخوان فى الله عز وجل من جواهر عبادة الله تعالى وفيها الزلفة والكرامة الى الله عز وجل مع ما فيها من ضروب الفوائد وصلاح القلب ولكن بشرطين أحدهما أن لا تخرج فى ذلك الى الاكثار والافراط (قال) النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لابى هريرة رضى الله عنه زر غبا تزدد حبا والثانى أن تحفظ حق ذلك بالتجنب عن الرياء والتزين وقول اللغو والغيبة ونحو ذلك فيعود عليك وعلى أخيك الوبال فلقد حكى ان الفضيل وسفيان رحمهما الله تذاكرا فبكيا فقال سفيان يا أبا على ارجو أن ما جلسنا مجلسا أرجى لنا من هذا المجلس فقال الفضيل ما جلست مجلسا أخوف على من هذا فقال وكيف يا أبا على قال ألست تعمد الى أحسن حديثك فتحدثنى به وانا عمدت الى أحسن ما عندى فحدثتك به فتزينت لى وتزينت لك فبكى سفيان فيجب أن تكون مجالستك للاخوان وملاقاتهم على مقدار قصد واحتياط وتنار اطيف فلا يقدح ذلك حينئذ فى عزلتك وتفردك عن الناس ولا يعود عليك وعلى أخيك بضرر وآفة بل بخير كثير ونفع عظيم والله الموفق (فان قلت) فما يعين على العزلة عن الناس والتفرد ويهون على ذلك (فاعلم) ان الذى يهون عليك ذلك ثلاثة أمور * أحدها استغراق أوقاتك فى العبادة فان فى العبادة شغلا وان الاستئناس بالناس من علامات الافلاس فاذا رأيت نفسك تتطلع الى ملاقاة الناس وكلامهم من غير حاجة وضرورة فاعلم ان ذلك فضول ساقه الفراغ والبطار ولقد أحسن من قال فى هذا المعنى

ان الفراغ الى سلامك قادنى * ولرب عمل الفضول الفارغ

فانك اذا عانقت العبادة بحقها وجدت حلاوة المناجاة فاستأنست بكتاب الله سبحانه واشتغلت عن الخلق واستوحشت من صحبتهم وكلامهم (وفى الخبر) ان موسى عليه السلام كان اذا رجع عن المناجاة يستوحش من الناس وكان يجعل أصبعيه فى أذنيه لئلا يسمع كلامهم وكان كلامهم عنده فى النفور والوحشة فى ذلك

ومن فتنة القبور ومن دعوة الثبور اللهم وما ضعف عنه رأيى وقصر عنه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فانى أرغب اليك فيه وأسألك اياه يا رب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لاعدائك سلما لاوليائك نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم اللهم ذا الحبل الشديد والامر الرشيد أسألك الامن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود الركع السجود والموفين لك بالعهود انك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد سبحان من اتصف بالعز وقال به سبحان من لبس المجد وتكرم به سبحان من لا ينبغى التسبيح الا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى القدرة والكرم سبحان الذى أحصى كل شئ بعلمه اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى

الوقت كأصوات الحمير فعليك بما قاله شيخنا رحمه الله

ارض بالله صاحبا * وذر الناس جانبا * صادق الود شاهدا * كنت فيهم وغائبا
قلب الناس كيف شئت تجدهم عقاربا

والثاني قطع الطامع عنهم بمرة فيهون عليك أمرهم لان من لا ترجو نفعه ولا تخاف ضره فوجوده وعدمه سواء والثالث تبصر آفاتهم وتذكرك ذلك وتكريره على قلبك فان هذه الاركان الثلاثة اذا لزمتها طردتك عن صحبة الخلق الى باب الله تعالى والتفرد لعبادته ومحبته اليك والزمتك بابه وبالله التوفيق والعصمة *(العائق الثالث الشيطان)* ثم عليك يا أخي بمحاربة الشيطان وقهره وذلك لخصلتين * احداهما انه عدو مضل مبين ولا مطمع فيه لمصالحته وابقاء عليك بل لا يقنعه الا هلاكك أصلا فلا وجه اذا للامن من مثل هذا العدو والغفلة عنه وتأمل آيتين من كتاب الله تعالى احداهما قوله تعالى ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين والثانية قوله تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وهذا اقصى التحذير وغايته والخصلة الثانية انه مجبول على عداوتك ومنتصب أبدا لمحاربتك فهو آناء الليل واطراف النهار يرميك بسهامه وأنت غافل عنه فكيف يكون الحال ثم وقعت معك نكتة أخرى وهي انك في عبادة الله تعالى ودعوة الخلق الى باب الله سبحانه بفعالك وقولك وهذا ضد صنيع الشيطان وهمته ومراده وحرفته فصرت كانك قت وشددت وسطك لمغايظة الشيطان وتكايده وتناقضه فهو أيضا اشد وسطه لمعاداتك وبقتالك وبما كرك حتى يفسد والعياذ بالله عليك شأنك بل حتى يهلكك رأسا اذ لا يأمن من جانبك بعد فانه الذي يمشي ويقصد بالهلاك الى من لا يغايظه ولا يناقضه بل يصادقه ويوافقه كالكفار وأهل الضلال وأهل الرغبة في بعض الاحوال فكيف قصده لمن قام لمغايظته وتجرد لمناقضته فله اذن مع سائر الناس عداوة عامة ومعك أيها المجتهد في العبادة والعلم عداوة خاصة وان أمرك له لمهم ومعه عليك اعوان اشدها عليك نفسك وهواك وله أسباب ومداخل وأبواب أنت عنها غافل (ولقد صدق) يحيى بن معاذ الرازي حيث قال الشيطان فارغ وأنت مشغول والشيطان يراك وأنت لا تراه وأنت تنساه وهو لا ينساك ومن نفسك للشيطان عليك اعوان فاذن لا بد من محاربته وقهره والا فلا تأمن الفساد والهلاك (فان قلت) فبأي شيء احارب الشيطان وبأي شيء اقهره وادفعه فاعلم ان لاهل هذه الصناعة في هذه المسألة طريقين احدهما ما قال بعضهم ان التدبير في دفع الشيطان الاستعاذة بالله سبحانه لا غير فان الشيطان كلب سلطه الله سبحانه عليك فان اشتغلت بمحاربته ومعالجته تعبت وضاع عليك وقتك ولو عاظفر بك فيعقرك ويجرحك فالرجوع الى رب الكلب ليصرفه عنك أولى والثاني ما قال آخرون ان الطريق المجاهدة والقيام عليه بالدفع والرد والمخالفة (قلت) والذي عندي ان الطريق العدل الجامع في أمره ان تجمع بين الطريقين فتستعيذ بالله تعالى أولا من شره كما أمرنا وهو الكافي شره ثم ان رأيناه يتغلب علينا علمنا انه ابتلاء من الله تعالى ليرى صدق مجاهدتنا وقوتنا في أمره سبحانه وتعالى ويرى صبرنا كما انه سلط علينا الكفار مع قدرته على كفاية أمرهم وشرهم ليكون لنا حظ من الجهاد والصبر والتمحيص والشهادة كما قال تعالى وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء وقال تعالى أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين فكذلك هذا ثم ان محاربته وقهره فيما قاله علماؤنا رضي الله عنهم في ثلاثة أشياء احدها أن تتعرف وتتعلم مكايده وحيله فلا يتجاسر حينئذ عليك كاللص اذا علم ان صاحب الدار قد أحس به فر والثاني ان تستخف بدعوته فلا تعلق قلبك بذلك ولا تتبعه فانه بمنزلة الكلب النابح ان أقبلت عليه أولع بك وان أعرضت عنه سكت والثالث ان تديم ذكر الله سبحانه بلسانك وقلبك فلقد قال صلى الله عليه وسلم ان ذكر الله تعالى في جنب الشيطان كالاكلة في جنب ابن آدم (فان قلت) فكيف نعلم مكايده وكيف الطريق الى معرفة ذلك (فاعلم) أن له وساوس

قدامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي اللهم زدني نورا واعطني نورا أعظم نور واجعل لي نورا برحمتك يا أرحم الراحمين * فاذا فرغت من الدعاء فلا تشتغل الا بأداء الفريضة أو بذكر أو تسبيح أو قراءة القرآن فاذا سمعت الاذان في أثناء ذلك فاقطع ما أنت فيه واشتغل بجواب المؤذن فاذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر فقل مثل ذلك وكذلك في كل كلمة الا في الحيعلتين فقل فيهما لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فاذا قال الصلاة خير من النوم فقل صدقت وبررت وأنا على ذلك من الشاهدين فاذا سمعت الاقامة فقل مثل ما يقول الا في قوله قد قامت الصلاة فقل أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والارض فاذا فرغت من جواب المؤذن فقل اللهم اني أسألك عند حضور صلاتك وأصوات دعاتك وادبار ليلك واقبال نهارك ان تؤتي محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يا أرحم الراحمين فاذا سمعت الاذان وأنت في الصلاة فتمم الصلاة ثم تدارك الجواب بعد السلام على

هي بمنزلة السهام التي يرميها وذلك انما يتبين لك بمعرفة الخواطر واقسامها والثاني انه حيلا هي بمنزلة الشبكات التي تنصبها وذلك يتبين لك بمعرفة المكايد وأوصافها ومجاريها ولقد ذكر علماؤنا رضي الله عنهم أبوابا في الخواطر وقد صنفنا كتابا سميناه تلبيس ابليس وكتابنا هذا لا يحتمل الا كثار لكنا نذكر لك ان شاء الله تعالى من كل واحد منها أصلا كافيا اذا اعتصمت به * فاما أصل الخواطر فاعلم ان الله تعالى وكل بقلب ابن آدم ملكا يدعوه الى الخير يقال له الملهم ولدعوته الهام وسلطا في مقابلته شيطانا يدعو العبد الى الشر يقال له وسواس ولدعوته وسوسة فالملهم لا يدعوه الا الى الخير والوسواس لا يدعوه الا الى الشر في قول أكثر علمائنا وقد حكي عن شيخنا رحمه الله ان الشيطان ربما يدعو الى الخير وقصده في ذلك الشر بان يدعوه الى المفضول ليمنعه عن الفاضل أو يدعوه الى خير ليجره الى ذنب عظيم لا يفي خيره بذلك الشر من عجب أو غيره فهذان داعيان قائمان على قلبه يدعوانه وهو يسمع قلبه يحس بذلك على ما روي في الاخبار انه عليه السلام قال اذا ولد لابن آدم مولود قرن الله سبحانه به ملكا وقرن الشيطان به شيطانا فالشيطان جاثم على اذن قلب ابن آدم الايسر والملك جاثم على اذن قلبه الايمن فهما يدعوانه وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة يعني نزلة بالدعوة من قولهم لم بالمكان وألم به اذا نزل به ثم ركب الله تعالى في بنية الانسان طبيعة مائلة الى الشهوات ونيل اللذات كيف كانت من حسن أو قبيح فذلك هوى النفس الصارفة الى الآفات فهذه ثلاثة دعاة (ثم اعلم) بعد هذه المقدمة أن الخواطر هي آثار تحدث في قلب العبد تبعثه على الافعال والترك وتدعوه اليها وسميت خواطر لاضطرابها من خطرات الريح ونحوها وحدوثها جميعا في قلب العبد بالحقيقة من الله سبحانه وتعالى لكنها أربعة أقسام منها ما يحدثه الله تعالى في القلب ابتداء فيقال له الخاطر فقط وقسم يحدثه موافقا لطبع الانسان فيقال له هوى النفس وينسب اليها وقسم يحدثه عقيب دعوة الملهم فينسب اليه ويقال له الالهام وقسم يحدثه عقيب دعوة الشيطان فينسب اليه ويقال له الوسوسة وتنسب اليه بانها خواطر من الشيطان وانما هي في الحقيقة حادثة عند دعوته فهو كالسبب في ذلك ولكنه ينسب اليه فهذه أربعة أقسام من الخواطر (ثم اعلم) بعد هذا التقسيم ان الخاطر الذي من قبل الله تعالى ابتداء قد يكون بخير اكراما والزاما للحجة وقد يكون بشر امتحانا وتغليظا للمحنة والخاطر الذي يكون من قبل الملهم لا يكون الا بخير اذ هو ناصح مرشد لم يرسل الا لذلك والخاطر الذي يكون من قبل الشيطان لا يكون الا بشر اغواء واستزلالا وربما يكون بالخير مكرا واستدراجا والذي يكون من قبل هوى النفس يكون بالشر وبما لا خير فيه تعنتا وتعسفا ولقد وجدت عن بعض السلف ان هوى النفس أيضا قد يدعو الى خير والمقصود منه شر كالشيطان فهذه أنواعها ثم اعلم بعد هذا انك تحتاج الى معرفة ثلاثة فصول لا بد لك منها البتة وفيها المقصود أحدها الفرق بين خاطر الخير وخاطر الشر في الجملة والثاني الفرق بين خاطر شر ابتدائي أو شيطاني أو هوائي وبماذا يفرق بينها فان لكل واحد منها دفعا من نوع آخر والثالث الفرق بين خاطر خير ابتدائي أو الهامي أو شيطاني أو هوائي لتتبع ما يكون من الله تعالى أو من الملهم وتجتنب ما يكون من الشيطان وكذلك الهوى على قول من يقول به (فاما الفصل الاول) فقال علماؤنا رضي الله عنهم اذا اردت ان تعلم خاطر الخير من خاطر الشر وتفرق بينهما فزنه باحد الموازين الاربعة يتبين لك حاله الاول أن تعرض الامر الذي خطر ببالك على الشرع فان وافق جنسه فهو خير وان كان بالضد برخصة أو شبهة فهو شر فان لم يستبن لك بهذا الميزان فاعرضه على الاقتداء فان كان في فعله اقتداء بالصالحين فهو خير وان كان بالضد اتباعا للصالحين فهو شر فان لم يستبن لك بهذا الميزان فاعرضه على النفس والهوى فانظر ان كان مما تنفر عنه النفس نفرة طبع لا نفرة خشية وترهيب فاعلم انه خير وان كان مما تميل اليه النفس ميل طبع وجبلة لا ميل رجاء الى الله تعالى وترغيب فهو شر اذ النفس أمارة بالسوء لا تميل بأصلها الى خير فبأحد هذه الموازين اذا نظرت وأمعنت النظر يستبين لك

وجهه فاذا أحرم الامام بالفرض فلا تشتغل الا بالاقتداء به وصل الفرض كما سنتلي عليك في كيفية الصلاة وآدابها فاذا فرغت فقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم انت السلام ومنك السلام واليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دارك دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام سبحان ربي العلي الاعلى لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا اله الا الله أهل النعم والفضل والثناء الحسن لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * ثم ادع بعد ذلك بالجوامع الكوامل وهو ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها فقال اللهم اني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم اعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما يقرب اليها من قول وعمل ونية واعتقاد وأعوذ بك من النار وما يقرب اليها من قول وعمل ونية واعتقاد وأسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأعوذ بك من شر

خاطر الخير من خاطر الشر والله تعالى ولي الهداية بفضله انه جواد كريم (وأما الفصل الثاني) فقال علماؤنا اذا أردت أن تفرق بين خاطر شر يكون من قبل الشيطان وبين خاطر شر يكون من قبل هوى النفس أو من قبل الله تعالى ابتداء فانظر فيه من ثلاثة أوجه أحدها ان وجدته مصمما راتبا على حالة واحدة فهو من الله تعالى أو من هوى النفس وان وجدته مترددا مضطربا فاعلم انه من الشيطان *(وكان بعض الصالحين)* رحمه الله يقول مثل هوى النفس مثل النمر اذا حارب لا ينصرف الا بقمع بالغ وقهر ظاهر أو مثل الحارجي الذي يقاتل تدينا لا يكاد يرجع حتى يقتل ومثل الشيطان مثل الذئب اذا طردته من جانب دخل من جانب آخر وثانيها ان وجدته عقيب ذنب أحدثته فهو من الله تعالى اهانة وعقوبة بشؤم ذلك الذنب قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال شيخي الامام رحمه الله هكذا تؤدي الذنوب الى قسوة القلب أولها خاطر ثم يؤدي الى القسوة والرين وان كان هذا الخاطر مبتدأ لا عقيب ذنب كان منك فاعلم انه من قبل الشيطان هذا في الاكثر لانه يبتدئ بدعوة الشر ويطلب الاغواء بكل حال وثالثها ان وجدته لا يضعف ولا يقل بذكر الله تعالى ولا يزول فهو من الهوى وان وجدته يضعف ويقل بذكر الله سبحانه فهو من الشيطان كما ذكر في تفسير قوله تعالى من شر الوسواس الخناس ان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم اذا ذكر الله تعالى خنس واذا غفل وسوس (وأما الفصل الثالث) اذا أردت أن تفرق بين خاطر خير يكون من الله تعالى أو من الملك فانظر في ذلك من ثلاثة أوجه أحدها أن تنظر فان كان قويا مصمما فهو من الله تعالى وان كان مترددا فهو من الملك اذ هو بمنزلة ناصح يدخل معك في كل جانب ووجه ويعرض عليك كل نصح رجاء اجابتك ورغبتك في الخير والثاني أن كان عقيب اجتهاد منك وطاعة فهو من الله تعالى قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والذين اهتدوا زادهم هدى وان كان مبتدأ فهو من الملك في الاغلب والثالث ان كان في الاصول والاعمال الباطنة فهو من الله سبحانه وان كان في الفروع والاعمال الظاهرة فهو من الملك في الاكثر اذ الملك لا سبيل له الى معرفة باطن العبد في قول أكثرهم *وأما خاطر الخير الذي يكون من قبل الشيطان استدراجا الى شر يربي عليه فلقد قال شيخنا رحمه الله انظر ان وجدت نفسك في ذلك الفعل الذي خطر بقلبك مع نشاط لا مع خشية ومع عجلة لا مع تأن ومع أمن لا مع خوف ومع عمى عن العاقبة لا مع بصيرة فاعلم انه من الشيطان فاجتنبه وان وجدت نفسك على ضد ذلك مع خشية لا مع نشاط ومع تأن لا مع عجلة ومع خوف لا مع أمن ومع بصارة العاقبة لا مع عمى فاعلم انه من الله سبحانه أو من الملك قلت أنا وكأن النشاط خفة في الانسان للفعل من غير بصيرة وذكر ثواب ينشطه في ذلك وأما التأني فهو محمود الا في مواضع معلومة معدودة وقد ذكر في الخبر عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم العجلة من الشيطان الا في خمسة مواضع تزويج البكر اذا أدركت وقضاء الدين اذا وجب وتجهيز الميت اذا مات وقرى الضيف اذا نزل والتوبة من الذنب اذا أذنب وأما الخوف فيحتمل أن يكون في اتمامه وأدائه على وجهه وحقه وقبول الله تعالى اياه وأما بصارة العاقبة فبأن يتبصر ويتيقن انه رشد وخير ويحتمل أن يكون لرؤية الثواب في العقبى ورجائه فاعلم ذلك موفقا فهذه جملة الفصول الثلاثة التي لزمتك معرفتها في فصل الخواطر فارعها وأمعن النظر فيها ما استطعت فانها من العلوم اللطيفة والاسرار الشريفة في هذا الباب والله الموفق بفضله *(وأما فصل الحيل والمخادعات من الشيطان)* فمعرى ذلك ومثاله ان مكايد الشيطان مع ابن آدم في الطاعة في سبعة أوجه أحدها أن ينهاه عنها فان عصمه الله تعالى ورده بأن قال اني لمحتاج الى ذلك جدا اذ لا بد لي من التزود من هذه الدنيا الفانية للآخرة التي لا انقضاء لها ثم يأمره بالتسويف فان عصمه الله تعالى ورده بأن قال ليس أجلي بيدي على أني ان سوفت عمل اليوم الى غد فعمل غد متى أعمله فان لكل يوم عملا ثم يأمره بالعجلة فيقول له عجل عجل لتتفرغ لكذا وكذا فان عصمه الله تعالى ورده بان قال قليل العمل مع التمام خير من كثير مع النقصان ثم يأمره باتمام العمل مراآة للناس فان عصمه الله تعالى ورده بان قال ما الذي أعمل بمراآة الناس أفلا تكفيني رؤية الله تعالى ثم يريد

ما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم اللهم وما قضيت لي من أمر فاجعل عاقبته رشدا ثم ادع بما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها فقل يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والاكرام لا اله الا أنت برحمتك استغيث ومن عذابك استجير لا تكلني الى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله بما أصلحت به الصالحين ثم قل ما قاله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام اللهم اني أصبحت لا استطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الامر بيد غيرك وأصبحت مرتهنا بعملي فلا فقير افقر مني اليك ولا غني أغنى منك عني اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي ولا تسلط علي بذنبي من لا يرحمني *ثم ادع بما بدا لك من الدعوات المشهورات واحفظها مما أوردناه في كتاب الدعوات من كتب احياء علوم الدين ولتكن أوقاتك بعد الصلاة الى طلوع الشمس موزعة على أربع وظائف وظيفة في الدعوات ووظيفة في الاذكار والتسبيحات وتكررها في مسبحة ووظيفة في قراءة القرآن ووظيفة في التفكر

أن يوقعه في العجب فيقول ما أعظمك وما أيقظك وما أفضلك فان عصمه الله تعالى رده بأن قال المنة لله تعالى في ذلك دوني فهو الذي خصني بتوفيقه وجعل لعملي قيمة عظيمة بفضله ولولا فضله فاذا كان قيمة هذا العمل في جنب نعمة الله تعالى علي وجنب معصيتي له ثم يأتيه من وجه سادس وهو أعظمها ولا يقف عليه الا متيقظ وهو أن يقول اجتهد أنت في السر فان الله تعالى سيظهره عليك ويلبس كل عامل عمله وأراد بذلك ضربا من الرياء فان عصمه الله تعالى ورده بان قال يا ملعون الى الآن كنت تأتيني من وجه افساد عملي والآن تأتيني من وجه اصلاحه لتفسده انما أنا عبد الله تعالى وهو سيدي ان شاء أظهر وان شاء أخفى وان شاء جعلني خطيرا وان شاء جعلني حقيرا وذلك اليه ما أبالي ان أظهر ذلك للناس أولم يظهره فليس بايديهم شيء ثم يأتيه من وجه سابع ويقول لا حاجة لك الى هذا العمل لانك ان خلقت سعيدا لم يضرك ترك العمل وان خلقت شقيا لم ينفعك فعله فان عصمه الله تعالى رده بان قال انما أنا عبد وعلى العبد امتثال الامر لعبوديته والرب أعلم بربوبيته يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ولانه ينفعني العمل كيفما كنت لاني ان كنت سعيدا احتجت اليه لزيادة الثواب وان كنت شقيا فأنا محتاج اليه كي لا ألوم نفسي على ان الله تعالى لا يعاقبني على الطاعة بكل حال ولا يضرني على اني ان أدخلت النار وأنا مطيع أحب الي من ان أدخلها وأنا عاص فكيف ووعده حق وقوله صدق وقد وعد على الطاعات بالثواب فمن لقي الله تعالى على الايمان والطاعة لم يدخل النار البتة ودخل الجنة لا لاستحقاقه بعمله الجنة ولكن لوعد الله الصادق تعالى وتقدس ولهذا المعنى أخبر الله تعالى عن السعداء اذ قالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده فتيقظ رحمك الله فان الامر كما ترى وتسمع وقس عليه سائر الاحوال والافعال واستعن بالله تعالى واستعذ به فان الامر بيده ومنه التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم *(العائق الرابع النفس)* ثم عليك يا طالب العبادات عصمك الله واياك بالحذر من هذه النفس الامارة بالسوء فانها أضر الاعداء وبلاؤها أصعب البلاء وعلاجها أعسر الاشياء وداؤها أعضل الداء ودواؤها أشكل الدواء وانما ذلك لامرين أحدهما أنها عدو من داخل واللص اذا كان من داخل البيت عزت الحيلة فيه وعظم الضرر ولقد صدق القائل

نفسي الى ما ضرني داعي * تكثر أسقامي وأوجاعي

كيف احتيالي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي

والثاني أنه عدو محبوب والانسان عم عن عيب محبوبه لا يكاد يبصر عيبه كما قال القائل

ولست ترى عيبا الذي الود والاخا * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدي المساويا

فاذا يستحسن الانسان من نفسه كل قبيح ولا يكاد يطلع على عيبها وهي في عداوتها واضرارها فأوشك ما توقعه في فضيحة وهلاك وهو لا يشعر الا أن يحفظه الله تعالى بفضله ويعينه عليها برحمته (ثم أقول) تأمل أيها الرجل نكتة واحدة مقنعة وهي انك اذا نظرت وجدت أصل كل فتنة وفضيحة وخزي وهلاك وذنب وآفة وقع في خلق الله تعالى من أول الخلق الى يوم القيامة من قبل هذه النفس اما بها وحدها أو بمعاونتها ومشاركتها ومساعدتها فأول المعصية لله تعالى كانت من ابليس وكان سببه بعد القضاء السابق هوى النفس بكبرها وحسدها ألقته بعد عبادة ثمانين ألف سنة على ما قيل في بحر الضلال تغرق الى أبد الآبدين اذ لم يكن هنالك دنيا ولا خلق ولا شيطان بل كانت النفس بكبرها وحسدها فعملت به ما عملت ثم ذنب آدم وحواء عليهما السلام طرحتهما شهوة النفس في ذلك وحرصها على البقاء والحياة حتى اغترا بقول ابليس فكان ذلك اذا بعون النفس وشركتها حتى سقطا بذلك من جوار الله تعالى وقرار الفردوس الى هذه الدنيا الحقيرة النكدة الفانية المهلكة ولقيا ما لقيا ولقي أولادهما ما لقوا من ذلك اليوم الى أبد الآبدين ثم حديث قابيل وهابيل كان السبب في أمرهما الحسد والشح ثم حديث هاروت وماروت كان السبب في شأنهما الشهوة ثم هلم جرا الى يوم القيامة

فتفكر في ذنوبك وخطاياك وتقصيرك في عبادته ولائك وتعرضك لعقابه الاليم وسخطه العظيم وترتب أوقاتك بتدبيرك أورادك في جميع يومك لتتدارك به ما فرطت من تقصيرك وتحترز من التعرض لسخط الله الاليم في يومك وتنوي الخير لجميع المسلمين وتعزم ان لا تشتغل في جميع نهارك الا بطاعة الله تعالى وتفصل في قلبك الطاعات التي تقدر عليها وتختار أفضلها وتتأمل تهيئة أسبابها لتشتغل بها ولا تدع نفسك التفكر في قرب الاجل وحلول الموت القاطع للامل وخروج الامر عن الاختيار وحصول الحسرة والندامة وطول الاغترار وليكن من تسبيحاتك واذكارك عشر كلمات احداهن لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير الثانية لا اله الا الله الملك الحق المبين الثالثة لا اله الا الله الواحد القهار رب السموات والارض وما بينهما العزيز الغفار الرابعة سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم الخامسة سبوح قدوس رب الملائكة والروح السادسة سبحان

فلا تجد في الخلق فتنة ولا فضيحة ولا فساداً ولا معصية إلا وأصلها النفس وهواها وإلا كان الخلق في سلامة وخير وإذا كان عدو بهذا الضرر كله فحق للعاقل أن يهتم بأمره والله تعالى ولي الهداية والتوفيق بفضله (فان قلت) فما الحيلة إذاً في هذا العدو وما التدبير في أمره فبين لنا ذلك فاعلم أنا ذكرنا فيما تقدم أن أمرها عسير صعب إذ لا يمكن قهرها بمرة كسائر الأعداء إذ هي المطية والآلة وقيل إن أمر ابن آدم عالانسان عسير فقال كتب الله تعالى كل عدو لك إلا نفسك ولا يمكن إهمالها بمرة لما كان ضررها فيحتاج إلى طريق بين الطريقين تربيها وتقويها بقدر ما تحتمل فعل كل خير وتضعفها وتحبسها على حد لا يتمادى فانت من أمرها في علاج شديد ونظر لطيف ثم قد ذكرنا في أمرها أن تلجمها بلجام التقوى والورع لتحصل الفائدتين جميعاً (فان قلت) إن هذه دابة جموح وبهيمة صعبة شكسة لا تنقاد للجام فما الحيلة فيها حتى تمكننا منها (فاعلم) أنك فيما صادق والحيلة تذليلها حتى تنقاد للجام (قال) علماؤنا رضي الله عنهم إنما يذلل النفس ويكسر هواها ثلاثة أشياء أحدها منع الشهوات فان الدابة الحرون تلين إذا نقص من علفها والثاني حمل أثقال العبادات عليها فان الحمار إذا زيد في حمله مع النقصان من علفه تذلل وانقاد والثالث الاستعانة بالله عز وجل والتضرع إليه بأن يعينك وإلا فلا خلاص أما تسمع قول يوسف عليه السلام إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي فاذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك النفس الجموح بإذن الله عز وجل فحينئذ تبادر إلى أن تملكها وتلجمها وتأمن من شرها (فان قلت) فبين لنا الآن ما هو التقوى حتى نعلمه (فاعلم) أولاً أن التقوى كنز عزيز فإن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وعلق نفيس وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنم جسيم وملك عظيم فكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى وتأمل ما في القرآن من ذكرها فكم علق بها من خير وكم وعد عليها من أجر وثواب وكم أضاف إليها من سعادة وأنا أعد لك من جملتها اثنتي عشرة خصلة أولها المدحة والثناء قال الله تعالى وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور والثاني الحفظ والحراسة من الأعداء قال الله تعالى وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً والثالث التأييد والنصرة قال الله تعالى إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وقال تعالى والله ولي المتقين والرابع النجاة من الشدائد والرزق من الحلال قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب والخامس إصلاح العمل قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم والسادس غفران الذنوب قال الله تعالى ويغفر لكم ذنوبكم والسابع محبة الله قال الله تعالى إن الله يحب المتقين والثامن القبول قال الله تعالى إنما يتقبل الله من المتقين والتاسع الإعزاز والإكرام قال الله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم والعاشر البشارة عند الموت قال الله تعالى الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة والحادي عشر النجاة من النار قال الله تعالى ثم ننجي الذين اتقوا وقال تعالى وسيجنبها الأتقى والثاني عشر الخلود في الجنة قال الله تعالى أعدت للمتقين فهذا بيان كل خير وسعادة في الدارين تحت هذه التقوى فلا تنس نصيبك أيها الرجل منها ثم الذي يختص به هذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول أحدها التوفيق والتأييد أولاً وهو للمتقين كما قال الله تعالى إن الله مع المتقين والثاني إصلاح العمل وإتمام التقصير وهو للمتقين كما قال الله تعالى يصلح لكم أعمالكم والثالث قبول العمل وهو للمتقين كما قال الله تعالى إنما يتقبل الله من المتقين ومدار العبادة على هذه الأمور الثلاثة التوفيق أولاً حتى تعمل ثم الإصلاح للتقصير حتى يتم ثم القبول إذا تم وهذه الأمور الثلاثة التي يتضرع فيها العابدون إلى الله تعالى ويسألون فيقولون ربنا وفقنا لطاعتك وأتمم تقصيرنا وتقبل منا وقد وعد الله تعالى ذلك كله على التقوى وأكرم بها المتقي سأل أو لم يسأل فعليك بهذه التقوى إن أردت عبادة الله سبحانه بل إن أردت سعادة الدنيا والعقبى ولقد صدق القائل

من اتقى الله فذاك الذي * سيق إليه المتجر الرابح

الله وبحمده سبحان الله العظيم السابعة أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة والمغفرة الثامنة اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد التاسعة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم العاشرة بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم تكرر كل واحدة من هذه الكلمات إما مائة مرة أو سبعين مرة أو عشر مرات وهو أقله ليكون المجموع مائة ولازم هذه الأذكار ولا تتكلم قبل طلوع الشمس ففي الخبر أن ذلك أفضل من إعتاق ثمان رقاب من ولد إسمعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام أعني الاشتغال بذلك إلى طلوع الشمس من غير أن يتخلله كلام

(آداب ما بعد طلوع الشمس إلى الزوال)

فاذا طلعت الشمس وارتفعت قدر رمح فصل ركعتين وذلك عند زوال وقت الكراهة للصلاة فانها مكروهة من بعد فريضة الصبح إلى الارتفاع فاذا أضحى النهار ومضى منه قريب من ربعه فصل صلاة الضحى أربعاً أو ستاً أو ثمانياً مثنى مثنى فقد نقلت هذه الأعداد كلها

(وكتب

(وكتب بعضهم هذا البيت) لا يتبع المرء الى قبره * غير التقى والعمل الصالح

(وقال غيره) من عرف الله فلم تغنه * معرفة الله فذاك الشقى

ما يصنع العبد بعز الغنى * والعز كل العز للمتقى

ما ضر ذا الطاعة ما ناله * فى طاعة الله وماذا لقى

(وكتب بعضهم على بعض القبور)

ليس زاد سوى التقى * فخذى منه أودعى

(ثم تأمل) أصلا واحدا وهو أنه هب انك قد تعبت جميع عمرك فى العبادة وجاهدت وكابدت حتى حصل لك ما تمنيت أليس الشأن كله فى القبول ولقد علمت ان الله تعالى يقول انما يتقبل الله من المتقين فرجع الامر كله الى التقوى ولذلك روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشئ من الدنيا ولا أعجبه أحد الا ذو تقى وعن قتادة انه قال مكتوب فى التوراة يا ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت وبلغنى عن عامر بن عبد قيس أنه بكى عند موته وكان يصلى كل يوم وليلة ألف ركعة ثم يأتى الى فراشه فيقول يا مأوى كل شر والله ما رضيتك لله طرفة عين وبكى يوما فقيل له ما يبكيك قال قوله تعالى انما يتقبل الله من المتقين (ثم تأمل نكتة أخرى) وهى أصل الاصول وهى ما ذكر ان بعض الصالحين قال لبعض أشياخه أوصنى بوصية فقال أوصيك بوصية الله رب العالمين للاولين والآخرين قوله تعالى ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله (قلت أنا) أليس الله تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد أوليس هو أنصح له وأرحم وأرأف من كل أحد ولو كانت فى العالم خصلة هى أصلح للعبد وأجمع للخير واعظم للاجر وأجل فى العبودية وأعظم فى القدر وأولى بالحال وأنجح فى المآل من هذه الخصلة التى هى التقوى لكان الله تعالى أمر بها عباده وأوصى خواصه بذلك لكمال حكمته وسعة رحمته فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة جميع الاولين والآخرين من عباده فى ذلك واقتصر عليها علمت أنها الغاية التى لا متجاوز عنها ولا مقتصد دونها وانه عز وجل قد جمع كل نصح ودلالة وارشاد وتنبيه وتأديب وتعليم وتهذيب فى هذه الوصية الواحدة كما يليق بحكمته ورحمته وعلمت ان هذه الخصلة التى هى التقوى هى الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة الكافية لجميع المهمات المبلغة الى أعلى الدرجات فى العبودية وقد أحسن من قال

الا انما التقوى هى العز والكرم * وحبك للدنيا هو الذل والعدم

وليس على عبد تقى نقيصة * اذا صحح التقوى وان حاك أو حجم

وهذا أصل لا مزيد عليه وفيه كفاية لمن أبصر النور واهتدى وعمل بذلك واستغنى والله ولى الهداية والتوفيق بمنه (فان قلت) لقد عظم قدر هذه الخصلة وجل موقعها واشتدت الحاجة الى معرفتها فلا بد الآن من تفصيلها (فاعلم) ان الامر كذلك فحق لها أن يجل قدرها ويلزم طلبها وتمس الحاجة الى معرفتها ولكنك تعلم ان كل خطير وكبير يحتاج فى اجتلابه الى طلب كثير وتعب كبير وهمة عالية وجهد شديد فاذا كانت هذه الخصلة خصلة عظيمة كبيرة فان المجاهدة فى طلبها والقيام بحقها والعناية فى تحصيلها أيضا الفعل كبير وشأن عظيم فان المكارم على حسب المكاره وان اللذات على حسب المؤنات والله تعالى يقول والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين وهو الرؤف الذى بيده تيسير كل عسير فاستمع وتنبه وتفهم جدا بيان هذه الخصلة حتى تعلمها ثم تشمر للقيام بها واستعن بالله عز وجل حتى تعمل بما تعلم فان الشأن كله فى ذلك والله ولى التوفيق والهداية بفضله (فنقول) اعلم أولا بارك الله فى دينك وزاد فى يقينك أن التقوى فى قول شيوخنا رحمهم الله هو تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله حتى تحصل لك من قوة العزم على تركها وقاية بينك وبين المعاصى هكذا قال شيخنا رحمه الله وذلك ان أصل لفظة التقوى فى اللغة هو الوقوى بالواو وهو مصدر الوقاية يقال وقى يقى وقاية

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة خير كلها فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقل فليس بين الطلوع والزوال راتبة الا هذه الصلوات فالافضل منها من أوقاتك فلك فيه أربع حالات (الحالة الاولى) وهى الافضل ان تصرفه فى طلب العلم النافع دون الفضول الذى أكب الناس عليه وسموه علما والعلم النافع ما يزيد فى خوفك من الله تعالى ويزيد فى بصيرتك بعيوب نفسك ويزيد فى معرفتك بعبادة ربك ويقلل من رغبتك فى الدنيا ويزيد فى رغبتك فى الآخرة ويفتح بصيرتك بآفات أعمالك حتى تحترز منها ويطلعك على مكايد الشيطان وغروره وكيفية تلبيسه على علماء السوء حتى عرضهم لمقت الله تعالى وسخطه حيث اشتروا الدنيا بالدين واتخذوا العلم ذريعة ووسيلة الى أخذ أموال السلاطين وأكل أموال الاوقاف واليتامى والمساكين وصرفوا همتهم طول نهارهم الى طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الخلق واضطرهم ذلك الى المراآة والمماراة والمنافسة فى الكلام والمباهاة وهذا الفن من العلم النافع قد جمعناه فى كتاب احياء علوم

او وقوى وابدلت التاء من الواو تاء كما هو في التكلان والتكلان ونحوهما وفعل تقوى فاذن لما حصلت وقاية بين
العبد وبين المعاصي من قوة عزمه على تركها وتوطين قلبه على ذلك فوصف حينئذ بأنه متق ويقال لذلك التنزيه
والعزم والتوطين تقوى والتقوى في القرآن تطلق على ثلاثة أشياء أحدها بمعنى الخشية والهيبة قال الله تعالى
وإياي فاتقون وقال الله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله والثاني بمعنى الطاعة والعبادة قال الله تعالى يا أيها
الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته قال ابن عباس رضي الله عنهما أطيعوا الله حق طاعته وقال مجاهد هو أن يطاع
فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر والثالث بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب فهذه هي الحقيقة
في التقوى دون الاولين ألا ترى ان الله تعالى يقول ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم
الفائزون ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى فعلمت ان حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية وهي
تنزيه القلب عما ذكرناه ثم قالوا رحمهم الله منازل التقوى ثلاثة تقوى عن الشرك وتقوى عن البدعة وتقوى
عن المعاصي الفرعية ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة وهي قوله جل من قائل ليس على الذين
آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا
وأحسنوا فالتقوى الاولى تقوى عن الشرك والايمان الذي في مقابلتها التوحيد والتقوى الثانية عن البدعة
والايمان الذي ذكر معها اقرار عقود السنة والجماعة والتقوى الثالثة عن المعاصي الفرعية ولا اقرار في هذه
المنزلة فقابلها بالاحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها فتكون منزلة مستقيمي الطاعة فالآية جمعت ذكر
المنازل الثلاث منزلة الايمان ومنزلة السنة ومنزلة استقامة الطاعة فهذا ما قاله العلماء رحمهم الله في بيان معنى
التقوى (قلت) وأنا وجدت التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال وهو ما روي في الخبر المشهور عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال انما سمي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس به حذرا عما به بأس فأحببت ان أجمع بين
ما قاله علماؤنا رحمهم الله وبين ما جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيكون حدا جامعا ومعنى بالغا (فأقول)
التقوى هو اجتناب كل ما تخاف منه ضررا في دينك ألا ترى انه يقال للمريض المحتمي انه يتقي اذا اجتنب كل
شيء يضره في بدنه من طعام أو شراب أو فاكهة أو غيرها ثم الذي يخاف منه الضرر في أمر الدين قسمان محض
الحرام والمعصية وفضول الحلال لان الاشتغال بفضول الحلال والانهماك فيه يستجر صاحبه الى الحرام ومحض
العصيان وذلك لشره النفس وطغيانها وتمرد الهوى وعصيانه فمن أراد أن يأمن الضرر في أمر دينه اجتنب
الخطر وامتنع عن فضول الحلال حذرا أن يجره الى محض الحرام على ما قاله صلى الله عليه وسلم لتركهم ما لا بأس
به حذرا عما به بأس يعني لتركهم فضول الحلال حذرا من الوقوع في الحرام فالتقوى البالغة الجامعة اجتناب
كل ما فيه ضرر لامر الدين وهو المعصية والفضول هذا تفصيلها وأما اذا أردنا تحديدها على موضوع علم السر
(فنقول) حد التقوى الجامع تنزيه القلب عن شر لم يسبق عنك مثله بقوة العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية
بينك وبين كل شر ثم الشر ضربان شر أصلي وهو ما نهى الله عنه تحريما كالمعاصي المحضة وشر غير أصلي
وهو ما نهى عنه تأديبا وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوة فالاولى تقوى فرض يلزم بتركها عذاب
النار والثانية تقوى خير وأدب يلزم بتركها الحبس والحساب والتعيير واللوم فمن أتى بالاولى فهو في الدرجة
الدنيا من التقوى وهي منزلة مستقيمي الطاعة ومن أتى بالاخرى فهو في الدرجة العليا من التقوى وذلك منزلة
مستقيمي ترك المباح واذا جمع العبد بينهما أعني اجتناب كل معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وتمام
حقيقتها وجمع كل خير فيها وهذا هو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين وذلك منزلة الادب على باب الله
تعالى فهذا معنى التقوى وبيانها في الجملة فافهمه موفقا ان شاء الله تعالى (فان قلت) ففصل لنا الآن هذا المعنى
في النفس واستعماله فيها فان الحاجة جاءت من هنالك لنعلم كيف نلجم هذه النفس بهذا المعنى الذي فصلت من
حقيقة التقوى (فأقول) أجل انما تفصيله في أمر هذه النفس ان تقوم عليها بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية

وتصونها

الدين فان كنت من أهله
فحصله واعمل به ثم علمه وادع
الخلق اليه علم ذلك ثم عمل به ثم
دعا اليه فذلك يدعى عظيما
في ملكوت السموات
بشهادة عيسى عليه السلام
فاذا فرغت من ذلك وفرغت
من اصلاح نفسك ظاهرا
وباطنا وفضل شيء من
أوقاتك فلا بأس ان تشتغل
بعلم المذهب في الفقه لتعرف
به الفروع النادرة في
العبادات وطريق التوسط
بين الخلق في الخصومات عند
انكبابهم على الشهوات
فذلك أيضا عند الفراغ من
هذه المهمات من جملة فروض
الكفايات فان دعتك نفسك
الى ترك ما ذكرناه من
الاوراد والاذكار
اشتغالا بذلك فاعلم ان
الشيطان اللعين قد دس في
قلبك الداء الدفين وهو حب
الجاه والمال فاياك ان تغتر
به فتكون ضحكة للشيطان
فتهلك ثم يسخر بك فان
جربت نفسك مدة في
الاوراد والعبادات فكانت
لا تستثقلها كسلا عنها لكن
ظهرت رغبتك في تحصيل
العلم النافع ولم ترد به
الا وجه الله تعالى والدار
الآخرة فذلك أفضل من
نوافل العبادات مهما صحت
النية ولكن الشأن في صحة
النية فان لم تصح النية فهي
معدن غرور الجهال ومزلة

وأصونها عن كل فضول فاذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في بطنك وأذنك ولسانك وقلبك وباطنك وفرجك وجميع أركانك وأجبتها بلجام التقوى ولهذا الباب شرح يطول وقد أشرنا اليه في كتاب احياء علوم الدين (وأما الذي) لابد منه ههنا فأن تقول من أراد أن يتقي الله فليراع الاعضاء الخمسة فانهن الاصول (وهي) العين والاذن واللسان والقلب والبطن فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضررا في أمر الدين من معصية وحرام وفضول واسراف من حلال واذا حصل صيانة هذه الاعضاء فرجوت أن يكفي سائر أركانه ويكون أن قام بالتقوى الجامعة لجميع بدنه لله تعالى فدعت الحاجة الى بيان خمسة فصول لهذه الاعضاء وتفصيل ما يحرم في حق كل واحد منها على قدر ما يليق بهذا الكتاب

(الفصل الاول فصل العين)

ثم عليك وفقك الله وايانا بحفظ العين فانها سبب كل فتنة وآفة فقوا ذكر في أمرها ثلاثة أصول كافية (أحدها) ما قال الله سبحانه قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون واعلم انى تأملت هذه الآية فاذا فيها مع قصرها ثلاثة معان عزيزة تأديب وتنبيه وتهديد * فأما التأديب فقوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ولابد للعبد من امتثال أمر السيد والتأدب بآدابه والا فيكون سيء الادب فيحجب فلا يؤذن له في حضور المجلس والمثول بالحضرة فافهم هذه النكتة وتأمل ما تحتها فان فيها ما فيها * وأما التنبيه فقوله تعالى ذلك أزكى لهم وينطلق على معنيين والله اعلم الاول ذلك اطهر لقلوبهم والزكاة الطهارة والتزكية التطهير والثاني ذلك انمى لخيرهم وأكثر والزكاة في الاصل النمو فنبه على ان في غض البصر تطهير القلب وتكثير الطاعة والخير وذلك انك ان لم تغض بصرك وارخيت عنانه تنظر الى مالا يعنيك فلا يخلو من ان تقع عينك على حرام فان تعمدت فذنب كبير وربما تعلق قلبك بذلك فتهلك ان لم يرحم الله تعالى فلقد روي أن العبد لينظر النظرة ينغل فيها قلبه كما ينغل الاديم في الدباغ فلا ينتفع به أبدا وان كان مباحا فربما يشتغل قلبك به فيأتيك الوساوس والخواطر بسببه ولعلك لا تصل اليه فتبقى مشغول القلب منقطعا عن الخير وان كنت لم تر ذلك كنت مستريحا عن ذلك كله وفي هذا المعنى ذكر عن عيسى صلوات الله عليه اياكم والنظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة وقال ذو النون نعم حاجب الشهوات غض الابصار ولقد أحسن القائل

وأنت اذا أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فاذن مهما كنت غاض البصر حافظا للعين لا تنظر الى مالا يعنيك ولا يهمك كنت نقي الصدر فارغ القلب مستريحا عن كثير من الوسواس سالم النفس عن الآفات متزايدا في الخيرات فتنبه لهذه النكتة الجامعة والله عز وجل الموفق بمنه وكرمه (وأما التهديد) فقوله تعالى ان الله خبير بما يصنعون وقال تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وكفى بهذا تحذيرا لمن خاف مقام ربه فهذا أصل واحد من كتاب الله عز وجل (الاصل الثاني) ما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان النظر الى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام ابليس فمن تركها أذاقه الله تعالى طعم عبادة تسره وان وجدان حلاوة العبادة ولذة المناجاة من العابدين بمكان وهذا شيء جرب علمه وتحققه من عمل به لانه اذا امتنع عن النظر الى مالا يعنيه يجد لذة العبادة وحلاوة الطاعة وللقلب صفوة لم يجدها قبل ذلك (الاصل الثالث) ان تنظر الى كل عضو من أعضائك يصلح لماذا ويقال له ماذا فعلى حسب ذلك تصونه وتحفظه فالرجل للمشي في رياض الجنة وقصورها واليد لكاس الشراب وتناول الاثمار وكذلك في سائر الاعضاء فالعين انما هي للنظر الى رب العالمين سبحانه وليس في الدارين كرامة أجل وأكبر من ذلك فحقيق لشيء ينتظر ويرجى له مثل هذه الكرامة ان يصان ويحفظ

الاقدام في رحاله (الحالة الثانية) ان لا تقدر على تحصيل العلم النافع لكن تشتغل بوظائف العبادات من الذكر والقرآن والتسبيحات والصلاة فذلك من درجة العابدين وسير الصالحين وتكون أيضا بذلك من الفائزين (الحالة الثالثة) أن تشتغل بما يصل منه خير للمسلمين ويدخل به سرور على قلوب المؤمنين أو تتيسر به الاعمال الصالحة للصالحين كخدمة الفقهاء والصوفية وأهل الدين والتردد في أشغالهم والسعي في اطعام الفقراء والمساكين والتردد مثلا على المرضى بالعيادة وعلى الجنائز بالتشييع فكل ذلك أفضل من النوافل فان هذه عبادات وفيها رفق للمسلمين (الحالة الرابعة) ان لم تقو على ذلك فاشتغل بحاجاتك اكتسابا على نفسك أو على عيالك وقد سلم المسلمون منك وأمنوا من لسانك ويدك وسلم لك دينك اذ لم ترتكب معصية فتنال به درجة أصحاب اليمين ان لم تكن من أهل الترقي الى مقامات السابقين فهذه أقل الدرجات في مقامات الدين وما بعد هذا فهو من مراتع الشياطين وذلك بان تشتغل والعياذ بالله بما يهدم دينك أو تؤذي عبدا من عباد الله

ويعز ويكرم فهذه الاصول الثلاثة اذا أحسنت التأمل فيها كفتك المؤنة فى هذا الفصل والله ولى التوفيق وهو حسبى ونعم الوكيل

(الفصل الثانى الاذن)

فعليك بصيانة سمعك عن الخنى والفضول وذلك لامرين أحدهما ما روى ان المستمع شريك المتكلم وفى ذلك يقول القائل

تحر من الطرق أوساطها * وعد عن الجانب المشتبه

وسمعك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به

فانك عند استماع القبيح * شريك لقائله فانتبه

والثانى أن ذلك يهيج الخواطر والوساوس فى القلب ثم من ذلك يبد والاشتغال فى البدن فما يبقى للعبادة شئ (ثم اعلم) ان الكلام الذى يقع فى قلب الانسان وسمعه بمنزلة الطعام الذى يقع فى جوفه فمنه الضار ومنه النافع ومنه الغذاء ومنه السم بل ان بقاء الكلام وتجرعه أكثر وأبلغ من الطعام فان الطعام يزول عن المعدة بنوم وغيره وربما يبقى أثره زمانا ثم يزول وله دواء يزيل أثره من جسم الانسان وأما الكلام الذى وقع فى قلبه فربما يبقى معه جميع عمره ولا ينساه فان كان رديئا فلا يزال يتعبه ويعييه وتردد بسببه خواطر فى القلب ووساوس يحتاج الى أن يعرض عنها ويعدل بقلبه عن تذكرها ويستعيذ بالله من شرها ولا يأمن أن يحمله على بلية ويحركه حتى يقع آخر الامر فى آفة عظيمة بسبب ذلك ولو كنت حفظت سمعك عما لا يعنيك كنت عن هذه المؤن مستريحا فلينظر العاقل فى ذلك وبالله التوفيق

(الفصل الثالث اللسان)

ثم عليك بحفظ اللسان وضبطه وتقييده فانه أشد الاعضاء جماحا وطغيانا وأكثرها فسادا وعدوانا ولقد روينا عن سفيان بن عبد الله أنه قال قلت يا رسول الله ما أكثر ما تخاف على فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال هذا وعن يونس بن عبيد الله انى وجدت نفسى تحتمل مؤنة الصيام فى الحر الشديد بالبصرة ولا تحتمل ترك كلمة لا تعنيها فعليك اذن بالتحفظ جدا وبذل الجهد وتذكر خمسة أصول (أحدها) ما روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ان ابن آدم اذا أصبح بكرت الاعضاء كلها الى اللسان وقلن له ننشدك الله أن تستقيم فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا (قلت) والمعنى فيه والله أعلم أن نطق اللسان يؤثر فى أعضاء الانسان بالتوفيق والخذلان يؤكده هذا المعنى ما حكى عن مالك بن دينار أنه قال اذا رأيت قساوة فى قلبك ووهنا فى بدنك وحرمانا فى رزقك فاعلم انك قد تكلمت فيما لا يعنيك (والاصل الثانى) حفظ وقتك فان أكثر ما يتكلم به الانسان من غير ذكر الله تعالى فعلى الاقل يكون لغوا يضيع الوقت به وذكر أن حسان ابن أبى سنان مر على غرفة بنيت فقال منذ كم بنيت هذه ثم أقبل على نفسه وقال يا نفسى الغرورة تسألين عما لا يعنيك وعاقبها بصوم سنة (قلت) فياطوبى للمتهمين بأنفسهم ويا ويح الغافلين الذين خلعوا العذار وأرخوا العنان والله المستعان ولقد صدق القائل وأحسن حيث يقول

واغتنم ركعتين فى ظلمة اللي * ل اذا كنت خاليا مستريحا

واذا ما هممت باللغو فى البا * طل فاجعل مكانه تسبيحا

ولزوم السكوت خير من النطـ * ـق وان كنت فى الكلام فصيحا

(والاصل الثالث) حفظ الاعمال الصالحة فان من لم يصن لسانه وأكثر الكلام يقع لا محالة فى غيبة الناس كما قيل من كثر لغطه كثر سقطه والغيبة هى الصاعقة المهلكة للطاعات على ما قيل ان مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجنيقا فهو يرمى به حسناته شرقا وغربا ويمينا وشمالا وبلغنا عن الحسن انه قيل له يا أبا سعيد ان فلانا اغتابك فبعث اليه بطبق فيه رطب وقال بلغنى أنك أهديت الى حسناتك فأحببت أن أكافئك وذكرت

فهذه رتبة الهالكين فإياك أن تكون فى هذه الطبقة واعلم أن العبد فى حق دينه على ثلاث درجات اما سالم وهو المقتصر على أداء الفرائض وترك المعاصى أو رابح وهو المتطوع بالقربات والنوافل أو خاسر وهو المقصر عن اللوازم فان لم تقدر أن تكون رابحا فاجتهد أن تكون سالما واياك ثم اياك ان تكون خاسرا والعبد فى حق سائر العباد له ثلاث درجات (الاولى) أن ينزل فى حقهم منزلة الكرام البررة من الملائكة وهو أن يسعى فى اغراضهم رفقا بهم وادخال السرور على قلوبهم (الثانية) أن ينزل فى حقهم منزلة البهائم والجمادات فلا ينالهم خيره ولكن يكف عنهم شره (الثالثة) أن ينزل فى حقهم منزلة العقارب والحيات والسباع الضاريات لا يرجى خيره ويتقى شره فان لم تقدر أن تلحق بأفق الملائكة فاحذر ان تنزل عن درجة البهائم والجمادات الى مراتب العقارب والحيات والسباع الضاريات فان رضيت لنفسك النزول من أعلى عليين فلا ترضى لها بالهوى الى أسفل السافلين فلعلك تنجو كفافا لا لك ولا عليك فعليك فى بياض نهارك أن

الغيبة

الغيبة عند ابن المبارك فقال لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت أبي لانها أحق بحسناتي وذكر انه فات حاتما الاصم ليلة القيام فعيرته زوجته فقال ان أقواما صلوا بالليل البارحة فلما أصبحوا نالوا مني فتكون صلاتهم يوم القيامة في ميزاني (والاصل الرابع) السلامة من آفات الدنيا على ما قال سفيان لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك وقال الآخر لا تبسطن لسانك فيفسد عليك شأنك وأنشدوا

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى * ان البلاء موكل بالمنطق

(ولابن المبارك رضي الله عنه)

الا احفظ لسانك ان اللسان * سريع الى المرء في قتله
وان اللسان دليل الفؤاد * يدل الرجال على عقله

(ولابن أبي المطيع رحمه الله)

لسان المرء ليث في كمين * اذا خلي عليه له اغاره
فصنه عن الخنى بلجام صمت * يكن لك من بليات ستاره

وفي المثل السائر رب كلمة تقول لصاحبها دعني نسأل الله التوفيق برحمته (الاصل الخامس) ذكر آفات الآخرة وعواقبها وأذكر فيه نكتة واحدة وهي انه لا يخلو اما ان تقول قولا محظورا حراما أو قولا مباحا من فضول لا يعنيك فان كان محظورا حراما ففيه من عذاب الله تعالى الذي لا طاقة لك به فقدر وينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليلة أسري بي رأيت في النار قوما يأكلون الجيف فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس (ولقد قال) صلى الله عليه وسلم لمعاذ اقطع لسانك عن حملة القرآن وطلاب العلم ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب النار وعن أبي قلابة انه قال ان في الغيبة خراب القلب من الهدى فنسأل الله تعالى العصمة من ذلك بفضله هذا في الكلام المحظور وأما المباح ففيه أربعة أمور (أحدها) شغل الكرام الكاتبين بما لا خير فيه ولا فائدة وحق للمرء ان يستحي منهما فلا يؤذيهما (قال الله تعالى) ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد (والثاني) ارسال كتاب الى الله سبحانه وتعالى من اللغو والهذر فليحذر العبد من ذلك وليخش الله عز وجل وذكر أن بعضهم نظر الى رجل يتكلم بالخنى فقال يا هذا ويحك انما تملي كتابا الى ربك فانظر ماذا تملي (والثالث) قراءته بين يدي الملك الجبار يوم القيامة على رؤس الاشهاد بين الشدائد والاهوال عطشان عريان جيعان منقطعا عن الجنة محبوسا عن النعمة (والرابع) اللوم والتعيير بما ذا قلت وانقطاع الحجة والحياء من رب العزة فقد قيل اياك والفضول فان حسابه يطول وكفى بهذه الاصول واعظا لمن اتعظ وقد بسطنا في كتاب أسرار معاملات الدين ما فيه مقنع فانظر ما فيه تجد الشفاء

(الفصل الرابع القلب)

ثم عليك بحفظه واصلاحه وحسن النظر في ذلك وبذل الجهد فانه أعظم هذه الاعضاء خطرا وأكثرها أثرا وادقها أمرا وأشقها اصلاحا وأصعبها حالا وأذكر فيه خمسة أصول مقنعة (الاصل الاول) قوله تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وقوله تعالى والله يعلم ما في قلوبكم وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور كم ذكره وكرر ذكره في القرآن فيكفي باطلاع العليم الخبير تحذيرا وتهديدا للخواص من العباد لان المعاملة مع علام الغيوب خطر خطير فانظر ماذا يعلم من قلبك (الاصل الثاني) قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وابشاركم وانما ينظر الى قلوبكم فالقلب اذن موضع نظر رب العالمين فيا عجبا ممن يهتم بوجهه الذي هو موضع نظر الخلق فيغسله وينظفه من الاقذار والادناس ويزينه بما أمكنه لئلا يطلع مخلوق فيه على عيب ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر رب العالمين فيطهره ويزينه ويطيبه كي لا يطلع الرب جل جلاله على دنس فيه وشين وآفة وعيب بل يهمله بفضائح واقذار وقبائح لو اطلع الخلق على واحد منها لهجروه وتبرؤا منه

لا تشتغل الا بما يعلمك في معادك أو معاشك الذي لا تستغني عنه وعن الاستعانة به على معادك أو معاشك فان عجزت عن القيام بحق دينك مع مخالطة الناس وكنت لا تسلم فالعزلة أولى لك فعليك بها ففيها النجاة والسلامة فان كانت الوساوس في العزلة تجاذبك الى ما لا يرضي الله تعالى ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات فعليك بالنوم فهو أحسن أحوالك وأحوالنا اذا عجزنا عن الغنيمة رضينا بالسلامة في الهزيمة فأخس حال من سلامة دينه في تعطيل حياته اذ النوم أخو الموت وهو تعطيل الحياة والتحاق بالجمادات

(آداب الاستعداد لسائر الصلوات)

ينبغي أن تستعد قبل الزوال لصلاة الظهر فتقدم القيلولة ان كان لك قيام في الليل أو سهر في الخير فان فيها معونة على قيام الليل كما ان في السحور معونة على صيام النهار والقيلولة من غير قيام بالليل كالسحور من غير صيام بالنهار واجتهد ان تستيقظ قبل الزوال وتتوضأ وتحضر المسجد وتصلي تحية المسجد وتنتظر المؤذن فتجيبه ثم تقوم فتصلي أربع ركعات عقيب

وطردوه والله المستعان (الاصل الثالث) ان القلب ملك مطاع ورئيس متبع فالاعضاء كلها له تبع فاذا صلح المتبوع صلح التبع واذا استقام الملك استقامت الرعية ويبين لك ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب واذا كان صلاح الكل في ذلك وجب صرف العناية اليه (الاصل الرابع) ان القلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس وكل معنى خطير أولها العقل وأجلها معرفة الله تعالى التي هي سبب سعادة الدارين ثم البصائر التي بها التقدم والوجاهة عند الله عز وجل ثم النية الخالصة في الطاعات التي يتعلق بها ثواب الابد ثم أنواع العلوم والحكم التي هي شرف العبد وسائر الاخلاق الشريفة والخصال الحميدة التي بها يحصل تفاضل الرجال على ما فصلنا وشرحنا في كتاب اسرار معاملات الدين وحق لمثل هذه الخزانة ان تحفظ وتصان عن الادناس والآفات وتحرس وتحرز من السراق والقطاع وتكرم وتجل بضروب الكرامات لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس ولا يظفر بها والعياذ بالله عدو (الاصل الخامس) انى تأملت حاله فوجدت له خمسة أحوال ليست لغيره من أعضاء ابن آدم أحدها ان العدو قاصد اليه مقبل عليه ملازم له فان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فهو منزل الالهام والوسوسة يقرعانه بالدعوتين أبدا الملك والشيطان والثاني ان الشغل له أكثر فان العقل والهوى كلاهما فيه فهو معترك العسكرين الهوى وجنوده والعقل وجنوده فهو أبدا بين تجاذبهما وتقاتلهما وتناقضهما وحق بالثغر أن يحرس ويحصن ولا يغفل عنه والثالث ان العوارض له أكثر فان الخواطر له كالسهام لا تزال تقع فيه وكالمطر لا تزال تمطر عليه ليلا ونهارا لا انقطاع ولا أنت تقدر على منعها فتمتنع وليس بمنزلة العين التي بين الجفنين تغمض فتستريح أو تكون في موضع خال أو ليل مظلم فتكفي رؤيتهما أو كاللسان الذي هو من وراء الحاجبين الاسنان والشفتين وأنت القادر على منعه وتسكينه بل القلب غرض للخواطر لا تقدر على منعها والتحفظ عنها بحال وهي لا تنقطع عنك بوقت ثم النفس مسارعة الى اتباعها والامتناع عن ذلك في مجهود الطاقة أمر شديد ومحنة عظيمة والرابع أن علاجه عسير اذ هو غيب عنك فلا تكاد تشعر حتى تدب فيه آفة وتحدث له حالة فتحتاج الى ان تبحث عن ذلك أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة والخامس أن الآفات اليه أسرع فهو الى الانقلاب أقرب فلقد قيل ان القلب أسرع انقلابا من القدر في غليانها ولذلك قيل

ما سمي القلب الا من تقلبه * والرأي يضرب بالانسان أطوارا

ثم ان زل القلب والعياذ بالله فزلته أعظم ووقوعه أصعب وأفظع اذ أدناه قسوة وميل الى غير الله سبحانه وتعالى ومنتهاه ختم بكفر والعياذ بالله تعالى أما تسمع قوله تعالى أبى واستكبر وكان من الكافرين فكان الكبر بقلبه فحمله على الاباء والكفر بظاهره أما تسمع قوله تعالى ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فكان الميل واتباع الهوى بقلبه فحمله على ذلك الذنب المشوم بنفسه أما تسمع قوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ولهذا المعنى أيها الرجل خاف عباد الله تعالى الخواص على قلوبهم وبكوا عليها وصرفوا عنايتهم اليها قال الله سبحانه في وصفهم يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار جعلنا الله واياكم من المعتبرين بالعبر المهتمين بمواضع الخطر الموفقين لاصلاح قلوبهم بحسن النظر انه أرحم الراحمين (فان قيل) ان أمر هذا القلب اهم جدا فأخبرنا عن المعاني التي تصلحه وعن الآفات التي تعترضه فتفسده عسى أن نوفق للاجتهاد في العمل بذلك (يقال له) اعلم أن تفصيل هذه المعاني اطويل لا يحتمله هذا الكتاب وانما علماء الآخرة عنوا باستخراج ذلك وتصنيفه في هذه المسكنة لا غير وقد ذكروا فيما يحتاج اليه من ذلك نحوا من تسعين خصلة محمودة وفي اضدادها المذمومة ثم من الافعال والمساعي الواجبة والمحظورة نحو ذلك في سائر تفاصيلها ولعمري ان من أهمه أمر دينه وانتبه من رقدة الغافلين ونظر لنفسه فلا يكون تحصيل جميع ذلك والعمل به عليه كثيرا اذا وفقه الله تعالى وقد ذكرنا نبذة منها في شرح عجائب القلب من كتاب احياء علوم الدين وأتينا

الزوال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطولهن ويقول هذا وقت تفتح فيه ابواب السماء فأحب أن يرفع لي فيه عمل صالح وهذه الاربع قبل الظهر سنة مؤكدة ففي الخبر ان من صلاهن فأحسن ركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له الى الليل ثم تصلي الفرض مع الامام ثم تصلي بعد الفرض ركعتين فهما من الرواتب الثابتة ولا تشتغل الى العصر الا بتعلم علم أو اعانة مسلم أو قراءة قرآن أو سعي في معاش تستعين به على دينك * ثم تصلي أربع ركعات قبل العصر وهي سنة مؤكدة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ صلى أربعا قبل العصر فاجتهد أن ينالك دعاؤه صلى الله عليه وسلم ولا تشتغل بعد العصر الا بمثل ما سبق قبله ولا ينبغي ان تكون أوقاتك مهملة فتشتغل في كل وقت بما اتفق كيف اتفق بل ينبغي ان تحاسب نفسك وترتب أورادك ووظائفك في ليلك ونهارك وتعين لكل وقت شغلا لا تتعداه ولا تؤثر فيه سواه فبذلك تظهر بركة الاوقات فأما اذا تركت نفسك سدى مهملا اهمال البهائم لا تدري بماذا تشتغل

على

على شرح جميعها بتفاصيلها وكيفية علاجها في كتاب أسرار معاملات الدين وهو كتاب مستقل بنفسه عظيم الفائدة ولا ينتفع به الا فحول العلماء الراسخون في العلم وموضوع هذا الكتاب أن ينتفع به المبتدي والمنتهي والقوي والضعيف فنظرنا في الاصول التي لابد من ذكرها في علاج القلب واصلاحه لها ماسة ولا غنية عنها ألبتة في شأن العبادة فوجدناها أربعة أمور وهي مداحض العابدين وآفات المجتهدين وهي فتن القلوب وبليات النفوس تعوق وتشين وتفسد وتتلف وأربعة في مقابلتها فيها قوام العباد وانتظام العبادة وصلاح القلوب * فالآفات الاربع الامل والاستعجال والحسد والكبر والمناقب الاربع قصر الامل والتأني في الامور والنصيحة للخلق والتواضع والخشوع فهذه هي الاصول في صلاح القلوب وفسادها والنكتة التي عليها المدار فابذل المجهود في التحرز من هذه الآفات والتحصيل لهذه المناقب تكف المؤن وتظفر بالمقصود ان شاء الله تعالى وسأخبرك عن هذه الآفات بكلمات وجيزة مقنعة (أما طول الامل) فانه العائق عن كل خير وطاعة والجالب لكل شر وفتنة وانه الداء العضال الذي يوقع الخلق في أنواع البليات فاعلم أنك اذا طال أملك هاج لك منه أربعة أشياء أحدها ترك الطاعة والكسل فيها تقول سوف أفعل والايام بين يدي ولا يفوتني ذلك ولقد صدق داود الطائي رحمه الله حيث قال من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ومن طال أمله ساء عمله وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله الامل قاطع من كل خير والطمع مانع من كل حق والصبر صائر الى كل ظفر والنفس داعية الى كل شر والثاني ترك التوبة وتسويفها تقول سوف أتوب وفي الايام سعة وانا شاب وسني قليل والتوبة بين يدي وانا قادر عليها متى رمتها وربما اغتاله الحمام على الاصرار فاختطفه الاجل قبل اصلاح العمل والثالث الحرص على الجمع والاشتغال بالدنيا عن الآخرة تقول أخاف الفقر في الكبر وربما أضعف عن الاكتساب ولابد لي من شيء فاضل أدخره لمرض أو هرم أو فقر هذا ونحوه مما يحركك الى الرغبة في الدنيا والحرص عليها والاهتمام للرزق تقول ايش آكل وايش أشرب وايش ألبس وهذا الشتاء وهذا الصيف ومالي شيء ولعل العمر يطول فأحتاج والحاجة مع الشيب شديدة ولابد لي من قوت وغنية عن الناس هذه وأمثالها تحركك الى طلب الدنيا والرغبة فيها والجمع لها والمنع لما عندك منها وأقل ما في الباب ان يشغل قلبك ويضيع عليك عمرك أو وقتك ويكثر همك وغمك بلا فائدة ولا طائل على ما روي عن أبي ذر رضي الله عنه انه قال قتلني هم يوم لم أدركه قيل وكيف ذلك يا أبا ذر قال ان أملي جاوز أجلي والرابع القسوة بالقلب والنسيان للآخرة لانك اذا أملت العيش الطويل لا تذكر الموت والقبر كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ان أخوف ما أخاف عليكم اثنتان طول الامل واتباع الهوى ألا وان طول الامل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق فاذن يصير فكرك ومعظم أمرك في حديث الدنيا وأسباب العيش وفي صحبة الخلق ونحوها فيقسو القلب من ذلك وانما رقة القلب وصفوته بذكر الموت والقبر والثواب والعقاب وأحوال الآخرة واذا لم يكن شيء من ذلك فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة قال الله تعالى فطال عليهم الامد فقست قلوبهم فاذن أنت اذا طولت أملك قلت طاعتك وتأخرت توبتك وكثرت معصيتك واشتد حرصك وقسا قلبك وعظمت غفلتك عن العاقبة فذهبت والعياذ بالله ان لم يرحم الله تعالى آخرتك فأي حال أسوأ من هذه وأي آفة أعظم من هذه وكل هذا بسبب طول الامل وأما ان قصرت أملك وقربت من نفسك موتك وتذكرت حال أقرانك واخوانك الذين غافصهم الموت في وقت لم يحتسبوه ولعل حالك مثل حالهم فاحذري يا نفسي الغرور واذكري ما قال عوف بن عبد الله رحمه الله كم من مستقبل يوما لم يستكمله ومنتظر غدا لم يدركه لو رأيتم الاجل ومسيره لابغضتم الامل وغروره أما سمعت قول عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا ثلاثة أيام أمس مضى ما بيدك منه شيء وغد لا تدري اتدركه أم لا ويوم أنت فيه فاغتنمه ثم قول أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الدنيا ثلاث ساعات ساعة مضت وساعة أنت فيها وساعة لا تدري أتدركها أم لا فاست تملك بالحقيقة الا ساعة واحدة

في كل وقت فينقضي أكثر أوقاتك ضائعا وفاتك عمرك وعمرك رأس مالك وعليه تجارتك وبه وصولك الى نعيم دار الابد في جوار الله تعالى فكل نفس من أنفاسك جوهرة لا قيمة لها اذ لا بدل له فاذا فات فلا عود له فلا تكن كالحمقى المغرورين الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم فأي خير في مال يزيد وعمر ينقص ولا تفرح الا بزيادة علم أو عمل صالح فانهما رفيقاك يصحبانك في القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك وولدك وأصدقاؤك ثم اذا اصفرت الشمس فاجتهد أن تعود الى المسجد قبل الغروب وتشتغل بالتسبيح والاستغفار فان فضل هذا الوقت كفضل ما قبل الطلوع قال الله تعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها واقرأ قبل غروب الشمس والشمس وضحاها والليل اذا يغشى والمعوذتين ولتغرب عليك الشمس وأنت في الاستغفار فاذا سمعت الاذان فأجب وقل بعده اللهم اني أسألك عند اقبال ليلك وادبار نهارك وحضور صلاتك وأصوات دعاتك أن تؤتي محمدا الوسيلة والفضيلة والشرف والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود

ان الموت من ساعة الى ساعة ثم قول شيخنا رحمه الله الدنيا ثلاثة أنفاس نفس مضى عملت فيه ما عملت ونفس أنت فيه ونفس لا تدرى أتدركه أم لا اذ كم من متنفس نفسا فاجأه الموت قبل النفس الآخر فليست لك الا نفسا واحدا بالحقيقة لا يوما ولا ساعة فبادر في هذا النفس الواحد الى الطاعة قبل أن يفوت والى التوبة فلعلك في النفس الثاني تموت ولا تهتم بالرزق فلعلك لا تعيش فتحتاج اليه فيكون وقتك ضائعا والهم فاضلا وما عسى ان يهتم الانسان بالرزق ليوم واحد او ساعة واحدة او نفس واحد أما تذكر ما قال النبي صلى الله عليه وسلم لاسامة أما تعجبون من اسامة المشترى الى شهر ان أسامة لطويل الامل والله ما وضعت قدما فظننت أني أرفعها ولا لقمة فظننت أني أسيغها حتى يدركني الموت والذى نفسي بيده انما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين فاذا انت أيها الرجل تذكرت هذه الاذكار وواظبت على ذلك بالاعادة والتكرار قصر أملك باذن الله تعالى فحينئذ ترى نفسك تبادر الى الطاعات وتعجل توبتك فتسقط عنك معصيتك وتزهد في الدنيا وطالها فيخف حسابك وتعبك ويقع قلبك في تذكر الآخرة وأهوالها وما هو الا من نفس الى نفس تصير اليها وتعاينها واحدا فواحدا فتزول عنك القسوة وتبدو لك الرقة والصفوة وتستشعر عند ذلك الخوف من الله تعالى والخشية فيستقيم لك أمر عبادتك ويقوى الرجاء في ان تسعد في عاقبتك وتظفر بالمراد في آخرتك وكل ذلك بعد فضل الله تعالى بسبب هذه الخصلة التي هي قصر الامل ولقد حكى ان زرارة بن أوفى رحمه الله قيل له في النوم بعد موته أى الاعمال أبلغ فيما عندكم قال الرضا وقصر الامل فانظر لنفسك أيها الاخ وابذل الجهد في هذا الاصل الكبير فانه الاهم والاعظم في صلاح القلب والنفس والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته (وأما الحسد) فانه المفسد للطاعات الباعث على الخطايا ثم انه الداء العضال الذى يبتلى به الكثير من القراء والعلماء فضلا عن العامة والجهال حتى أهلكهم وأوردهم النار (أما تسمع) قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة يدخلون النار بستة العرب بالعصبية والامراء بالجور والدهاقين بالكبر والتجار بالخيانة وأهل الرساتيق بالجهل والعلماء بالحسد وان بلية بلغ شؤمها ان أوردت العلماء النار لحقيق ان تحذر منها واعلم ان الحسد يهيج خمسة أشياء أحدها افساد الطاعات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والثاني فعل المعاصي والشرور على ما قال وهب بن منبه رحمه الله للحاسد ثلاث علامات يتملق اذا شهد ويغتاب اذا غاب ويشمت بالمصيبة اذا نزلت (قلت) وحسبك ان الله تعالى أمرنا بالاستعاذة من شر الحاسد فقال سبحانه ومن شر حاسد اذا حسد كما أمرنا بالاستعاذة من شر الشيطان والساحر فانظر كم له من الشر والفتنة حتى أنزله منزلة الشيطان والساحر حتى ان لا مستعان عليه ولا مستعاذ الا بالله رب العالمين والثالث التعب والهم من غير فائدة بل مع ذلك وزر ومعصية كما قال ابن السماك رحمه الله لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد نفس دائم وعقل هائم وغم لازم والرابع عمى القلب حتى لا يكاد يفهم حكما من أحكام الله عز وجل فلقد قال سفيان الثوري رحمه الله عليك بطول الصمت تملك الورع ولا تكن حريصا على الدنيا تكن حافظا ولا تكن طعانا تنج من ألسن الناس ولا تكن حاسدا تكن سريع الفهم والخامس الحرمان والخذلان ولا يكاد يظفر بمراد وينصر على عدو كما قال حاتم الاصم رحمه الله الضغين غير ذى دين والعائب غير عابد والنمام غير مأمون والحسود غير منصور (قلت) الحسود كيف يظفر بمراده ومراده زوال نعم الله تعالى عن عباده المسلمين وكيف ينصر على اعدائه وهم عباد الله المؤمنون ولقد أحسن أبو يعقوب رحمه الله فيما قال اللهم صبرنا على تمام النعم على عبادك وحسن أحوالهم وانه داء يفسد عليك الطاعة ويكثر شرك ومعصيتك ويمنعك راحة النفس وفهم القلب والنصرة على الاعداء والظفر بالمطلوب فاى داء يكون أدوأ منه فعليك بمعالجة نفسك من ذلك والله تعالى ولى التوفيق بمنه وكرمه *(وأما الاستعجال والترقى في البر)* فانه الخصلة المفوتة للمقاصد الموقعة في المعاصي فان منها تبدو آفات أربع احداها ان يقصد العابد منزلة في الخير والاستقامة ويجتهد فربما يستعجل في نيلها وليس ذلك بوقتها فاما ان يفتر وييأس

الذى وعدنا الله الاعتكاف الميعاد والدعاء كما سبق * ثم صل الفرض بعد جواب المؤذن والاقامة وصل بعده ركعتين قبل أن تتكلم فيهما وانهما سنة المغرب وان صليت بعدهما أربعا فهي أيضا سنة * وان أمكنك أن تنوى الاعتكاف الى العشاء وتحيى ما بين العشاءين بصلاة فقد ورد في فضل ذلك ما لا يحصى وهي ناشئة الليل لانها أول نشأة وهي صلاة الاوابين وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع فقال هي الصلاة ما بين العشاءين انها تذهب بملغيات أول النهار وآخره والملغيات جمع ملغاة وهي من اللغو * فاذا دخل وقت العشاء فصل أربع ركعات قبل الفرض احياء لما بين الاذانين ففضل ذلك كثير * وفي الخبر ان الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد ثم صل الفرض وصل الراتبة ركعتين واقرأ فيهما سورة ألم السجدة وتبارك الملك أو سورة يس والدخان فذلك ماثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل بعده أربع ركعات ففي الخبر ما يدل على عظيم فضلها ثم صل الوتر بعدها ثلاثا بتسليمتين أو بتسليمة واحدة وكان رسول الله صلى الله عليه

فيترك

فيترك الاجتهاد فيحرم تلك المنزلة وأما ان يغلو في الجهد ويتعب النفس فينقطع عن تلك المنزلة فهو بين افراط وتفريط وكلاهما نتيجة الاستعجال (ولقد) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وفي المثل السائر ان لم تستعجل تصل ولقائل

قد يدرك المتأني بعض حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلل

والثانية ان يكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى فيها ويكثر الدعاء ويجد فربما يستعجل الاجابة قبل وقتها فلا يجدها فيفتر ويسأم فيترك الدعاء فيحرم حاجته ومقصوده والثالثة ان يظلمه انسان فيغيظه فيعجل بالدعاء عليه فيهلك مسلم بسببه وربما يتجاوز عن الحد فيقع في معصية وهلاك قال الله تعالى ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا والرابعة ان أصل العبادة وملاكها الورع والورع أصله النظر البالغ في كل شيء والبحث التام عن كل شيء هو بصدده من أكل وشرب ولبس وكلام وفعل فاذا كان الرجل مستعجلا في الامور وغير متأن ولا متثبت متبين لم يقع منه توقف ونظر في الامور ركا يجب ويتسارع الى كل كلام فيقع في الزلل والى أكل طعام فيقع في الحرام والشبهة وكذلك في كل أمر فيفوته الورع وأي خير في عبادة بلا ورع واذا كان في خصلة الانقطاع عن منازل الخير وحرمان الحاجات وهلاك المسلمين وهلاكه ثم خطر فوت الورع الذي هو رأس المال فحق للانسان ان يهتم لها بالازالة واصلاح النفس بعدها والله ولي التوفيق بمنه وفضله (وأما الكبر) فانه الخصلة المهلكة رأسا أما تسمع قوله تعالى أبى واستكبر وكان من الكافرين وليست هذه الخصلة بمنزلة سائر الخصال التي تقدح في عمل وتضر بفرع وانما تضر بالاصل وتقدح في الدين والاعتقاد واذا قويت وغلبت لا تتدارك والعياذ بالله ثم أقل ما يهيج منها على صاحبها أربع آفات احداها حرمان الحق وعمى القلب عن معرفة آيات الله تعالى وفهم أحكام الله تعالى قال الله تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وقال تعالى كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار والثانية المقت والبغض من الله تعالى قال الله تعالى انه لا يحب المستكبرين (وروى) أن موسى عليه السلام قال يا رب من أبغض خلقك اليك قال من تكبر قلبه وغلظ لسانه وصفق عينه وبخلت يده وساء خلقه والثالثة الخزي والنكال في الدنيا والآخرة قال حاتم رحمه الله احذر أن يدركك الموت على ثلاثة على الكبر والحرص والخيلاء فان المتكبر لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل أهله وخدامه والحريص لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يحوجه الى كسرة أو شربة ولا يجد مساغا والمختال لا يخرجه الله تعالى من الدنيا حتى يمرغه ببوله وقذره (وقيل) من تكبر بغير حق أورثه الله تعالى ذلا بحق والرابعة النار والعذاب في العقبى على ما روي ان الله تعالى يقول الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني في واحد منهما أدخلته نار جهنم والمعنى ان العظمة والكبرياء من الصفات التي تختص بي فلا تنبغي لاحد غيري كان رداء الانسان وازاره يختص به لا يشاركه فيه وان خصلة تفوتك معرفة الحق وفهم معاني آيات الله تعالى وأحكامه الذي هو أصل الامر كله ثم تمرك المقت من الله سبحانه وتعالى والخزي في الدنيا والنار في الآخرة لا ينبغي لعاقل أن يغفل عن نفسه فلا يصلحها بازالتها بالحذر والتحرز والاستعاذة بالله من ذلك وهو جل وعز ولي العصمة والتوفيق بمنه فهذا بعض ما حضرنا في هذه الخصال الاربع من الآفات وحسب العاقل واحدة منها فضلا عن الكل اذا أهمه أمر قلبه وحامى عن أمر دينه والله الموفق (فان قلت) فاذا كان الامر بهذه المنزلة من آفات هذه الخصال ولزوم التحفظ منها فلا بد من معرفة حقيقتها وحدها فبين لنا ذلك لنعرف كيف الطريق الى التحفظ عنها (فاعلم) ان في كل واحدة منها كلاما كثيرا وقد أشبعنا القول فيه في كتاب الاحياء والاسرار ونحن نذكر ههنا ما لا بد من ذكره ولا يسع الغنى عنه فنقول وبالله التوفيق (اما الامل) فقال أكثر علمائنا رحمهم الله انه ارادة الحياة للوقت المتراخي بالحكم وقصر الامل ترك الحكم فيه بأن تقيده بالاستثناء بمشيئة الله وعلمه في الذكر أو بشرط الصلاح في الارادة فاذن ان ذكرت

وسلم يقرأ فيهما وبسبح اسم ربك الاعلى وقل يا أيها الكافرون والاخلاص والمعوذتين فان كنت عازما على قيام الليل فأخر الوتر ليكون آخر صلاتك بالليل وترا ثم اشتغل بعد ذلك بمذاكرة علم أو مطالعة كتاب ولا تشتغل باللهو واللعب فيكون ذلك خاتمة أعمالك قبل نومك فان الاعمال بخواتيمها

(آداب النوم)

فاذا أردت النوم فابسط فراشك مستقبل القبلة ونم على يمينك كما يضجع الميت في لحده واعلم ان النوم مثل الموت واليقظة مثل البعث ولعل الله تعالى يقبض روحك في ليلتك فكن مستعدا للقائه بأن تنام على طهارة وتكون وصيتك مكتوبة تحت رأسك وتنام تائبا من الذنوب مستغفرا عازما على ان لا تعود الى معصية واعزم على الخير لجميع المسلمين ان بعثك الله تعالى وتذكر انك ستضجع في اللحد كذلك وحيدا فريدا ليس معك الا عملك ولا تجزى الا بسعيك ولا تستجلب النوم تكلفا بتمهيد الفرش الوطيئة فان النوم تعطيل الحياة الا اذا كانت يقظتك وبالا عليك فنومك سلامة لدينك * واعلم أن الليل والنهار

حياتك بانى أعيش بعد نفس ثان أو ساعة ثانية أو يوم ثان بالحكم والقطع فأنت آمل وذلك منك معصية اذهو حكم على الغيب فان قيدته بالمشيئة والعلم من الله فقلت أعيش ان شاء الله أو ان علم الله انى أعيش فقد خرجت عن حكم الامل ووصفت بترك الامل وكذلك ان أردت حياتك للوقت الثانى قطعا فأنت آمل وان قيدت ارادتك بشرط الصلاح خرجت عن حكم الامل ووصفت بقصر الامل من حيث تركت الحكم فيه فعليك بترك الحكم فى ذكر البقاء وارادته والمراد بالذكر ذكر القلب ثم المراد منه التوطين على ذلك والتثبيت للقلب عليه فافهم ذلك راشدا ان شاء الله عز وجل* ثم الامل ضربان أمل العامة وأمل الخاصة فأمل العامة أن تريد الحياة والبقاء لجمع الدنيا والتمتع بها وهذه معصية محضة وضدها قصر الامل قال الله تعالى فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون وأما الخاصة أن تريد البقاء لاتمام عمل خير فيه خطر وهو ما لا يستيقن الصلاح له فيه فانه ربما يكون خير معين لا يكون للعبد فيه أو فى اتمامه صلاح بان يقع بسببه فى عجب وآفة لا يقوم بها هذا الخير فاذن ليس للعبد اذا ابتدأ فى صلاة أو صوم أو غيره أن يحكم بأنه يتمه اذ هو غيب ولا أن يقصد ذلك قطعا لانه ربما لا يكون له فيه صلاح بل يقيد ذلك بالاستثناء أو بشرط الصلاح ليخلص من عيب الامل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله وضد هذا الامل فيما قال العلماء النية المحمودة وانما قالوا ذلك على ضرب من الاتساع لان الناوى بالنية المحمودة يكون ممتنعا من الامل فهذا حكم الامل والنية المحمودة اذ قد مست الحاجة اليها والى معرفتها مع انهما الاصل الاصيل قالوا رحمهم الله فى حدها الجامع التام ان النية الصحيحة المحمودة ارادة أخذ عمل مبتدا به قبل سائر الاعمال بالحكم مع ارادة اتمامه بالتفويض والاستثناء (فان قيل) فلم جاز الحكم فى الابتداء ووجب التفويض والاستثناء فى الاتمام (يقال له) لفقد الخطر فى الابتداء اذ هو فى حال الابتداء ليس بشئ متراخ عنك ولثبوت الخطر فى الاتمام اذ هو يقع فى وقت متراخ ففيه الخطران خطر الوصول لا تدرى هل تصل الى ذلك أم لا وخطر الفساد لا تدرى هل فى ذلك صلاح أم لا فاذا وجب الاستثناء لخطر الوصول والتفويض لخطر الفساد فاذا حصلت الارادة على هذه الشروط تكون حينئذ نية محمودة مخرجة عن حد الامل وآفته فتأمل جدا فهذه هذه (واعلم) ان حصن قصر الامل ذكر الموت وحصن حصنه ذكر فجأة الموت وأخذه على غرة وغفلة وهو فى غرور وفتور فاحتفظ بهذه الجملة وحصلها موفقا فان الحاجة ماسة اليها ودع عنك تضييع الوقت فى القيل والقال وملاحاة الرجال والله الموفق بفضله (وأما الحسد) فهو ارادة زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح فان لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو غبطة وعلى هذا يحمل قوله عليه السلام لا حسد الا فى اثنين الخبر أى لا غبطة الا فى ذلك فعبر عن الغبطة بالحسد اتساعا فى ذلك لتقاربهما فان لم يكن له فيها صلاح فأردت زوالها عنه فذلك غيرة فهذا هو الفرق بين هذه الخصال (وأما ضد الحسد) فالنصيحة وهى ارادة بقاء نعم الله تعالى على أخيك المسلم مما له فيها صلاح (فان قيل) كيف نعلم ان له فيها صلاحا أو فسادا لننصحه أو نحسده (فاعلم) انه قد يكون لنا غالب الظن بذلك وغلبة الظن منا تجرى مجرى العلم فى هذه المواضع ثم ان اشتبه عليك فلا تريدن زوال نعمة أحد من المسلمين أو بقاءها الا مقيدا بالتفويض وشرط الصلاح لتخلص من حكم الحسد ويحصل لك فائدة النصيحة (وأما) حصن النصيحة المانع من الحسد فهو ذكر ما أوجبه الله تعالى من موالاة المسلمين وحصن هذا الحصن ذكر ما عظم الله تعالى من حق المؤمن ورفع من قدره وماله عند الله من الكرامات العظيمة فى العقبى ومالك فيه من الفوائد الجليلة فى الدنيا من التعاون والتظاهر والجماعات والجمعات ثم ما ترجو من شفاعته فى الآخرة فهذه ونحوها مما يبعث على النصح لكل مسلم ويجنبك من أن تحسده فى نعمة أعطاه الله تعالى اياها والله سبحانه ولى التوفيق بفضله (وأما العجلة) فانها المعنى الراتب فى القلب الباعث على الاقدام على الامر بأول

أربع وعشرون ساعة فلا يكون نومك بالليل والنهار أكثر من ثمان ساعات فيكفيك ان عشت مثلا ستين سنة أن تضيع منها عشرين سنة وهو ثلث عمرك وأعد عند النوم سواكك وطهورك واعزم على قيام الليل أو على القيام قبل الصبح وركعتان فى جوف الليل كنز من كنوز البر فاستكثر من كنوزك ليوم فقرك فلن تغنى عنك كنوز الدنيا اذا مت* وقل عند نومك باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك ارفعه فاغفر لى ذنبى اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك اللهم باسمك أحيا وأموت أعوذ بك اللهم من شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم اللهم أنت الاول فليس قبلك شئ وأنت الآخر فليس بعدك شئ وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك شئ اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها لك محياها ومماتها ان أمتها فاغفر لها وان أحييتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم انى أسألك العفو والعافية اللهم أيقظنى فى أحب الساعات اليك واستعملنى بأحب الاعمال اليك حتى تقربنى اليك زلفى وتبعدنى عن سخطك بعدا

خاطر

خاطر دون التوقف فيه والاستطلاع منه بل الاستعجال فى اتباعه والعمل به وضدها الاناة وهو المعنى الراتب فى القلب الباعث على الاحتياط فى الامور والنظر فيها والتأنى فى اتباعها والعمل بها (وأما التوقف) فضده التعسف قال شيخنا رحمه الله الفرق بين التوقف والتأنى ان التوقف قبل الدخول فى الامر حتى يستبين له رشده والتأنى بعد الدخول فيه حتى يؤدى لكل جزء منه حقه ثم مقدمات الاناة ذكر وجوه الخطر فى الامور التى تعترض للانسان وضروب الآفات المخوفة فيها وذكره فى النظر والتثبت من السلامة وما فى التعسف والاستعجال من الندامة والملامة وهذه وأمثالها مما يبعث على التأنى والتوقف فى الامور ويمنع من الاستعجال والتعسف والله تعالى ولى العصمة برحمته (وأما الكبر) فاعلم انه خاطر فى رفع النفس واستعظامها والتكبر اتباعه والضعة خاطر فى وضع النفس واحتقارها والتواضع اتباعه وكل واحد منهما عامى وخاصى فالتواضع العامى هو الاكتفاء بالدون من الملبس والمسكن والمركب والتكبر فى مقابلته الترفع عن ذلك والتواضع الخاصى هو تمرين النفس على قبول الحق ممن كان وضيعا أو شريفا والتكبر فى مقابلته الترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة وخطيئة عظيمة ثم حسن التواضع العامى أن تذكر مبدأك ومنتهاك وما أنت عليه فى الحال من ضروب الآفات والاقذار كما قال بعضهم أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بينهما حامل العذرة وحسن التواضع الخاصى هو ذكر عقوبة العادل عن الحق المتمادى فى الباطل فهذه جملة كافية لمن استبصر والله الموفق وولى التوفيق

(الفصل الخامس فى البطن وحفظه)

ثم عليك يا طالب العبادة بحفظ البطن واصلاحه فانه أشق الاعضاء اصلاحا على المجتهد وأكثرها مؤنة وشغلا وأعظمها ضررا وأثر لانه المنبع والمعدن ومنه تهيج الامور فى الاعضاء من قوة وضعف وعفة وجماح ونحوه فعليك اذن بصيانته عن الحرام والشبهة أولا ثم عن فضول الحلال ثانيا ان كانت لك همة فى عبادة الله تعالى فاما الحرام والشبهة فانما يلزمك التجنب عنه لثلاثة أمور أولها حذرا من نار جهنم قال الله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا وقال النبى صلى الله عليه وسلم كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به والثانى ان آكل الحرام والشبهة مطرود لا يوفق للعبادة اذ لا يصلح لخدمة الله تعالى الا كل طاهر مطهر (قلت أنا) أليس الله تعالى قد منع الجنب عن الدخول فى بيته والمحدث عن مس كتابه قال عز من قائل ولا جنبا الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وقال الله تعالى لا يمسه الا المطهرون ومع أن الجنابة والحدث أمر مباح فكيف بمن هو منغمس فى قذر الحرام ونجاسة السحت والشبهة ومتى يدعى الى خدمة الله العزيز وذكره الشريف سبحانه كلا فلا يكون ذلك أبدا وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله الطاعة مخزونة فى خزائن الله تعالى ومفتاحها الدعاء وأسنانه الحلال فاذا لم يكن للمفتاح أسنان فلا ينفتح الباب واذا لم ينفتح باب الخزانة كيف يصل الى ما فيها من الطاعة والثالث ان آكل الحرام والشبهة محروم من فعل الخير فان اتفق له فعل خير فهو مردود عليه غير مقبول منه فاذن لا يكون له من ذلك الا العناء والكد وشغل الوقت قال صلى الله عليه وسلم كم من قائم ليس له من قيامه الا السهر وكم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظمأ وعن ابن عباس رضى الله عنهما لا يقبل الله صلاة امرئ فى جوفه حرام فهذه هذه (وأما) فضول الحلال فانه آفة العباد وبلية أهل الاجتهاد فانى تأملت فوجدت فيه عشر آفات هن أصول فى هذا الشأن الاولى ان فى كثرة الاكل قسوة القلب وذهاب نوره (روى) عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب يموت كالزرع اذا كثر عليه الماء ولقد شبه ذلك بعض الصالحين بأن المعدة كالقدر تحت القلب تغلى والبخار يرتفع اليه فكثرة البخار تكدره وتسخمه الثانية ان فى كثرة الاكل فتنة الاعضاء وهيجها وانبعاثها للفضول والفساد فان الرجل اذا كان شبعان بطرا اشتهت

اسألك فتعطينى واستغفرك فتغفر لى وادعوك فتستجيب لى ثم اقرأ آية الكرسى وآمن الرسول الى آخر السورة والاخلاص والمعوذتين وسورة تبارك الملك وليأخذك النوم وأنت على ذكر الله وعلى الطهارة فمن فعل ذلك عرج بروحه الى العرش وكتب مصليا الى ان يستيقظ * فاذا استيقظت فارجع الى ما عرفتك أولا وداوم على هذا الترتيب بقية عمرك فان شقت عليك المداومة فاصبر صبر المريض على مرارة الدواء انتظارا للشفاء وتفكر فى قصر عمرك وان عشت مثلا مائة سنة فهى قليلة بالاضافة الى مقامك فى الدار الآخرة وهى أبد الآباد وتأمل انك كيف تتحمل المشقة والذل فى طلب الدنيا شهرا أو سنة رجاء ان تستريح بها عشرين سنة مثلا فكيف لا تتحمل ذلك اياما قلائل رجاء الاستراحة أبد الآباد ولا تطول أملك فيثقل عليك عملك وقدر قرب الموت وقل فى نفسك انى احتمل المشقة اليوم فلعلى أموت الليلة وأصبر الليلة فلعلى أموت غدا فان الموت لا يهجم فى وقت مخصوص وحال مخصوص وسن مخصوص فلا بد من هجومه فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا وأنت تعلم

عينه النظر الى ما لا يعنيه من حرام أو فضول والاذن الاستماع اليه واللسان التكلم والفرج الشهوة والرجل المشى اليه وان كان جائعا تسكون الاعضاء كلها ساكنة هادئة لا تطمع الى شئ من هذا ولا تنشط له ولقد قال الاستاذ أبو جعفر رحمه الله ان البطن عضو ان جاع هو شبع سائر الاعضاء يعنى تسكن فلا تطالبك بشئ وان شبع هو جاع سائر الاعضاء وجملة الامر ان أفعال الرجل واقواله على حسب طعامه وشرابه ان دخل الحرام خرج الحرام وان دخل الفضول خرج الفضول كأن الطعام بذر الافعال والافعال نبت تبدو منه الثالثة ان فى كثرة الاكل قلة الفهم والعلم فان البطنة تذهب الفطنة ولقد صدق الدارانى رحمه الله حيث قال اذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها فان الاكل يغير العقل وهذا أمر ظاهر علمه من اختبره الرابعة ان فى كثرة الاكل قلة العبادة فان الانسان اذا أكثر الاكل ثقل بدنه وغلبته عيناه وفترت اعضاؤه فلا يجئ منه شئ وان اجتهد الا النوم كالجيفة الملقاة ولقد قيل اذا كنت بطينا فعد نفسك زمينا ولقد ذكر عن يحيى عليه السلام ان ابليس بدا له وعليه معاليق فقال له يحيى ما هذه فقال هذه الشهوات التى أصيد بها ابن آدم فقال له هل تجد لى فيها شيأ قال لا الا انك شبعت ذات ليلة فثقلناك عن الصلاة قال يحيى عليه السلام لا جرم انى لا أشبع بعدها أبدا قال ابليس لا جرم انى لا انصح بعدها أحدا أبدا فهذه فيمن لم يشبع فى عمره الا ليلة فكيف بمن لا يجوع فى عمره ليلة ثم يطمع فى العبادة وقال سفيان رحمه الله العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلتها المجاعة الخامسة ان فى كثرة الاكل فقد حلاوة العبادة (قال) أبو بكر الصديق رضى الله عنه ما شبعت منذ أسلمت لاجد حلاوة عبادة ربى وما رويت منذ أسلمت اشتياقا الى لقاء ربى وهذه صفات المكاشفين فكان أبو بكر رضى الله عنه مكاشفا واليه أشار صلى الله عليه وسلم بقوله ما فضلكم أبو بكر بفضل صوم ولا صلاة وانما هو بشئ وقر فى نفسه وقال الدارانى أحلى ما تكون العبادة اذا التزق بطنى بظهرى السادسة ان فيه خطر الوقوع فى الشبهة والحرام لان الحلال لا يأتيك الا قوتا ولقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحلال لا يأتيك الا قوتا والحرام يأتيك جزافا جزافا السابعة ان فيه شغل القلب والبدن بتحصيله أولا وبتهيئته ثانيا ثم بأكله ثالثا ثم بالفراغ عنه والتخلص رابعا ثم بالسلامة منه خامسا بأن تبدو منه آفة فى البدن بل آفات وعلل فى الدين ولقد قال صلى الله عليه وسلم أصل كل داء البردة يعنى التخمة وأصل كل دواء الازمة يعنى الجوع والحمية وعن مالك بن دينار انه كان يقول يا هؤلاء لقد اختلفت الى الخلاء حتى استحييت من ربى بسبب كثرة الاكل فياليت ان الله جعل رزقى فى حصاة أمصها حتى أموت ثم لا بد فى هذا الجملة من طلب الدنيا والطمع الى الناس وتضييع الوقت بسبب كثرة الاكل ما لم يخف الثامنة ما يناله من أمور الآخرة وشدة سكرات الموت (وروى) فى الاخبار أن شدة سكرات الموت على قدر لذات الدنيا فمن أكثر من هذا أكثر له من تلك التاسعة نقصان الثواب فى العقبى قال الله تعالى أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون فانه بقدر ما تأخذ من لذات الدنيا ينقص لك من لذات الآخرة ولهذا المعنى ان الله تعالى لما عرض الدنيا على نبينا صلى الله عليه وسلم قال له ولا ننقصك من آخرتك شيأ خصه بذلك فدل على ان لغيره النقصان الا أن يتفضل الله عليه بذلك (ولقد روى) ان خالد بن الوليد أضاف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهيأ له طعاما فقال عمر هذا لنا فما للفقراء المهاجرين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير قال خالد لهم الجنة يا أمير المؤمنين قال عمر لئن فازوا بالجنة وكان هذا حظنا من الدنيا فقد بانوا منا بونا مبينا وروى ان عمر رضى الله عنه عطش يوما فدعا بماء فأعطاه رجل اداوة فيها ماء نبذ فيه تمرات فلما قربها عمر من فيه وجد الماء باردا حلوا فامسكه وقال أوه فقال الرجل والله ما ألوته حلاوة يا أمير المؤمنين فقال عمر رضى الله عنه ذلك الذى منعنى منه وحسك لولا الآخرة لشاركناكم فى عيشكم العاشرة الحبس والحساب واللوم والتعيير فى ترك الادب فى أخذ الفضول وطلب الشهوات فان الدنيا حلالها حساب وحرامها

الا ان لا تبقى فيها الا مدة يسيرة ولعله لم يبق من أجلك الا يوم واحد أو نفس واحد فقدر هذا فى قلبك كل يوم وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يوما يوما فانك لو قدرت البقاء خمسين سنة وألزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نفرت واستعصت عليك فان فعلت ذلك فرحت عند الموت فرحا لا آخر له وان سوفت وتساهلت جاءك الموت فى وقت لا تحتسبه وتحسرت تحسرا لا آخر له وعند الصباح يحمد القوم السرى وعند الموت يأتيك خبر العقبى ولتعلمن نبأه بعد حين واذ أرشدناك الى ترتيب الاوراد فانذكر لك كيفية الصلاة والصوم وآدابهما وآداب القدوة والجماعة والجمعة

(آداب الصلاة)

فاذا فرغت من طهارة الخبث وطهارة الحدث فى البدن والثياب والمكان ومن ستر العورة من السرة الى الركبة فاستقبل القبلة قائما مفرجا بين قدميك بحيث لا تضمهما واستو قائما ثم اقرأ قل أعوذ برب الناس تحصنا بها من الشيطان الرجيم وأحضر قلبك وفرغه من الوسواس وانظر بين يدى من تقوم ومن تناجى واستح ان تناجى مولاك بقلب غافل وصدر مشحون بوسواس الدنيا وخبائث الشهوات

عقاب ونزيتها الى ثياب فهذه جملة العشرة وفي احدها كفاية لمن نظر لنفسه فعليك أيها المجتهد بالاحتياط البالغ في القوت كي لا تقع في حرام أو شبهة فيلزمك العذاب ثم بالاقتصار من الحلال على ما يكون عدة على عبادة الله تعالى فلا تقع في شر فتبقى في الحبس والله ولي التوفيق (فان قلت) فبين لنا أولا حكم الحرام والشبهة وحدهما (فأقول) لعمر الله لقد أشبعنا القول فيه في أسرار معاملات الدين وذكرناه كتابا مفردا في كتاب الاحياء لكنا نشير الى كلمات مفردة بحيث تصل الى فهم الضعيف المبتدي اذ مقصود هذا الكتاب ان ينتفع به المبتدي في العبادة وبعين الطالب قال بعض العلماء كل ما تيقنت كونه ملكا للغير منهيا عنه في الشرع فهو حرام محض وأما اذا لم يكن لك يقين بذلك ولكن يغلب على ظنك انه كذلك فهو شبهة وقال آخرون بل الحرام المحض ما يكون به علم أو غالب ظن لان غالبة الظن مما تجري مجرى العلم في كثير من الاحكام فاما اذا تساوت الامارتان حتى تبقى شاكا لا يكون لاحدهما ترجح عندك فذلك شبهة يشبه انه حلال ويشبه انه حرام فاشتبه أمره عليك والتبس حاله ثم الامتناع عن الذي هو حرام محض حتم واجب وعن الذي هو شبهة تقوى وورع وهذا أولى القولين عندنا (فان قيل) فما تقول في قبول جوائز السلاطين في هذا الزمان (فاعلم) ان العلماء اختلفوا فيه فقال قوم كل ما لا يتيقن أنه حرام فله أخذه وقال آخرون لا يحل ان يأخذ ما لا يتحقق انه حلال لان الاغلب في هذا العصر على أموال السلاطين الحرام والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز وقال قوم ان صلات السلاطين تحل للغني والفقير اذا لم يتحقق انها حرام وانما التبعة على المعطي قالوا لان النبي صلى الله عليه وسلم قبل هدية المقوقس ملك الاسكندرية واستقرض من اليهودي مع قول الله سبحانه أكالون للسحت قالوا وقد أدرك جماعة من الصحابة أيام الظلمة وأخذوا منهم منهم أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين وقال آخرون لا يحل من أموالهم شيء لغني ولا لفقير اذ هم موسومون بالظلم والغالب على مالهم السحت والحرام والحكم للغالب فيلزم الاجتناب وقال آخرون ما لا يتيقن أنه حرام فهو حلال للفقير دون الغني الا أن يعلم الفقير أن ذلك عين الغصب فليس له ان يأخذه الا يرده على مالكه ولا حرج على الفقير أن يأخذ من أموال السلطان لانه ان كانت ملك السلطان فاعطى الفقير فله أخذه بلا ريب وان كانت من فيء أو خراج أو عشر فللفقير فيه حق وكذلك لاهل العلم قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه من دخل الاسلام طائعا وقرأ القرآن ظاهرا فله في بيت مال المسلمين كل سنة مائتا درهم وروي مائتا دينار ان لم يأخذها في الدنيا أخذها في الآخرة واذا كان كذلك فالفقير والعالم يأخذان من حقهما قالوا واذا كان المال مختلطا بمال مغصوب لا يمكن تمييزه أو غصبا لا يمكن رده على صاحبه وذريته فلا خلاص للسلطان منه الا بأن يتصدق به وما كان الله ليأمره بالصدقة على الفقير وينهى الفقير عن قبولها أو يأذن للفقير في القبول وهو عليه حرام فاذن للفقير أن يأخذ الا عين الغصب والحرام فليس له أخذه وهذه المسائل لا يمكن الفتوى فيها الا ببسط وتشقيق واستيعاب القول فيها يخرج عن المقصود من الكتاب فان أردت معرفتها فطالع كتاب الحلال والحرام من كتاب احياء علوم الدين الذي صنفناه تجده مشروحا مبينا ان شاء الله تعالى (فان قيل) فما تقول في صلات أهل السوق وغيرهم هل يلزم ردها والبحث عنها وقد علمت مجازفتهم وقلة نظرهم في معاملاتهم وكذلك صلات الاخوان (فالجواب) أنه اذا كان ظاهر الانسان الصلاح والستر فلا حرج عليك في قبول صلته وصدقته ولا يلزم البحث بأن تقول قد فسد الزمان فان هذا سوء ظن بذلك الرجل المسلم بل حسن الظن بالمسلمين مأمور به (ثم اعلم) ما هو الاصل في هذا الباب وهو أن ههنا شيئين أحدهما حكم الشرع وظاهره والثاني حكم الورع وحقه فحكم الشرع ان تأخذ ما أتاك ممن ظاهره صلاح ولا تسأل الا ان تتيقن انه غصب أو حرام بعينه وحكم الورع أن لا تأخذ شيأ من أحد حتى تبحث عنه غاية البحث وتستقصي غاية الاستقصاء فتستيقن انه لا شبهة فيه بحال والا فترده فلقد روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ان غلاما له أتاه بلبن فشرب به فقال الغلام كنت اذا جئتك بشيء تسألني عنه ولم تسألني عن

واعلم أن الله تعالى مطلع على سريرتك وناظر الى قلبك فانما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك وتواضعك وتضرعك واعبده في صلاتك كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك فان لم يحضر قلبك ولم تسكن جوارحك فهذا لقصور معرفتك بجلال الله تعالى فقدر أن رجلا صالحا من وجوه أهل بيتك ينظر اليك ليعلم كيف صلاتك فعند ذلك يحضر قلبك وتسكن جوارحك ثم ارجع الى نفسك فقل يا نفس السوء ألا تستحيين من خالقك ومولاك اذ قدرت اطلاع عبد ذليل من عباده ما طلع عليك وليس بيده نفعك ولا ضرك خشعت جوارحك وحسنت صلاتك ثم انك تعلمين أنه مطلع عليك ولا تخشعين لعظمته أهو تعالى عندك أقل من عبد من عباده فما أشد طغيانك وجهلك وما أعظم عداوتك لنفسك فعالج قلبك بهذه الحيل فعساه أن يحضر معك في صلاتك فانه ليس لك من صلاتك الا ما عقلت منها وأما ما أتيت به مع الغفلة والسهو فهو الى الاستغفار والتكفير أحوج فاذا حضر قلبك فلا تترك الاقامة وان كنت وحدك وان انتظرت حضور جماعة غيرك فاذن ثم أقم فاذا أقمت

هذا اللبن فقال وما قصته فقال رقيت قوما في الجاهلية فأعطوني هذا فتقيأه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقال اللهم هذه مقدرتي فما بقي في العروق فأنت حسيبه فهذا يدلك على وجوب البحث عما تقدم عليه ان كان لك نظر في الورع وحقه فهذه هذه فان قلت فكان الورع يخالف الشرع وحكمه فاعلم ان الشرع موضوع على اليسر والسماحة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة والورع موضوع على التشديد والاحتياط كما قيل الامر على المتقي أضيق من عقد التسعين ثم الورع من الشرع أيضا وكلاهما في الاصل واحد ولكن للشرع حكمان حكم الجواز وحكم الافضل الاحوط فالجائز يقال له حكم الشرع والافضل الاحوط يقال له حكم الورع فهما مع تميزهما واحد في الاصل فافهم ذلك راشدا ان شاء الله تعالى فان قلت فاذا جاز البحث والاستقصاء عن كل شئ فسد علينا ما نأخذه في هذا الزمان وتعذر الامر جدا على صاحب الورع اذ لابد له من بلاغ يبلغه الى الطاعة فاعلم ان طريق الورع شديد وان من قصد سلوكه يشترط ان يوطن نفسه وقلبه على احتمال الشدة والا فلا يتم له ذلك ولهذا المعنى سار الكثير من أهل الورع والسابقون الى جبل لبنان وغيره فاقتصروا على أكل الحشيش وثمرات تافهة لا شبهة فيها بحال فمن سمت همته الى نيل منزلة الورع الاعلى فعليه أن يحتمل الشدائد ويصبر عليها ويسلك طريق أولئك لينال منزلتهم وأما ان أقام بين الناس وأكل مما يتداولونه في أيديهم فليكن عنده بمنزلة الميتة لا يقدم عليها الا عند الضرورة ثم لا يتناول منها الا بمقدار ما يبلغه الى الطاعة فيكون له عذر في ذلك ولا يضره وان كان في أصله شبهة فان الله تعالى أولى بالعذر ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله فسد السوق فعليكم بالقوت ولقد بلغني عن وهيب بن الورد رحمه الله انه كان يجوع نفسه يوما أو يومين أو ثلاثة ثم يأخذ رغيفا ويقول اللهم انك تعلم أني لا أقوى على العبادة وأخشى الضعف والالم آكله اللهم ان كان فيه شئ من خبث او حرام فلا تؤاخذني به ثم يبل الرغيف بالماء فيأكله (قلت) فهذان الطريقان للطبقة العليا من أهل الورع فيما نعلمه وأما من دونهم فلهم احتياط وبحث على مقدار ولهم أيضا نصيب من الورع على مقدار وبقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا وهو عليم بما يفعلون (فان قيل) فهذا جانب الحرام فأخبرنا عن جانب الحلال وما حد الفضول الذي يلزم منه الحبس والحساب وما المقدار الذي اذا أخذه العبد يكون ذلك أدبا ولا يكون فضولا ولا عليه فيه حبس ولا حساب (يقال له فاعلم) أن أحوال المباح في الجملة ثلاثة أقسام * أحدها ان يأخذه العبد مفاخرا مكاثرا مباهيا مرائيا فيكون الاخذ منه فعلا منكرا يستوجب على ظاهر فعله الحبس والحساب واللوم والتعيير وهو منكر وشر يستوجب على باطن فعله وهو التكاثر والتفاخر عذاب النار وذلك القصد منه معصية وذنب لقوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة الى قوله وفي الآخرة عذاب شديد وقال النبي عليه السلام من طلب الدنيا حلالا مباهيا مكاثرا مفاخرا مرائيا لقي الله تعالى وهو عليه غضبان فالوعيد على قصده ذلك بقلبه * والقسم الثاني ان يأخذ الحلال لشهوة نفسه لا غير فذلك منه شر يستوجب عليه الحبس والحساب لقوله تعالى ثم لتسألن يومئذ عن النعيم وقال عليه الصلاة والسلام حلالها حساب * والقسم الثالث ان يأخذ من الحلال في حال العذر قدرا يستعين به على عبادة الله تعالى ويقتصر على ذلك فذلك منه خير وحسنة وأدب لا حساب عليه ولا عقاب بل يستوجب عليه الاجر والمدحة لقوله تعالى أولئك لهم نصيب مما كسبوا وقال صلى الله عليه وسلم من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسئلة وتعطفا على جاره وسعيا على عياله جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر وذلك لما قصد به هذا المقصود المحمود لله سبحانه فهذه هذه فاعلمها (فان قيل) فما شرط المباح حتى يصير خيرا وحسنة كما ذكرتم (فاعلم) انه يحتاج في كونه خيرا في الاصل الى شرطين أحدهما الحال والثاني القصد فالحال يجب أن يكون في حال عذر وهو بحيث ان لم يأخذ منه تأخذ نفسه وتقسيره أن يكون حاله ان لم يأخذ ذلك المباح ينقطع بسببه عن فرض أو سنة أو نفل فيكون ذلك أفضل من ترك المباح فان ترك مباح الدنيا فضيلة فاذا كان الحال كذلك فهو حال العذر وأما القصد فهو

فائز وقل في قلبك أؤدي فرض الظهر لله تعالى وليكن ذلك حاضرا في قلبك عند تكبيرك لا تعزب عنك النية قبل الفراغ من التكبير وارفع يديك عند التكبير بعد ارسالهما أولا الى منكبيك وهما مبسوطتان وأصابعهما منشورة ولا تتكلف ضمهما ولا تفريقهما وارفع يديك بحيث تحاذي بابهاميك شحمتي اذنيك ورؤس أصابعك أعالي أذنيك وتحاذي بكفيك منكبيك فاذا استقرتا في مقرهما فكبر ثم أرسلهما برفق ولا تدفع يديك عند الرفع والارسال الى قدام دفعا ولا الى خلف رفعا ولا تنفضهما يمينا ولا شمالا فاذا أرسلتهما فاستأنف رفعهما الى صدرك وأكرم اليمنى بوضعها على الشمال وانشر أصابع اليمنى على طول ذراعك اليسرى واقبض بها على كوعها وقل بعد التكبير الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثم اقرأ وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين الآيتين الى آخرهما ثم قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم اقرأ الفاتحة بتشديداتها واجتهد في الفرق بين الضاد والظاء في قراءتك في الصلاة وقل آمين ولا تصله بقولك ولا

أن يقصد به العدة والاستعانة على عبادة الله سبحانه وهو أن يذكر بقلبه انه لولا ما فيه من التوصل الى عبادة الله سبحانه لما أخذت ذلك فهذا ذكر الحجة فلما حصل ذكر الحجة في حال العذر صار ذلك الاخذ من الدنيا الحلال خيرا وحسنة وأدبا وأما لو كان حاله حال العذر ولا يكون له هذا القصد والذكر أو يكون له هذا القصد والذكر ولا يكون في حال العذر فلا يصير ذلك الاخذ من جملة الخيرات ثم الاستقامة على حفظ هذا الادب تحتاج الى بصيرة وقصد مجمل بأنه لا يأخذ من الدنيا الا للعدة على عبادة الله تعالى حتى انه ان سها عن ذكر الحجة في حال أخذه ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة قال شيخنا رحمه الله فصارت الامور الثلاثة معتبرة فيه كل واحد من وجه يعني ان الذكر والحال معتبران في حصول كونه خيرا أصلا والقصد المجمل المقتضى عن بصيرة بمنزلة الادب معتبر في الاستقامة عليه فافهم ذلك راشدا (فان قيل) فان أخذ من الدنيا الحلال بشهوة فهل يكون ذلك معصية وهل يلزم عليه عذاب وهل الاخذ بالعذر فرض أم لا (فاعلم) ان ذلك فضيلة ونسميه خيرا وحسنة والامر به أمر تأديب والاخذ بالشهوات شر وسيئة والنهي عنه نهي زجر وأدب وليس ذلك بمعصية ولا يكون عليه عذاب النار وانما عليه الحبس والحساب واللوم والتعيير (فان قلت) فما هذا الحبس والحساب اللذان يلزمان العبد (فاعلم) أن الحساب أن تسئل يوم القيامة عماذا اكتسبت وفيماذا أنفقت وماذا أردت بذلك والحبس حبس عن الجنة مدة الحساب وذلك في عرصات القيامة بين أهوالها ومخاوفها عراة جياعا عطاشا وكفى بذلك بلية (فان قيل) فاذا قد أحل الله لنا هذا الحلال فاللوم والتعيير في أخذه لماذا (فاعلم) أن اللوم والتعيير لتركه الادب كمن أجلس على مائدة الملك فترك الادب فانه يعير بذلك ويلام وان كان الطعام له مباحا فالاصل في هذا الباب ان الله تعالى خلق العبد لعبادته وهو عبد لله تعالى من كل وجه فحق للعبد أن يعبد الله تعالى من كل وجه يمكنه ويجعل أفعاله كلها عبادة من أي وجه أمكنه فان لم يفعل ذلك وآثر شهوة نفسه واشتغل بذلك عن عبادة ربه مع تمكنه من ذلك من غير تعذر والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة فيستحق اللوم بذلك والتعيير من سيده فتأمل هذا الاصل راشدا ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فهذه الجملة التي أردنا بيانها في اصلاح النفس والجامها بلجام التقوى فارعها حقها واحتفظ بها جهدك تفز بالخير الكثير في الدارين ان شاء الله تعالى والله ولي العصمة والتوفيق بفضله

* (فصل) * فعليك أيها الرجل ببذل المجهود في قطع هذه العقبة العظيمة الطويلة فانها أعظم العقبات شدة وأكثرها مؤنة وأكبرها آفة وفتنة فان من هلك من الخلق كلهم انما انقطعوا عن طريق الحق اما بسبب دنيا أو خلق أو شيطان أو نفس ولقد ذكرنا في كتبنا المصنفة من كتاب الاحياء والاسرار والقربة الى الله ما يبعث على الاهتمام بذلك ومقصود هذا الكتاب أني سألت الله أن يطلعني على سر معالجة النفس وأن يصلحني ويصلح بي فاقتصرت في هذا الكتاب الشريف على نكت وجيزة اللفظ غزيرة المعنى تنتفع من تأملها وتدعه على واضحة من الطريق ان شاء الله تعالى وهذا الفصل يختص بنكت في معالجة الدنيا والخلق والشيطان والنفس (أما الدنيا) فحق لك أن تحذرها وتزهد فيها لان الامر لا يخلو من ثلاثة اما أنت من ذوي البصائر والفطن فحسبك ان الدنيا عدوة الله سبحانه وهو حبيبك ووليك وان الدنيا مبغضة عقلك والعقل قيمتك واما أنت من ذوي الهمم والاجتهاد في عبادة الله تعالى فحسبك أن الدنيا بلغ من شؤمها ما يمنعك من ارادتها وتشغلك الفكرة فيها عن العبادة والخير فكيف نفسها واما أنت من أهل الغفلة لا بصيرة لك تبصر الحقائق ولا همة لك تبعث على المكارم فحسبك ان الدنيا لا تبقى اما أن تفارقها واما أن تفارقك كما قال الحسن ان بقيت لك الدنيا لم تبق لها فأي فائدة لك اذن في طلبها وانفاق العمر العزيز عليها ولقد أحسن القائل

هب الدنيا تساق اليك عفوا * أليس مصير ذلك الى زوال

فما ترجو بعيش ليس يبقى * وشيكا قد تغيره الليالي

الضالين وصلا واجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء أعني الركعتين الاوليين الا ان تكون مأموما واجهر بالتأمين واقرأ في الصبح بعد الفاتحة من السور طوال المفصل وفي المغرب من قصاره وفي الظهر والعصر والعشاء من أوساطه نحو والسماء ذات البروج وما قاربها من السور * وفي الصبح في السفر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ولا تصل آخر السورة بتكبيرة الركوع ولكن افصل بينهما بمقدار سبحان الله وكن في جميع قيامك مطرقا قاصرا نظرك على مصلاك فذلك أجمع لهمك وأجدر لحضور قلبك واياك أن تلتفت يمينا وشمالا في صلاتك * ثم كبر للركوع وارفع يديك كما سبق ومد التكبير الى انتهاء الركوع ثم ضع راحتيك على ركبتيك وأصابعك منشورة وانصب ركبتيك ومد ظهرك وعنقك ورأسك مستويا كالصفيحة الواحدة وجاف مرفقيك عن جنبيك والمرأة لا تفعل ذلك بل تضم بعضها الى بعض وقل سبحان ربي العظيم وبحمده وان كنت منفردا فالزيادة الى السبع والعشر حسن ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما وارفع يديك قائلا سمع الله لمن حمده فاذا استويت

وماذا بالك الامتثل طل * أطالت ثم آذن بارتحال

فلا ينبغى للعاقل اذا أن يخدع بها ولقد صدق القائل فيما قال

أحلام نوم أو كظل زائل * ان اللبيب بمثلها لا يخدع

(وأما) الشيطان فحسبك فيه ما قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون (فهذا) خير العالمين وأعلمهم وأعقلهم وأفضلهم عند الله تعالى يحتاج مع ذلك أن يستعيذ بالله من شر الشيطان فكيف بك مع جهالتك ونقصانك وغفلتك (وأما) الخلق فحسبك فيهم أنك لو خالطتهم ووافقتهم فى أهوائهم أثمت وأفسدت أمر آخرتك وان خالفتهم تعبت بأذياتهم وجفواتهم وكدرت عليك أمر دنياك ثم لا تأمن أن يجرك الى معاداتهم ومناواتهم فتقع فى شرهم ولانهم ان مدحوك وعظموك أخاف عليك الفتنة والعجب وان ذموك وحقروك أخاف عليك الحزن تارة والغضب لغير الله تعالى أخرى وكان الامرين آفة مهلكة ثم اذكر حالك معهم بعد ما صرت فى القبر بثلاثة أيام كيف يتركونك ويهجرونك وينسونك ولا يكادون يذكرونك كأنك لم ترهم يوما ولم يروك فلا يبقى هنالك الا الله سبحانه أفلا يكون من الغبن العظيم أن تضيع أيامك مع هؤلاء الخلق مع قلة الوفاء وقلة البقاء معهم وتترك خدمة الله تعالى الذى يرجع اليه الامر وحده فلا يبقى لك الا هو أبد الآبدين والحاجات كلها اليه والتكلان كله عليه والاعتصام كله فى كل حال وعند كل شدة وهول به وحده لا شريك له فتأمل يا مسكين لعلك ترشد ان شاء الله تعالى والله ولى الهداية بفضله (وأما) النفس فحسبك ما تشاهده من حالاتها ورداءة ارادتها وسوء اختيارها فهى فى حال الشهوة بهيمة وفى حال الغضب سبع وفى حال المصيبة تراها طفلا صغيرا وفى حال النعمة تراها فرعونا وفى حال الجوع تراها مجنونا وفى حال الشبع تراها مختالا ان أشبعتها بطرت ومرحت وان جوعتها صاحت وجزعت فهى كما قال القائل

كحمار السوء ان أشبعته * رمح الناس وان جاع نهق

(ولقد صدق) بعض الصالحين حيث قال ان من رداءة هذه النفس وجهلها بحيث اذا همت بمعصية أو انبعثت لشهوة فلو تشفعت اليها بالله سبحانه ثم برسوله عليه السلام وبجميع أنبيائه وبكتابه وبجميع السلف الصالح من عباده وتعرض عليها الموت والقبر والقيامة والجنة والنار لا تعطى الانقياد ولا تترك الشهوة ثم ان استقبلتها بمنع رغيف تسكن وتترك شهوتها لتعلم خستها وجهلها فاياك أيها الرجل أن تغفل عنها فانها كما قال خالقها العالم بها جل جلاله ان النفس لامارة بالسوء فكفى بهذا تنبيها لمن عقل (ولقد بلغنا) عن بعض الصالحين يقال له أحمد بن أرقم البلخى رحمه الله انه قال نازعتنى نفسى بالخروج الى الغزو فقلت سبحان الله ان الله يقول ان النفس لامارة بالسوء وهذه تأمرنى بالخير لا يكون هذا أبدا ولكنها استوحشت فتريد لقاء الناس لتستروح اليهم ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالتعظيم والبر والاكرام فقلت لها لا أنزلك العمران ولا أنزلك على معرفة فأجابت فأسأت الظن بها وقلت الله تعالى أصدق القائلين فقلت لها أقاتل العدو حاسرا فتكونين أول قتيل فأجابت فأسأت الظن بها وعدد أشياء مما أرادها فأجابت الى كل ذلك قال فقلت يا رب نبهنى لها فانى متهم لها ومصدق لك فكوشفت بها كأنها تقول يا أحمد أنت تقتلنى كل يوم بمنعك اياى من شهواتى مرات ولا يشعر به أحد فان قاتلت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقولون استشهد أحمد ويكون لى شرف وذكر قال فقعدت ولم أخرج الى الغزو فى ذلك العام فانظر الى خداع النفس وغرورها تراءى الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد ولقد صدق القائل وأحسن فيما قال

توق نفسك لا تأمن غوائلها * فالنفس أخبث من سبعين شيطانا

(فتنبه رحمك الله) لهذه الخداعة الامارة بالسوء ووطن على مخالفتها قلبك بكل حال تصب وتسلم ان شاء الله تعالى ثم عليك بالجامها بلجام التقوى لا حيلة لها سواه (واعلم) ان ههنا أصلا أصيلا وهو ان العبادة شطران

فاعتدل قائلا ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما شئت من شىء بعد وان كنت فى فريضة الصبح فاقرأ القنوت فى الركعة الثانية فى اعتدالك من الركوع ثم اسجد مكبرا غير رافع اليدين وضع أولا على الارض ركبتيك ثم يديك ثم جبهتك مكشوفة وضع انفك مع الجبهة وجاف مرفقيك عن جنبيك وأقل بطنك عن فخذيك والمرأة لا تفعل ذلك وضع يديك على الارض حذو منكبيك ولا تفرش ذراعيك على الارض وقل سبحان ربى الاعلى ثلاثا أو سبعا أو عشرة ان كنت منفردا * ثم ترفع من السجود مكبرا حتى تعتدل جالسا واجلس على رجلك اليسرى وانصب قدمك اليمنى وضع يديك على فخذيك والاصابع منشورة وقل رب اغفر لى وارحمنى وارزقنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى ثم اسجد سجدة ثانية كذلك ثم اعتدل جالسا جلسة الاستراحة فى كل ركعة لا تشهد عقبها ثم تقوم وتضع اليدين على الارض ولا تقدم احدى رجليك فى حالة الارتفاع وابتدئ بتكبيرة الارتفاع عند القرب من حد جلسة الاستراحة ومدها الى منتصف ارتفاعك الى القيام ولتكن

شطر الاكتساب وشطر الاجتناب فالاكتساب فعل الطاعات والاجتناب الامتناع من المعاصي والسيئات وهو التقوى وان شطر الاجتناب على كل حال أسلم وأصلح وأفضل وأشرف للعبد من شطر الاكتساب ولذلك يشتغل المبتدؤن من أهل العبادة الذين هم في أول درجة من الاجتهاد بشطر الاكتساب كل همتهم أن يصوموا نهارهم ويقوموا ليلهم ونحو ذلك ويشتغل المنتهون أولوا البصائر من أهل العبادة بشطر الاجتناب انما همتهم أن يحفظوا قلوبهم عن الميل الى غير الله تعالى وبطونهم عن الفضول وألسنتهم عن اللغو وأعينهم عن النظر الى مالا يعنيهم ولهذا المعنى قال العابد الثاني من العباد وكانوا سبعة ليونس يا يونس ان من الناس من حبب اليهم الصلوات فلا يؤثرون عليها شيأ وهي عمود العبادة بالثبات لله والصدق والتضرع والابتهال ومنهم من حبب اليهم الصوم فلا يؤثرون عليه شيأ ومنهم من حبب اليهم الصدقة فلا يؤثرون عليها شيأ يا يونس وأنا مفسر لك هذه الخصال فاجعل طول صلاتك الصبر على البأساء والتسليم لامر الله عز وجل واجعل صومك الصمت عن كل سوء واجعل صدقتك كف الاذى فانك لا تتصدق بشيء أفضل منه ولا تصوم بشيء أزكى منه فاذا علمت ان جانب الاجتناب أولى بالرعاية والاجتهاد فيه فان حصل لك الشطران جميعا الاكتساب والاجتناب فقد استكمل أمرك وحصل مرادك وقد سلمت وغنمت وان لم تبلغ الا الى أحدهما فليكن ذلك جانب الاجتناب فتسلم ان لم تغنم والا خسرت الشطرين جميعا وما ينفعك قيام ليل وتعبه ثم تحبطه بارادة واحدة وما يغنيك صيام نهار طويل ثم تفسده بكلمة واحدة (ولقد روينا) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له ما تقول في رجلين أحدهما كثير الخير كثير الشر والآخر قليل الخير قليل الشر قال لا أعدل بالسلامة شيأ (ومثال ما قلناه) حال المريض وذلك ان معالجة المريض نصفان نصف هو الدواء ونصف هو الاحتماء فان اجتمعا فكأنك بالمريض قد برئ وصح والا فالاحتماء به أولى اذ لا ينفع دواء مع ترك الاحتماء ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء (ولقد قال) صلى الله عليه وسلم أصل كل دواء الحمية والمعنى بها والله أعلم انها تغني عن كل دواء ولذا يقال ان أهل الهند جل معالجتهم الحمية يمنع المريض عن الاكل والشرب والكلام عدة أيام فيبرأ أو يصح بذلك لا غير فتبين لك بهذه الجملة أن التقوى ملاك الامر وجوهره وأهلها هم الطبقة العليا من العباد فعليك ببذل المجهود في ذلك وصرف كل العناية الى ذلك والله سبحانه ولي التوفيق برحمته

(فصل) ثم راع هذه الاعضاء الاربعة التي هي الاصول الاول العين وحسبك فيها ان مدار امر الدين والدنيا على القلب وان خطر القلب وشغله وفساده في الاكثر من العين ولذلك قال علي رضي الله عنه من لم يملك عينه فليس للقلب عنده قيمة والثاني اللسان وحسبك ان فيه ربحك وغنيمتك وثمرة تعبك واجتهادك كله للعبادة والطاعة وان خطر العبادة واحباطها وافسادها في الاكثر من قبل اللسان بالتصنع والتزين والغيبة ونحوها يذهب عليك بلفظة واحدة ما تعبت فيه سنة واحدة بل خمسا وعشرا ولذلك قيل ما شيء أحق بطول السجن من اللسان (وفيما روى) أن أحد العباد السبعة قال ليونس عليه السلام يا يونس ان العباد اذا اجتهدوا في العبادة لم يتقووا على عبادتهم بشيء أفضل من الصبر عن ترك الكلام في فصل طويل ثم عاد الى ذلك فقال ولا يكونن عندك شيء آثر من حفظ لسانك ولا تكونن لشيء أعنى به من سلامة صدرك فهذه هذه (ثم اذكر) الانفاس التي تكلمت فيها بفضول ما كان يضرك لو قلت أستغفر الله فربما وافق ساعة عزيزة فيغفر الله لك فتربح رأس مالك أو قلت لا اله الا الله فيكون لك من الاجر والذخر ما لا يحيط به وهمك أو تقول أسأل الله العافية فربما يتفق حسن نظر فيستجيب الله تعالى دعوتك فتحوت من بلية الدنيا والآخرة الا يكون من الخسران العظيم والغبن الفظيع ان تفوت على نفسك كل هذه الفوائد الكريمة وتجعل نفسك ووقتك في فضول أقل ما يلزمك فيه اللوم والحساب والحبس يوم القيامة ولقد أحسن القائل في قوله

واذا ما هممت بالنطق في البا * طل فاجعل مكانه تسبيحا

هذه الجلسة جلسة خفيفة مختطفة وصل الركعة الثانية كالاولى وأعد التعوذ في الابتداء ثم اجلس في الركعة الثانية للتشهد الاول وضع اليد اليمنى في جلوسك للتشهد الاول على الفخذ اليمنى مقبوضة الاصابع الا المسبحة والابهام فترسلهما وأشر بمسبحة يمناك عند قولك الا الله لا عند لا اله وضع اليد اليسرى منشورة الاصابع على الفخذ اليسرى واجلس على رجلك اليسرى في هذا التشهد كما بين السجدتين وفي التشهد الاخير متوركا واستكمل الدعاء المعروف المأثور بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واجلس فيه على وركك الايسر وضع رجلك اليسرى خارجة من تحتك وانصب القدم اليمنى ثم قل بعد الفراغ السلام عليكم ورحمة الله مرتين من الجانبين والتفت بحيث يرى خدك من جانبك وانو الخروج من الصلاة وانو السلام على من على جانبيك من الملائكة والمسلمين وهذه هيئة صلاة المنفرد وعماد الصلاة الخشوع وحضور القلب مع القراءة والذكر بالفهم وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي الى العقوبة أسرع وقال صلى الله عليه وسلم ان

والثالث البطن وحسبك انه مقصود لك العبادة وان الطعام بذر العمل وماؤه منه يبدو وينبت واذا خبث البذر لا يطيب الزرع بل فيه خطران يفسد عليك أرضك فلا تفلح أبدا ومن ذلك ما بلغنا عن معروف الكرخي انه قال اذا صمت فانظر على أي شئ تفطر وعند من تفطر وطعام من تأكل فكم من يأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه فلا يعود الى حاله أبدا وكم من أكلة حرمت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة وان العبد ليأكل أكلة فيحرم بها قيام سنة فعليك ايها الرجل بالنظر الدقيق والاحتياط البالغ الشديد في قوتك ان كانت لك عناية بقلبك وهمة في عبادة ربك هذا في أصل القوت حتى يكون من وجهه ثم عليك بالادب فيه والا كنت حمالا للطعام مضيعا للايام اذ قد علمنا يقينا بل رأينا عيانا ان العبادة لا يجيء منها شئ اذا امتلأ البطن وان اكرهت النفس على ذلك وجاهدت بضروب الحيل فلا يكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة ولذلك قيل لا تطمع في حلاوة العبادة مع كثرة الاكل وأى نور في نفس بلا عبادة وفي عبادة بلا لذة ولا حلاوة ولهذا المعنى قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله صحبت أكثر رجال الله تعالى في جبل لبنان فكانوا يوصونني اذا رجعت الى أبناء الدنيا فعظهم بأربع خصال قل لهم من يكثر الاكل لا يجد لذة العبادة ومن ينم كثيرا لا يجد في عمره بركة ومن طلب رضا الناس فلا ينتظر رضا الرب ومن يكثر الكلام بالفضول والغيبة فلا يخرج من الدنيا على دين الاسلام (وعن سهل رحمه الله) أنه قال جماع الخير كله في هذه الخصال الاربع وبها صارت الابدال أبدالا اخماص البطون والصمت والاعتزال عن الخلق وسهر الليل (وقال) بعض العارفين الجوع رأس مالنا ومعناه أن ما يحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة وعلم وعمل نافع بسبب الجوع والصبر عليه لله سبحانه (وأما القلب) فحسبك أنه أصل الكل ان أفسدته فسد الكل وان أصلحته صلح الكل اذ هو الشجرة وسائر الاعضاء اغصان ومن الشجرة تشرب الاغصان وتصلح وتفسد وانه الملك وسائر الاعضاء تبع وأركان واذا صلح الملك صلحت الرعية واذا فسد فسدت الرعية فاذن صلاح العين واللسان والبطن وغيره دليل على صلاح القلب وعمرانه واذا رأيت فيه خللا وفسادا فاعلم ان ذلك من خلل في القلب وفساد وقع ثم بل الفساد فيه أكثر فاصرف عنايتك اليه فأصلحه يصلح الكل بمرة فتستريح ثم أمره دقيق عسير اذ هو مبني على الخواطر وهي ليست تحت يدك والامتناع من اتباعها جهد طاقتك ففيه أقصى المشقة ولهذا المعنى صار اصلاحه أشد على أهل الاجتهاد والاهتمام بأمره أكثر وأكبر عند ذوي البصائر (وعن أبي يزيد) رحمه الله انه قال عالجت قلبي عشرا ولساني عشرا ونفسي عشرا فكان قلبي أصعب الثلاثة فهذه هذه (ثم عليك بالاهتمام) بالخصال الاربع التي ذكرناها من الامل والعجلة في الامور والحسد والكبر وانما خصصنا هذه الاربعة من بين سائر الخصال في هذا الموضع وحضضنا على الاحتراس منها لانها على القراء خاصة اذ هي تعتري سائر الناس عموما والقراء خصوصا فتكون أقبح وأشنع ترى الرجل القارئ بطول الامل وبعد نية الخير فيوقعه في الكسل والتواني في العمل وتراه يستعجل في تحصيل منازل الخير فينقطع عنها أو في اجابة دعاء صالح فيحرم من ذلك أو في الدعاء على أحد بسوء فيندم على ذلك كما ذكر عن نوح عليه السلام وتراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله حتى ربما يبلغ منه ذلك مبلغا يحمله على قبائح وفضائح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر (ولهذا المعنى) قال سفيان الثوري رحمه الله ما أخاف على ديني الا القراء والعلماء فاستنكروا منه ذلك فقال ما أنا قلته انما قاله ابراهيم النخعي رحمه الله تعالى وعن عطاء قال قال لي الثوري رحمه الله احذروا القراء واحذروني معهم فلو خالفت أودهم لي في رمانة فأقول انها حلوة ويقول انها حامضة ما أمنته ان يسعى بدمي الى سلطان جائر وعن مالك بن دينار انه قال اني اقبل شهادة القراء على جميع الخلق ولا أقبل شهادة بعضهم على بعض لاني وجدتهم حسادا وعن الفضيل انه قال لابنه اشتر لي دارا بعيدة من القراء مالي وللقوم ان ظهرت مني زلة هتكوني وان ظهرت على نعمة حسدوني وكذلك تراه يتكبر على الناس ويستخف بهم مصعرا خده معبسا

العبد ليصلي الصلاة فلا يكتب له منها سدسها ولا عشرها وانما يكتب للعبد من صلاته بقدر ما عقل منها

*(آداب الامامة والقدوة)

ينبغي للامام ان يخفف الصلاة قال أنس رضي الله عنه ما صليت خلف أحد صلاة أخف ولا اتم من صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكبر ما لم يفرغ المؤذن من الاقامة وما لم تسو الصفوف ويرفع الامام صوته بالتكبيرات ولا يرفع المأموم صوته الا بقدر ما يسمع نفسه وينوي الامام الامامة لينال الفضل فان لم ينو صحت صلاة القوم اذا نووا الاقتداء به ونالوا فضل القدوة ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح وأولتي المغرب والعشاء وكذلك المنفرد ويجهر بقوله آمين في الجهرية وكذلك المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الامام معا لا تعقيبا له ويسكت الامام سكتة عقيب الفاتحة ليثوب اليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة في الجهرية في هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الامام ولا يقرأ المأموم السورة في الجهرية الا اذا لم يسمع صوت الامام ولا يزيد الامام على الثلاثة في تسبيحات الركوع

وجهــه كاغمـاغين على الناس بمـا يصلى زيادة ركعتين أو كانما جاءه من الله تعالى منشور بالجنة أو البراءة من النار أو كأنه استيفن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ثم مع ذلك يلبس لباس المتواضعين من صوف وغيره ويتماوت وهــذا لا يليق بالترفع والتكبر ولا يلائمه بل يناقضه ولكن الاعمى لا يبصر وذكر أن فرقدا السبخي دخل على الحسن وعليه كساء وعلى الحسن حلة فجعل يلمسها فقال الحسن مالك تنظر الى ثيابي ثيابي ثياب أهل الجنة وثيابك ثياب أهــل النار بلغني ان أكثر أهل النار أصحاب الاكسية ثم قال الحسن جعلوا الزهد في ثيابهم والكبر في صدورهم والذي يحلف به لاحدكم بكسائه أعظم كبرا من صاحب المطرف بمطرفه والى هــذا المعنى يشير ذو النون رحمه الله حيث قال

تصوف فازدهى بالصوف جهلا * وبعض الناس يلبسه مجانه
يريك مهانة ويريك كبرا * وليس الكبر من شكل المهانه
تصوف كي يقال له أمين * وما معنى تصوفه الامانه
ولم يرد الاله به ولكن * أراد به الطريق الى الخيانه

(فاحذر) أيها الرجل من هذه الآفات الاربع التي ذكرناها الاسيما الكبر فان الثلاث الاول مداحض لو زلت فيها لوقعت في العصيان والكبر مدحض لو زلت فيه لوقعت في بحار الكفر والطغيان ولا تنس حديث ابليس وقصته أنه أبى واستكبر وكان من الكافرين والرجوع الى الله عز وجل أن يعصمنا جميعا بحسن نظره انه الجواد الكريم

(فصــل) وجملة الامر انك اذا نظرت بعقلك أيها الرجل فعلمت ان الدنيا الابقاء لها وان نفعها الا يفي بضرها وتبعاتها من كد البدن وشغل القلب في الدنيا والعذاب الاليم والحساب الطويل في الآخرة الذى لا طاقــة لك به فاذا علمت ذلك حد زهدت في فضولها اذ لا تأخذ منها الا ما لا بد لك منه في عبادة ربك وتدع التنعم والتلذذ الى الجنة دار النعيم المقيم في جوار رب العالمين الملك القادر الغني الكريم وعلمت ان الخلق لا وفاء لهم وانه مؤنتهم أكثر من معونتهم فيما يعنيك وتركت مخالطتهم الا فيما لا بد لك منه تنتفع بخيرهم وتجتنب من ضرهــم وتجعل صحبتك ان لا تخسر في صحبته ولا تندم على خدمته وآنسك بكتابه وملازمتك اياه فيكون لك بكل حال وترى منه كل جميــل وافضال وتجده عند كل نائبة في الدنيا والآخرة كما قال عليه السلام احفظ الله تجــده حيث اتجهت وعلمت أن الشيطان خبيث قــد تجرد لعاداتك فاستعذ بربك القادر القاهر من هذا الكلب اللعين ولا تغفــل عن مكايده ومصايده فتطارده بذكر الله سبحانه ولا تعبأن بذلك فانه يسيرا ذا ظهرت منك عزمة الرجال وانه كما قال الله تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (ولقد صدق) أبو حازم فيما قال ما الدنيا وما ابليس أما الدنيا فما مضى منها فحلم وما بقي فأماني وأما الشــيطان فوالله لقد أطيع فما نفع واقــد عصى فما ضر وعلمت جهالة هــذه النفس وجماحها الى ما يضرها ويهلكها فنظرت اليها رحمــة لها نظر العقلاء والعلماء الذين ينظرون في العواقب لا نظر الجهال والصبيان الذين ينظرون في الحال ولا يفطنون لغائلة الاذى ويفرون من مرارة الدواء فألجمتها بلجام التقوى بان تمنعها عما لا تحتاج اليــه بالحقيقة من فضول كلام ونظر وطعام وتلبس بخصلة فاسدة من طول أمــل أو عجلة أو حسد مسلم أو تكبر في غــير موضع أو أكل بعض شــهوة وشره وتعطيها ما ليس لها منه بد ولا تخاف منه ضررا اذ لا ضرورة الى الفضول وقد وسع الله تعالى الامر على عباده برحمتــه واغناهــم عن جميع ما يضرهــم في أمر دينهــم فأي حاجة الى ذلك فان الامر كما قال بعض الصالحين ان التقوى أهون شيء اذا رابك شيء تركته فان النفس تستكين وتتعود ما عودتها وانها كما قال القائل

فالنفس راغبــة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليــل تقنع

(وقال آخر) * هي النفس ما حملتها تتحمل * وروى ما عودتها تتعود (وقال آخر)

والسجود ولا يزيد في التشهد الاول بعد قوله اللهم صــل على محمد وعلى آل محمــد ويقتصر في الركعتين الاخيرتين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد دعاءه في التشهد الاخير عــلى قدر تشهده وصلاته على رسول الله صلى الله عليــه وســلم وينوي الامام عند التسليم السلام على القوم وينوي القوم بتسليمهم جوابه ويلبث الامام ساعة بعــد ما يفرغ من السلام ويقبل عــلى الناس بوجهه ولا يلتفت ان كان خلفه النساء لينصرفن أولا ولا يقوم أحد من القوم حتى يقوم الامام وينصرف الامام حيث شاء عن يمينه أو شمــاله واليمين أحب اليه ولا يخص الامام نفســه بالدعاء في قنوت الصبح بل يقول اللهم اهدنا ويجهر به ويؤمن القوم ولا يرفعون أيديهــم اذ لم يثبت ذلك في الاخبار ويقرأ المأموم بقية القنوت من قوله انك تقضي ولا يقضى عليــك ولا يقف المأموم وحــده بل يدخل الصف أو يجر الى نفسه غيره ولا ينبغي للمأموم ان يتقدم عــلى الامام في أفعاله أو يساويه بل ينبغي ان يتأخر ولا يهوي للــركوع الا اذا انتهى الامام الى حد الركوع ولا يهوي للسجود ما لم تصل جبهــة الامام الى الارض

صبرت عن اللذات حتى تولت * والزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان أطعمت تاقت والا تسلت

فاذا تملكت الذي وصفناه كنت من الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة (واعلم) ان من سمي باسم الزاهد فلقد سمي بألف اسم محمود ومدح وكنت من المنفردين المنقطعين الى الله سبحانه الذين هم أهل الانس وخدم رب العالمين فتكون كما قال القائل

تشاغل قوم بدنياهم * وقوم تخلوا لمولاهم * فألزمهم باب مرضاته
وعن سائر الخلق أغناهم * يصفون بالليل أقدامهم * وعين المهيمن ترعاهم
فطوبى لهم ثم طوبى لهم * اذا بالتحية حياهم

وكنت من الزاهدين المجاهدين في الله الخواص من عباد الله تعالى الذين قال فيهم سبحانه ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكنت من المتقين الذين لهم سعادة الدارين وصرت حينئذ أفضل من كثير من الملائكة المقربين اذ ليست لهم شهوة تدعو الى قبيح ولا نفس خبيثة وكنت قد خلفت هذه العقبة الطويلة الشديدة وراءك وسبقت العوائق كلها الى مقصودك ولا بد ولذلك فانه مع الاستعانة بالله والاعتصام به لهين نسأل الله تعالى وهو خير مسؤل ان يمدك واياي بحسن توفيقه وعونه وتيسيره فانه الكافي لكل مهم والاستعانة به في كل معضل فبيده الخلق والامر وهو على كل شيء قدير فهذا ما أردنا ذكره في هذا الباب ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(الباب الرابع في العقبة الرابعة وهي عقبة العوارض)

ثم عليك يا طالب العبادة وفقك الله بكف العوارض الشاغلة عن عبادة الله تعالى وسد سبيلها عنك لئلا تشغلك عن مقصودك وقد ذكرنا انها أربعة (أحدها) الرزق ومطالبة النفس بذلك وانما كفايته في التوكل فعليك بالتوكل على الله سبحانه في موضع الرزق والحاجة بكل حال وذلك لامرين (أحدهما) التفرغ للعبادة ويتمشى لك من الخير حقه فان من لم يكن متوكلا فلا بد من اشتغاله عن عبادة الله بسبب الحاجة والرزق والمصلحة اما ظاهرا واما باطنا اما بطلب وكسب بالبدن كعامة الراغبين واما بذكر وارادة ووسوسة بالقلب كالمجتهدين المعلقين والعبادة تحتاج الى فراغ القلب والبدن ليحصل حقها والفراغ لا يكون الا للمتوكلين بل أقول كل من هو ضعيف القلب لا يكاد يطمئن قلبه الا بشيء معلوم فلا يكاد يتم له أمر خطير من دنيا وآخرة وكثيرا ما سمعت من شيخي أبي محمد رحمه الله تعالى يقول انما الامر يتمشى في العالم لرجلين متوكل أو متهوّر (قلت) وهذا كلام جامع في معناه فان المتهوّر يقصد الامور على قوة عادة وجراءة قلب لا يلتفت الى صارف يصرفه أو خاطر يضعفه فتجري له الامور والمتوكل يقصد الامور على قوة وبصيرة وكمال يقين بوعد الله سبحانه وتمام ثقة بضمانه فلا يلتفت الى انسان يخوفه ولا شيطان يوسوسه فيفوز بمقاصده ويظفر بمطالبه (وأما) الخلق الضعيف فهو أبدا يكون بين توكل وتردد وتهور وتحير كالحمار في معلفه والدجاج في قفصه يرمق ماله ودمن صاحبه لا يكاد ينفك من ذلك قد تقاعدت نفسه عن معالي الامور وانقطعت همته فلا يكاد يقصد أمرا شريفا وان قصده فلا يكاد يظفر به ولا يتم له ذلك أما ترى أصحاب الهمم من أبناء الدنيا لم ينالوا مرتبة كبيرة ومنزلة خطيرة الا بانقطاع قلوبهم عن أنفسهم وأموالهم وأهليهم (وأما الملوك) فيباشرون الحروب ويكافحون الاعداء اما هلكوا واما ملكوا حتى تحصل لهم مرتبة الملك وعقد الولاية (وقيل) ان معاوية بن أبي سفيان لما نظر الى العسكرين يوم صفين قال من أراد خطيرا خاطر بعظيمته (وأما التجار) فيركبون الاهوال برا وبحرا ويطرحون أنفسهم وأموالهم في المقاطع شرقا وغربا ويوطنون أنفسهم على أحد الامرين اما فوت الارواح واما حصول الارباح حتى يحصل لهم بذلك كل ربح عظيم ومال جسيم وعلق نفيس (وأما السوقي) الذي ضعف قلبه ورق عزمه فلا يكاد يقطع القلب عن علاقته من نفسه وماله فهو من بيته الى دكانه طول عمره ولا يصل الى مرتبة شريفة كالملوك ولا الى ربح عظيم

كالتجار

(آداب الجمعة)
اعلم أن الجمعة عيد المؤمنين وهو يوم شريف خص الله عز وجل به هذه الامة وفيه ساعة مبهمة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها حاجة الا أعطاه اياها فاستعد لها من يوم الخميس بتنظيف الثياب وبكثرة التسبيح والاستغفار عشية الخميس فانها ساعة توازي في الفضل ساعة يوم الجمعة وانو صوم يوم الجمعة لكن مع السبت أو الخميس اذ جاء في افرادها نهي فاذا طلع عليك الصبح فاغتسل فان غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم أي ثابت مؤكد * ثم تزين بالثياب البيض فانها أحب الثياب الى الله تعالى واستعمل من الطيب أطيب ما عندك وبالغ في تنظيف بدنك بالحلق والقص والتقليم والسواك وسائر أنواع النظافة وتطييب الرائحة * ثم بكر الى الجامع واسع اليها على الهينة والسكينة فقد قال صلى الله عليه وسلم من راح في الساعة الاولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة قال فاذا

كالتجار الخاطرين فان نال في سوقه ربح درهم على اضاعته فذلك له كثير وذلك التعلق قلبه بشيء معلوم (فهذا) في الدنيا وابنائها واما ابناء الآخرة فرأس مالهم هذه الخصلة التي هي التوكل وقطع القلب عن العلائق لما أحكموها وحصلوها صدقا تفرغوا للعبادة لله تعالى وتمكنوا في التفرد عن الخلق والسياحة في الارض واقتحام الفيافي واستيطان الجبال والشعاب فصاروا أقوياء العباد ورجال الدين واحرار الناس وملوك الارض بالحقيقة يسيرون حيث يشاؤن وينزلون حيث يشاؤن ويقصدون من الامور العظام علما وعبادة ما يشاؤن لا عائق لهم ولا حاجز لهم دونهم فكل الاماكن لهم واحد وكل الازمان عندهم واحد واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من سره ان يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده وعن سليمان الخواص لو ان رجلا توكل على الله سبحانه بصدق النية لاحتاج اليه الامراء ومن دونهم وكيف يحتاج ومولاه الغني الحميد وعن ابراهيم الخواص أنه قال لقيت غلاما في التيه كأنه سبيكة فضة فقلت له الى أين يا غلام قال الى مكة قلت بلا زاد ولا راحلة فقال يا ضعيف اليقين الذي يقدر على حفظ السموات والارض قادر على ان يوصلني الى مكة بلا زاد ولا راحلة فلما دخلت مكة فاذا هو في الطواف يقول

يا نفس سيحي أبدا * ولا تحبي أحدا الا الجليل الصمدا * يا نفس موتي كمدا

فلما رآني قال يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعف (وقال أبو مطيع) لحاتم الاصم بلغني انك تقطع المفاوز بالتوكل من غير زاد قال حاتم زادي أربعة أشياء قال ماهي قال أرى الدنيا والآخرة مملكة لله تعالى وأرى الخلق كلهم عبيد الله وعياله وأرى الارزاق والاسباب كلها بيد الله عز وجل وأرى قضاء الله نافذا في جميع أرض الله ولقد أحسن من قال

أرى الزهاد في روح وراحه * قلوبهم عن الدنيا مزاحه
اذا أبصرتهم أبصرت قوما * ملوك الارض شيمتهم سماحه

(واما الامر الثاني) الذي اقتضى التوكل على الله سبحانه وتعالى في هذا الشأن فهو ما في تركه من الخطر العظيم والامر الكبير (قلت) أليس الله سبحانه قرن الرزق بالخلق فقال تعالى خلقكم ثم رزقكم فدل على ان الرزق من الله سبحانه لا غير كالخلق ثم لم يكتف بالدلالة حتى وعد فقال عز وجل ان الله هو الرزاق ثم لم يكتف بالوعد حتى ضمن فقال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ثم لم يكتف بالضمان حتى اقسم فقال فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون ثم لم يكتف بذلك كله حتى أمر بالتوكل وأبلغ وأنذر فقال وتوكل على الحي الذي لا يموت وقال سبحانه وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين فمن لم يعتبر قوله ولم يكتف بوعده ولم يطمئن الى ضمانه ولم يقنع بقسمه ثم لم يبال بأمره ووعده ووعيده فانظر ماذا يكون حاله وأية محنة تجيء من هذا وهذه والله مصيبة شديدة ونحن منها في غفلة عظيمة ولقد قال الصادق الامين صلى الله عليه وسلم لابن عمر كيف أنت اذا بقيت بين قوم يخبؤن رزق سنتهم لضعف اليقين وعن الحسن رحمه الله تعالى لعن الله اقواما أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه (وقالت) الملائكة عند نزول هذه الآية فورب السماء والارض هلكت بنو آدم اغضبوا الرب حتى أقسم لهم على أرزاقهم وعن أويس القرني رضي الله عنه انه قال لو عبدت الله عبادة أهل السموات والارض لا يقبل منك حتى تصدقه قيل وكيف نصدقه قال تكون آمنا بما تكفل الله لك من أمر رزقك وترى جسدك فارغا لعبادته ولقد قال له هرم بن حيان أين تأمرني ان أقيم فأومأ بيده الى الشام قال هرم كيف المعيشة بها قال أف لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما تنفعها المواعظ (وبلغنا) ان نباشا تاب على يد أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى فسأله أبو يزيد عن حاله فقال نبشت عن ألف قبر فلم أر وجوههم الى القبلة الا رجلين فقال أبو يزيد مساكين أولئك تهمة الرزق حولت وجوههم عن القبلة (وذكر) لي بعض أصحابنا رحمه الله تعالى انه رأى رجلا من أهل الصلاح فسأله عن حاله فقال هل سلمت بايمانك فقال انما يسلم الايمان المتوكلين نسأل الله تعالى

خروج الامام طويت الصحف ورفعت الاقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر * ويقال ان الناس في قربهم عند النظر الى وجه الله تعالى على قدر بكورهم الى الجمعة ثم اذا دخلت الجامع فاطلب الصف الاول فان اجتمع الناس فلا تتخط رقابهم ولا تمر بين أيديهم وهم يصلون واجلس بقرب حائط أو اسطوانة حتى لا يمرون بين يديك ولا تقعد حتى تصلي التحية والاحسن أن تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة خمسين مرة سورة الاخلاص ففي الخبر من فعل ذلك لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له ولا تترك التحية وان كان الامام يخطب ومن السنة ان تقرأ في أربع ركعات سورة الانعام والكهف وطه ويس فان لم تقدر فسورة يس والدخان والم السجدة وسورة الملك ولا تدع قراءة هذه السورة ليلة الجمعة فيها فضل كثير ومن لم يحسن ذلك فليكثر من قراءة سورة الاخلاص واكثار الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم خاصة * ومهما خرج الامام فاقطع الصلاة والكلام واشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة والاتعاظ بها ودع الكلام رأسا في

ان يصلحنا بفضله وان لا يؤاخذنا بما نحن أهله انه أرحم الراحمين فهذه هذه (فان قلت) فاخبرنا ما حقيقة التوكل وحكمه وما يلزم العبد منه في أمر الرزق (فاعلم) انه انما يتبين لك هذا في أربعة فصول بيان لفظ التوكل وموضعه وحده وحصنه (فأما اللفظ) فانما هو توكل تفعل من الوكالة فالمتوكل على أحد هو الذي يتخذه بمنزلة الوكيل القائم بأمره الضامن لاصلاحه الكافي له من غير تكلف واهتمام فهذه جملته (وأما الموضع) فاعلم ان التوكل اسم مطلق في ثلاثة مواضع أحدها في موضع القسمة وهو الثقة بالله لانه لا يفوتك ما قسم لك فان حكمه لا يتبدل وهذا واجب بالسمع والثاني في موضع النصرة وهو الاعتماد والوثاقة بنصر الله عز وجل لك اذا نصرته وجاهدت قال تعالى فاذا عزمت فتوكل على الله وقال ان تنصروا الله ينصركم وقال تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين وهذا واجب بالوعد والثالث في موضع الرزق والحاجة فان الله تعالى متكفل بما يقيم بنيتك لخدمته وتتمكن به من عبادته وذلك قوله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال الصادق الامين صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وهذا فرض لازم للعبد بدليل العقل والشرع جميعا وهذا هو الاشهر والابلغ منه أعني التوكل في موضع الرزق وهو المقصود من هذا الفصل فموضع التوكل اذن هو الرزق وهو الرزق المضمون فيما قاله العلماء بالله تعالى وانما يتضح لك هذا بتبيان أقسام الرزق (فاعلم) ان الرزق أربعة اقسام مضمون ومقسوم ومملوك وموعود (فالمضمون) هو الغذاء وما به قوام البنية دون سائر الاسباب فالضمان من الله تعالى لهذا النوع والتوكل يجب بازائه بدليل العقل والشرع لان الله تعالى كلفنا خدمته وطاعته بابداننا فضمن ما يستدخل البنية لنقوم بما كلفنا وقال بعض المشايخ الكرامية كلاما حسنا على أصلهم ضمان أرزاق العباد واجب في حكمة الله تعالى لثلاثة اشياء أحدها انه السيد ونحن العبيد وعلى السيد كفاية مؤنة العبيد كما ان العبيد خدمة السيد والثاني انه خلقهم محتاجين الى الرزق ولم يجعل لهم سبيلا الى طلبه اذ لا يدرون ما هو رزقهم وأين هو ومتى هو ليطلبوه بعينه من مكانه وفي وقته ليصلوا اليه فوجب أن يكفيهم أمر ذلك ويوصلهم اليه والثالث انه كلفهم الخدمة وطلب الرزق شاغل عنها فوجب ان يكفيهم المؤنة ليتفرغوا للخدمة وهذا كلام من لم يحط بأسرار الربوبية والقائل بان الرزق على الله واجب تالله وقد أوضحنا في فن الكلام فساده ولنرجع الى المقصود من غرضنا (وأما الرزق المقسوم) فهو ما قسمه الله سبحانه وكتبه في اللوح المحفوظ مما يأكله ويشربه ويلبسه كل واحد بمقدار مقدر ووقت مؤقت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر عما كتب بعينه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم الرزق مقسوم مفروغ منه ليس تقوى تقي بزائده ولا فجور فاجر بناقصه (وأما المملوك) فما يملكه كل واحد من أموال الدنيا على حسب ما قدر الله تعالى وقسم له ان يملكه وهو من رزق الله تعالى قال تعالى أنفقوا مما رزقناكم أي مما ملكناكم (وأما الموعود) فهو ما وعد الله به عباده المتقين بشرط التقوى حلالا من غير كد قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب (فهذه) أقسام الرزق والتوكل انما يجب بازاء المضمون منها فاعلم ذلك (وأما حد التوكل) فقد قال بعض شيوخنا انه اتكال القلب الى الله بالانقطاع اليه والاياس عما دونه وقال بعضهم حفظ القلب الى الله بوضع المصلحة بترك تعلقه على شيء دونه (وقال) الشيخ الامام أبو عمرو رحمه الله تعالى التوكل ترك التعلق والتعلق ذكر قوام بنيتك عن شيء دون الله تعالى (قال) شيخي الامام رحمه الله التوكل والتعلق ذكران فالتوكل هو ذكر قوام بنيتك من قبل الله تعالى والتعلق ذكر قوامها عن دون الله والاقاويل عندي ترجع الى أصل واحد وهو ان توطن قلبك على ان قوام بنيتك وسد خلتك وكفايتك انما هو من الله عز وجل لا باحد دون الله ولا بطعام من الدنيا ولا بسبب من الاسباب ثم الله سبحانه ان شاء سببه لك مخلوقا أو حطاما وان شاء كفاه بقدرته دون الاسباب والوسائط واذا ذكرت ذلك بقلبك وتوطنت عليه وانقطع القلب عن المخلوقين والاسباب جملة الى الله سبحانه وحده فقد حصل التوكل حقه فهذا حده (وأما حصن التوكل) الباعث عليه فهو ذكر ضمان

الخطابة وفي الخبر ان من قال لصاحبه والامام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له أي لان قوله أنصت كلام فينبغي أن ينهى غيره بالاشارة لا باللفظ * ثم اقتد بالامام كما سبق فاذا فرغت وسلمت فاقرأ الفاتحة قبل ان تتكلم سبع مرات والاخلاص سبعا والمعوذتين سبعا فذلك يعصمك من الجمعة الى الجمعة الاخرى ويكون حرزا لك من الشيطان وقل بعد ذلك اللهم يا غني يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود أغنني بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك ثم صل بعد الجمعة ركعتين أو أربعا أو ستا مثنى مثنى فكل ذلك مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحوال مختلفة ثم لازم المسجد الى المغرب أو الى العصر وكن حسن المراقبة للساعة الشريفة فانها مبهمة في جميع اليوم فعساك ان تدركها وأنت خاشع لله متضرع * ولا تحضر في الجامع مجالس الحلق ولا مجالس القصاص بل مجالس العلم النافع وهو الذي يزيد في خوفك من الله تعالى وينقص من رغبتك في الدنيا فكل علم لا يدعوك من الدنيا الى الآخرة فالجهل أعود عليك منه فاستعذ بالله

الله

الله وحصن حصينة ذكر جلال الله وكماله في علمه وقدرته ونزاهته عن الخلف والسهو والعجز والنقص فاذا واظب العبد على هذه الاذكار بعثته على التوكل على الله سبحانه في أمر الرزق (فان قيل) هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما (فاعلم) ان الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه اذ هو شيء من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه (وأما المقسوم) من الاسباب فلا يلزم العبد طلبه اذ لا حاجة للعبد الى ذلك وانما حاجته الى المضمون وهو من الله تعالى وفي ضمان الله تعالى (وأما قوله تعالى) وابتغوا من فضل الله فالمراد به العلم والثواب وقيل بل هو رخصة اذ هو أمر وارد بعد الحظر فيكون بمعنى الاباحة لا بمعنى الايجاب والالزام (فان قيل) لكن لهذا الرزق المضمون اسباب هل يلزمنا طلب الاسباب (قيل له) لا يلزمك ذلك اذ لا حاجة للعبد اليه اذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب فمن أين يلزمنا طلب السبب ثم ان الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب قال الله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ثم كيف يصح ان يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه اذ لا يعرف أي سبب منها رزقه الذي يتناوله لا غير والذي يصير سبب غذائه وتربيته لا غير فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه ومن أين يحصل له فلا يصح تكليفه فتأمل راشدا فانه بين (ثم حسبك) ان الانبياء صلوات الله عليهم والاولياء المتوكلين لم يطلبوا أرزاقهم في الاكثر والاعم وتجردوا للعبادة وبالاجماع أنهم لم يكونوا تاركين لامر الله تعالى ولا عاصين له تعالى في ذلك فتبين لك ان طلب الرزق وأسبابه ليس بأمر لازم للعبد (فان قلت) هل يزيد الرزق بالطلب وهل ينقص بترك الطلب (فكلا) فانه مكتوب في اللوح المحفوظ مقدر ومؤقت ولا تبديل لحكم الله ولا تغيير لقسمته وكتابته هذا هو الصحيح عند علمائنا رضي الله عنهم خلاف ما ذهب اليه بعض أصحاب حاتم وشقيق قالوا ان الرزق لا يزيد ولا ينقص بفعل العبد لكن المال يزيد وينقص وهذا فاسد لان الدليل في الموضعين واحد وهو الكتابة والقسمة واليه الاشارة بقوله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ولو كان بالطلب يزيد وبالترك ينقص لكان للاسى والفرح موضع اذا هو قصر وتوانى حتى فاته وجد وشمر حتى حصله وقال صلى الله عليه وسلم للسائل هالك لو لم تأته لاتاك (فان قيل) فالثواب والعقاب أيضا مكتوب في اللوح المحفوظ ثم يلزمنا طلب الثواب وترك موجب العقاب فهل يزيد بالطلب أو ينقص بالترك (فاعلم) ان طلب الثواب انما وجب لان الله أمر به أمرا حتما وأوعد على تركه ولم يضمن الثواب على غير فعل منا وزيادة الثواب والعقاب بفعل العبد والفرق بينهما في نكتة وهي ما قاله بعض علمائنا ان المكتوب في اللوح قسمان قسم مكتوب مطلقا من غير شرط وتعليق بفعل العبد وهو الارزاق والآجال اما ترى كيف ذكرهما الله تعالى مطلقا غير مشروط قال الله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وقال تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وقال صاحب الشرع عليه السلام أربعة قد فرغ منهن الخلق والخلق والرزق والاجل وقسم مكتوب بشرط معلق مشروط بفعل العبد وهو الثواب والعقاب اما ترى كيف ذكرهما الله تعالى في كتابه معلقا بفعل العبد قال تعالى ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم وهذا بين فاعلمه (فان قيل) نحن نجد الطالبين يجدون الارزاق والاموال والتاركين يعدمون ويفتقرون (قيل له) كذلك لا تجد مع ذلك طالبا محروما فقيرا وتاركا فارغا مرزوقا غنيا بل ان هذا هو الاكثر اتعلم ان ذلك هو تقدير العزيز العليم وتدبير الملك الحكيم وانشد أبو بكر محمد بن سابق الواعظ الصقلي بالشام رحمه الله

كم من قوي قوي في تقلبه * مهذب الرأي عنه الرزق منحرف
وكم ضعيف ضعيف في تقلبه * كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على ان الاله له * في الخلق سر خفي ليس ينكشف

(فان قلت) هل ندخل البادية بلا زاد (فاعلم) انه ان كان لك قوة قلب بالله تعالى والثقة البالغة بوعد الله فادخل

من علم لا ينفع * وأكثر الدعاء عند طلوع الشمس وعند الزوال وعند الغروب وعند الاقامة وعند صعود الخطيب المنبر وعند قيام الناس الى الصلاة فيوشك أن تكون الساعة الشريفة في بعض هذه الاوقات واجتهد ان تتصدق في هذا اليوم بما تقدر عليه وان قل فتجمع بين الصلاة والصوم والصدقة والقراءة والذكر والاعتكاف والرباط واجعل هذا اليوم من الاسبوع خاصة لآخرتك فعساه ان يكون كفارة لبقية الاسبوع

(آداب الصيام)

لا ينبغي ان تقتصر على صوم رمضان فتترك التجارة بالنوافل وكسب الدرجات العالية في الفراديس فتتحسر اذا نظرت الى الصائمين كما تنظر الى الكوكب الدري وهم في أعلى عليين والايام الفاضلة التي شهدت الاخبار بفضلها وبشرفها وبجزالة الثواب في صيامها يوم عرفة لغير الحاج ويوم عاشوراء والعشر الاول من ذي الحجة والعشر الاول من المحرم ورجب وشعبان وصوم الاشهر الحرم من الفضائل وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب واحد فرد وثلاثة سرد وهذه في السنة وأما في الشهر فأول الشهر وأوسطه وآخره والايام

والافكار كالعوام بلا تفهم (ولقد سمعت) الامام أبا المعالى رحمه الله يقول ان من جرى مع الله تعالى على عادة الناس جرى الله معه على ما هو عادة الناس فى كفاية المؤنة وهذا كلام حسن جدا وفيه فوائد جمة لمن تأملها (فان قلت) أليس الله تعالى يقول وتزودوا فان خير الزاد التقوى (فاعلم) ان فيه قولين أحدهما انه زاد الآخرة ولذلك قال خير الزاد التقوى ولم يقل طعام الدنيا وأسبابها والثانى انه كان قوم لا يأخذون زادا فى طريق الحج لانفسهم اتكالا على الناس ويسألون الناس ويشكون ويلحون ويؤذون الناس فامروا بالزاد أمر تنبيه على ان أخذ الزاد من مالك خير من أخذ مال الناس والاتكال عليهم وكذلك نقول (فان قلت) فالمتوكل هل يحمل الزاد معه فى الاسفار (فاعلم) أنه ربما يحمل الزاد ولا يعلق القلب به بانه لا محالة رزقه وفيه قوامه وانما يعلق القلب بالله تعالى ويتوكل عليه ويقول ان الرزق مقسوم مفروغ منه والله تعالى ان شاء أقام بنيتى بهذا أو بغيره وربما يحمل بنية أخرى بان يعين مسلما أو نحو ذلك وليس الشأن فى أخذ الزاد وتركه وانما الشأن فى القلب لا تعلق قلبك الا بوعد الله تعالى وحسن كفايته وضمانه فكم من حامل للزاد وقلبه مع الله دون الزاد وكم من تارك للزاد وقلبه مع الزاد دون الله تعالى فالشأن اذن فى القلب فافهم هذه الاصول تكف المؤنة ان شاء الله تعالى (فان قيل) فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يحمل الزاد وكذلك الصحابة والسلف الصالح (يقال له) لا بعلم ان ذلك مباح غير حرام وانما الحرام تعليق القلب بالزاد وترك التوكل على الله سبحانه فافهم ذلك ثم ما ظنك برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الله تعالى له وتوكل على الحى الذى لا يموت أعصاه فى ذلك وعلق قلبه بطعام أو شراب أو درهم أو دينار كلا وحاشا ان يكون ذلك بل كان قلبه مع الله تعالى وتوكله على الله تعالى كما أمره فانه الذى لم يلتفت الى الدنيا بأسرها ولم يمد يده الى مفاتيح خزائن الارض كلها وانما كان أخذ الزاد منه ومن السلف الصالح لنيات الخير لا لميل قلوبهم عن الله تعالى الى الزاد والمعتبر القصد على ما أعلمناك فافهم وانتبه من رقدتك وافق من غفلتك وتفهم يرشدك الله (فان قلت) أيهما أفضل أخذ الزاد أم تركه (فاعلم) ان هذا يختلف باختلاف الحال ان كان مقتدى به يريد ان يبين ان أخذ الزاد مباح أو ينوى به عون مسلم أو اغاثة ملهوف ونحو ذلك فالاخذ أفضل وان كان منفردا قوى القلب بالله سبحانه يشغله الزاد عن عبادة الله سبحانه وتعالى فالترك أفضل فتفهم هذه الجملة واحتفظ بها راشدا وبالله التوفيق (العارض الثانى الاخطار وارادتها وقصودها) وانما كفايتها فى التفويض فعليك بتفويض الامر كله الى الله سبحانه وذلك لامرين أحدهما طمأنينة القلب فى الحال فان الامور اذا كانت خطيرة مبهمة لا يدرى صلاحها من فسادها تكون بها مضطرب القلب هائم النفس لا تدرى تقع فى صلاح أو فساد فاذا فوضت الامر كله الى الله تعالى علمت انك لا تقع الا فى صلاح وخير فتكون آمنا من الخطر والآفة والمخافة مطمئن القلب فى الحال وهذه الطمأنينة والامن والراحة فى القلب غنيمة عظيمة (وكان شيخنا رحمه الله) يقول فى مجالسه كثيرا دع التدبير الى من خلقك تسترح وقد أنشد فى ذلك

ان من كان ليس يدرى أفى المحـ * ـبوب نفع له أو المكروه
لحرى بان يفوض ما يعجز عنه الى الذى يكفيه
الاله البر الذى هو بالرأ * فة أحنى من أمه وأبيه

والثانى من الامرين حصول الصلاح والخير فى الاستقبال وذلك لان الامور بالعواقب مبهمة فكم من شر فى صورة خير وكم من ضر فى حلية نفع وكم من سم فى هيئة شهد وأنت الجاهل بالعواقب والاسرار فاذا أردت الامور رقطعا وأخذت فيها باختيارك متحكما فما أسرع ما تقع فى هلاك وأنت لا تشعر (ولقد حكى) ان بعض العباد كان يسأل الله ان يريه ابليس فقيل له سل الله العافية فأبى الا ذلك فاظهره الله تعالى له فلما رآه العابد قصده بالضرب فقال له ابليس لولا انك تعيش مائة سنة لاهلكتك وعاقبتك فاغتر بقوله وقال فى نفسه ان عمرى بعيد طويل فأفعل ما أريد ثم أتوب فوقع فى الفسق وترك العبادة فهلك ففى هذه ما ينبهك على ترك التحكم فى

ارادتك

البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر * وأما فى الاسبوع فيوم الاثنين والخميس والجمعة فتكفر ذنوب الاسبوع بصوم الاثنين والخميس والجمعة وذنوب الشهر تكفر باليوم الاول من الشهر واليوم الاوسط واليوم الآخر والايام البيض وتكفر ذنوب السنة بصيام هذه الايام والاشهر المذكورة * ولا تظن اذا صمت ان الصوم هو ترك الطعام والشراب والوقاع فقط فقد قال صلى الله عليه وسلم كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش بل تمام الصيام بكف الجوارح كلها عما يكرهه الله تعالى بل ينبغى ان تحفظ العين عن النظر الى المكاره واللسان عن النطق بما لا يعنيك والاذن عن الاستماع الى ما حرم الله فان المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين وكذلك تكف جميع الجوارح كما تكف البطن والفرج ففى الخبر خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة والنظر بشهوة واليمين الكاذبة وقال صلى الله عليه وسلم انما الصوم جنة فاذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يفسق ولا يجهل فان امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل انى

ارادتك والنجاح في مطالوبك ويحذرك طول الامل أضافانه الآفة العظيمة ولقد صدق القائل

واياك المطامع والاماني * فكم أمنية جلبت منيه

(وأما) اذا فوضت أمرك الى الله سبحانه وسألته ان يختار لك ما هو صلاح لك لم تلق الا الخير والسداد ولا تقع الا على الصلاح قال الله تعالى حكاية عن العبد الصالح وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد فوقاه الله سيآت ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب أما ترى كيف أعقب تفويضه الوقاية من الاسواء والنصر على الاعداء وبلوغ المراد فتأمل موفقا ان شاء الله تعالى (فان قلت) بين لنا معنى التفويض وحكمه (فاعلم) أن ههنا أصلين بهما يتضح الكلام أحدهما موضع التفويض وحكمه والثاني معناه وحده وضده اما موضعه فاعلم ان المرادات ثلاثة مراد تعلم يقينا أنه فساد وشر لاشك فيه البتة كالنار والعذاب وفي الافعال كالكفر والبدعة والمعصية فلا سبيل الى ارادة ذلك والثاني مراد تعلم قطعا انه صلاح كالجنة والايمان والسنة ونحو ذلك فلك ارادتها بالحكم لا موضع للتفويض فيه اذ لا خطر فيه ولا شك انه خير وصلاح والثالث مراد لا تعلم يقينا ان لك فيه صلاحا أو فسادا وذلك نحو النوافل والمباحات فهذا موضع التفويض فليس لك ان تريدها قطعا بل بالاستثناء وشرط الخير والصلاح فان قيدت ارادتك بالاستثناء فهو تفويض وان أردت دون الاستثناء فهو طمع مذموم منهي عنه فموضع التفويض اذن كل مراد فيه الخطر وهو ان لا تستيقن صلاحك فيه وأما معنى التفويض فقد قال بعض شيوخنا رحمهم الله هو ترك اختيار ما فيه مخاطرة الى المختار المدبر العالم بمصلحة الخلق لا اله الا هو وعبارة الشيخ أبي محمد السجزي رحمه الله هو ترك اختيارك المخاطرة على المختار ليختار لك ما هو خير لك وقال الشيخ أبو عمرو رحمه الله هو ترك الطمع والطمع هو ارادة الشئ الخاطر بالحكم فهذه عبارات المشايخ (والذى نقول لك) ان التفويض ارادة ان يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر وضد التفويض الطمع والطمع في الجملة يجرى على وجهين أحدهما في معنى الرجاء تريد شيأ لا خطر فيه أو مخاطرة بالاستثناء وذلك ممدوح غير مذموم كما قال الله تعالى والذى أطمع ان يغفر لى خطيئتى يوم الدين وقال انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا وهذا القسم ليس مما نحن فيه بسبيل ههنا والثاني طمع مذموم قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والطمع فانه فقر حاضر (وقيل) هلاك الدين وفساده الطمع وملاكه الورع (قال) شيخنا رحمه الله الطمع المذموم شيآن سكون القلب الى منفعة مشكوكة والثاني ارادة الشئ الخاطر بالحكم وهذه الارادة تقابل التفويض لا غير فاعلم ذلك (وأما) حسن التفويض فهو ذكر خطر الامور وامكان الهلاك والفساد فيها وحسن حصنه ذكر عجزك عن الاعتصام عن ضروب الخطر والامتناع عن الوقوع فيها بجهلك وغفلاتك وضعفك والمواظبة على هذين الذكرين تحملك على تفويض الامور كلها الى الله سبحانه والتحفظ عن الحكم فيها والامتناع عن ارادتها الا بشرط الخير والصلاح فهذه هذه وبالله التوفيق (فان قيل لك) ما هذا الخطار الذى توجبون التفويض لاجله في الامور (فاعلم) ان الخطار في الجملة خطران خطر الشك بانه يكون أولا يكون وانك تصل اليه أولا تصل اليه وهذا يحتاج الى الاستثناء ويقع في باب النية والامل والثاني خطر الفساد بأن لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك وهذا الذى يحتاج فيه الى التفويض (ثم) اختلفت عبارات الائمة في الخطر فعن بعضهم ان الخطر في الفعل هو أن تكون دونه نجاة ويمكن ان يحامعه ذنب فالايمان والاستقامة والسنة لا خطر فيها اذ لا يمكن دون الايمان نجاة البتة والاستقامة لا يجامعها ذنب فاذن تصح ارادة الايمان والاستقامة بالحكم (وقال) الاستاذ رحمه الله الخطر في الفعل ما يمكن ان يعترض فيه ما يكون الاشتغال بالعارض أولى من الاقدام على ذلك الفعل وذلك يقع في المباحات والسنن والفرائض الا ترى ان من تضيق عليه وقت الصلاة وقصد اداءها فعرض له حريق أو غريق يمكنه انقاذه فالاشتغال بانقاذه أولى من الاقبال على صلاته فلا تصح اذن ارادة المباحات والنوافل والكثير من الفرائض بالحكم (فان قيل) كيف يصح

صائم * ثم اجتهد ان تفطر على طعام حلال ولا تستكثر فتزيد على ما تأكله كل ليلة لاجل صيامك فلا فرق اذا استوفيت ما تعتاد ان تأكله دفعة أو دفعتين وانما المقصود كسر شهوتك وتضعيف قوتك لتتقوى بها على التقوى فاذا أكلت عشى ما فاتك فقد تداركت به ما فاتك فلا فائدة في صومك وقد ثقلت عليك معدتك وما من وعاء أبغض الى الله من بطن ملئ من حلال فكيف اذا كان من حرام فاذا عرفت معنى الصوم فاستكثر منه ما استطعت فانه أساس العبادات ومفتاح القربات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى كل حسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به وقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يقول الله عز وجل انما يذر شهوته وطعامه وشرابه من أجلي فالصوم لى وأنا أجزى به وقال صلى الله عليه وسلم للجنة باب يقال له الريان لا يدخله الا الصائمون فهذا القدر يكفيك من شرح الطاعات من بداية الهداية فاذا احتجت الى الزكاة والى الحج أو الى مزيد شرح الصلاة والصيام فاطلبه

ان يفترض الله على عبده شيأ أو يوعده على تركه ثم لا يكون له صلاح في فعله (فاعلم) ان شيخنا رحمه الله قال ان الله تعالى لا يأمر العبد بشيء الا وفيه صلاحه اذا تجرد عن العوارض ولا يضيق عليه فعلا فرضا بحيث لا معدل له عن ذلك الا وله فيه صلاح وانما بما يسببه الله تعالى له عذر الاجله يكون العدول عن أحد المأمورين أولى من الاشتغال بالآخر كما ذكرنا فيكون العبد في ذلك معذورا بل مأجورا الا بترك هذا الفرض بل بفعل الفرض الثاني الذي هو أولى (ولقد سمعت) الامام رحمه الله في هذه المسئلة يقول ان كل ما افترض الله على عباده من الصلاة والصوم والحج ونحوه ففيها اصلاح لا محالة للعبد وصحت ارادتها بالحكم قال فانه قد رأينا صلى ذلك فبقي المباحات والنوافل اذن في هذا الحكم فاعلم ذلك فانه من غوامض الباب وبالله التوفيق (فان قيل) هل يأمن المفوض الهلاك والفساد والدار دار محنة (فاعلم) ان في الاغلب لا يفعل بالمفوض الا الاصلاح وقد يفعل به في النادر غير الصلاح ولذلك ربما يخذله فيقع عن منزلة التفويض ولا صلاح العبد في الخذلان والوقوع عن منزلة التفويض وبه قال الشيخ أبو عمرو رحمه الله (وقيل) لا يفعل بالمفوض الا ما فيه صلاحه فيما فوض الى الله سبحانه والخذلان والقصور عن منزلة التفويض مما لا يقع فيه التفويض اذ لا شك في فساد ذلك والتفويض انما يقع فيما يشك في فساده وصلاحه وهذا أولى القولين عند شيخنا رحمه الله اذ لولا ذلك لما قويت الباعثة على التفويض (فان قيل) هل يجب أن يفعل بالمفوض ما هو الافضل (فاعلم) ان الايجاب مستحيل في حق الله تعالى فلا يجب لعباده عليه شيء وقد يفعل بالعبد الاصلح دون الافضل حكمة من فعله ألا ترى انه قدر للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ان ناموا طول الليل الى طلوع الشمس في بعض الاسفار حتى فاتتهم صلاة الليل وصلاة الفجر والصلاة أفضل من النوم وربما يقدر للعبد الغنى والنعمة في الدنيا وان كان الفقر أفضل وربما يقدر له الاشتغال بالازواج والاولاد وان كان التجرد لعبادة الله عز وجل أفضل فانه بعباده خبير بصير وهذا كما ان الطبيب الحاذق الناصح يختار للمريض ماء الشعير وان كان ماء السكر أفضل وأنفس لما علم ان صلاح علته في ماء الشعير والمقصود للعبد النجاة من الهلاك لا الفضل والشرف مع الفساد والهلاك (فان قيل) فهل يكون المفوض مختارا (فاعلم) ان الصحيح عند علمائنا أنه يكون مختارا ولا يقدح في تفويضه وذلك ان المعنى فيه اذا كان له صلاح في المفضول والافضل فهو يريد من الله تعالى أن يسبب له الافضل كما ان المريض يقول للطبيب اجعل دوائي ماء السكر دون ماء الشعير اذا كان لي صلاح في كليهما ليحصل لي الفضل والصلاح جميعا فكذلك العبد اذا سأل الله تعالى أن يجعل صلاحه فيما هو الافضل ويسبب له ذلك ليجمع له الفضل والصلاح جميعا ولكن بشرط انه ان اختار الله له الصلاح في غير الافضل أن يكون راضيا بذلك (فان قيل) فلماذا كان للعبد أن يختار الافضل وليس له أن يختار الاصلح (فاعلم) ان الفرق بينهما ان العبد يعرف الافضل من المفضول ولا يعرف الصلاح من الفساد ليريده بالحكم ثم ان معنى اختياره الافضل ان يريد من الله تعالى ان يجعل صلاحه فيما هو الافضل ويختاره ذلك ويقدره لان للعبد تحكما في شيء من ذلك فاعلمه (فهذه) جملة من دقيق هذا العلم وأسراره ولولا ان الحاجة مست اليه لما تعرضنا الا يراده لانه تلاطم بحار علوم المكاشفة مع اني اقتصرت على النكتة المقنعة في هذا الكتاب وقصدت الايضاح لينتفع به فحول العلماء والمبتدئون ان شاء الله تعالى وبالله التوفيق (العارض الثالث القضاء وورود أنواعه) وانما كفايته في الرضا به فعليك ان ترضى بقضاء الله عز وجل وذلك لامرين (أحدهما) للتفرغ للعبادة لانك اذا لم ترض بالقضاء فتكون مهموما مشغول القلب أبدا بانه لم كان كذا ولم لا يكون كذا فاذا اشتغل القلب بشيء من هذه الهموم كيف يتفرغ للعبادة اذ ليس لك الا قلب واحد وقد ملأته من الهموم وما كان وما يكون من أمر الدنيا فأي موضع بقي فيه لذكر الله وعبادته وفكر الآخرة (ولقد صدق) شقيق رحمه الله حيث قال ان حسرة الامور الماضية وتدبير الآتية قد ذهبت ببركة ساعتك هذه (والثاني) من الامرين خطر ما في السخط من غضب الله تعالى ولقد روي في الاخبار ان نبيا من

مما أوردناه في كتاب احياء علوم الدين * (القسم الثاني القول في اجتناب المعاصي) * اعلم ان الدين شطران أحدهما ترك المناهي والآخر فعل الطاعات وترك المناهي هو الاشد فان الطاعات يقدر عليها كل أحد وترك الشهوات لا يقدر عليها الا الصديقون ولذلك قال صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه * واعلم انك انما تعصي الله بجوارحك وانما هي نعمة من الله عليك وأمانة لديك فاستعانتك بنعمة الله على معصيته غاية الكفران وخيانتك في أمانة أودعكها الله غاية الطغيان فاعضاؤك رعاياك فانظر كيف ترعاها فكلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته واعلم أن جميع أعضائك ستشهد عليك في عرصات القيامة بلسان طلق ذلق أي فصيح تفضحك به على رؤس الخلائق قال الله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقال تعالى اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون فاحفظ جميع بدنك وخصوصا أعضاءك السبعة فان جهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم

الانبياء شكا بعض ما ناله من المكروه الى الله تعالى فأوحى الله تعالى اليه أتشكوني ولست باهل ذم ولا شكوى هكذا بدا شأنك في علم الغيب فلم تسخط قضائي عليك أتريد أن أغير الدنيا لاجلك أم أبدل اللوح المحفوظ بسببك فأقضي ما تريد دون ما أريد ويكون ما تحب دون ما أحب فبعزتي حلفت لان تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لاسلبنك ثوب النبوة ولاوردنك النار ولا أبالي (قلت) فليستمع العاقل هذه السياسة العظيمة والوعيد الهائل مع أنبيائه وأصفيائه فكيف مع غيرهم ثم استمع قوله عز وجل لان تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى فهذا في حديث النفس وتردد القلب فكيف بمن يصرخ ويستغيث ويشكو وينادي بالويل والصراخ من ربه الكريم الحسن على رؤس الملاو يتخذه أعوانا وأصحابا وهذا لمن سخط مرة فكيف بمن هو في السخط على الله تعالى جميع عمره وهذا لمن شكا اليه فكيف بمن شكا الى غيره نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا ونسأله ان يعفو عنا ويغفر لنا سوء آدابنا ويصلحنا بحسن نظره انه أرحم الراحمين (فان قيل) فما معنى الرضا بالقضاء وحقيقة ذلك وحكمه (فاعلم) ان علماءنا قالوا ان الرضا ترك السخط والسخط ذكر غير ما قضى الله تعالى بانه أولى به وأصلح له فيما لا يستيقن فساده وصلاحه فهذا شرط فيه فاعلم ذلك (فان قلت) أليس الشرور والمعاصي بقضاء الله تعالى وقدره فكيف يرضى العبد بالشر ويلزمه ذلك (فاعلم) ان الرضا انما يلزم بالقضاء وقضاء الشر ليس بشر وانما الشر هو المقضى فلا يكون رضا بالشر (وقد قال) شيوخنا رحمهم الله تعالى ان المقضيات أربعة نعمة وشدة وخير وشر (فالنعمة) يجب الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضى ويجب عليه الشكر من حيث انها نعمة واظهار النعمة عليه بابداء أثر النعمة (والشدة) يجب أيضا الرضا فيها بالقاضي والقضاء والمقضى ويجب عليه الصبر من حيث انها شدة (والخير) يجب فيه الرضا بالقاضي والقضاء والمقضى ويجب عليه ذكر المنة من حيث انه خير وفق له (والشر) يجب عليه فيه الرضا بالقاضي والقضاء والمقضى من حيث انه مقضى لا من حيث انه شر وكونه مقضيا يرجع الى القضاء والقاضي بالحقيقة وهذا كما أنك ترضى مذهب المخالف ان يكون معلوما لك لا أن يكون مذهبا لك ثم كونه معلوما يرجع الى العلم فالرضا والمحبة انما يكونان بالحقيقة للعلم بمذهب المخالف لا بمذهبه فكذلك الرضا بالمقضى فان قيل فالراضي هل يكون مستزيدا قيل له نعم بشرط الخير والصلاح دون الحكم فلا يخرجه ذلك عن الرضا بل يدل على الرضا فهو أولى لان من أعجبه شيء ورضي ذلك استزاد منه (وكان النبي) صلى الله عليه وسلم اذا حضر اللبن يقول اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه وفي غيره يقول وزدنا خيرا منه وفي موضع من الموضعين لم يدل على انه غير راض بما قدر الله تعالى له من ذلك (فان قلت) فلم يذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم الاستثناء وشرط الخير والصلاح (فاعلم) ان هذه الامور انما تكون بالقلب وان ما يقال باللسان عبارة عن ذلك فلا معتبر بترك عبارته مع حصوله بالقلب فاعلم ذلك موفقا (العارض الرابع الشدائد والمصائب) وانما كفايتهما بالصبر (فعليك) بالصبر في المواطن كلها وانما ذلك لامرين أحدهما الوصول الى العبادة وحصول المقصود منها فان مبنى أمر العبادة كلها على الصبر واحتمال المشقات فمن لم يكن صبورا لم يصل الى شيء منها بالحقيقة وذلك ان من قصد عبادة الله تعالى وتجرد لها استقبلته شدائد ومحن ومصائب من وجوه (أحدها) انه لا عبادة الا وفي نفسها مشقة ولذلك كان كل هذا الترغيب فيه ووعد الثواب عليه اذ لا يتأتى فعل العبادة الا بقمع الهوى وقهر النفس اذ هي زاجرة عن الخير ومخالفة الهوى وقهر النفس من أشد الامور على الانسان (وثانيها) ان العبد اذا فعل الخير مع المشقة لزمه الاحتياط له حتى لا يفسد عليه والابقاء على العمل أشد من العمل (وثالثها) ان الدار دار محنة فمن كان فيها فلا بد له من الابتلاء بشدائدها ومصائبها وذلك أقسام فمنها المصيبة في الاهل والقرابات والاخوان والاصحاب بالموت والفقد والفراق وفي النفس بانواع الامراض والاوجاع وفي العرض بقتال الناس اياه والطمع فيه والازدراء به والغيبة والكذب عليه وفي المال بالذهاب والزوال والكل واحد من هذه المصائب لذعة وحرقة من نوع غير نوع الآخر فيحتاج الى الصبر عليها

جزء مقسوم ولا يتعين لك الابواب الا من عصى الله بهذه الاعضاء السبعة وهي العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل (اما العين) فانما خلقت لك لتهتدي بها في الظلمات وتستعين بها في الحاجات وتنظر بها الى عجائب ملكوت الارض والسموات وتعتبر بما فيها من الآيات فاحفظها عن ثلاث أو أربع أن تنظر بها الى غير محرم أو الى صورة مليحة بشهوة نفس أو تنظر بها الى مسلم بعين الاحتقار أو تطلع بها على عيب مسلم (وأما الاذن) فاحفظها عن ان تصغي بها الى البدعة أو الغيبة أو الفحش أو الخوض في الباطل أو ذكر مساوي الناس فانما خلقت لك لتسمع بها كلام الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمة أوليائه وتتوصل باستفادة العلم بها الى الملك المقيم والنعيم الدائم فاذا أصغيت بها الى شيء من المكاره صار ما كان لك عليك وانقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك فهذه غاية الخسران ولا تظن ان الاثم يختص به القائل دون المستمع ففي الخبر ان المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين (وأما اللسان) فانما خلق لك لتكثر به ذكر

كلها والا فيعمها الجزع والتلهف من التفرغ للعبادة (ورابعها) ان طالب الآخرة أشد ابتلاء وأكثر محنة أبدا ومن كان الى الله أقرب فالمصائب له فى الدنيا أكثر والبلاء عليه أشد أما سمع قوله صلى الله عليه وسلم أشد الناس بلاء الانبياء ثم العلماء ثم الامثل فالامثل فاذن من قصد الخير وتجرد لطريق الآخرة استقبلته هذه المحن فان لم يصبر عليها ولا يكون بحيث لا يلتفت اليها انقطع عن الطريق واشتغل عن العبادة فلا يصل الى شئ من ذلك (ولقد) أعلمنا الله سبحانه وتعالى باتقاء المحن والمصائب وابتلائنا بها وحقق ذلك وأكده فقال تعالى لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا اذى كثيرا ثم قال وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور فكأنه يقول وطنوا انفسكم على انه لابد لكم من أنواع البلايا فان تصبروا فانتم الرجال وعزائمكم عزائم الرجال فاذن من عزم على عبادة الله سبحانه يجب أولا ان يعزم على الصبر الطويل ويوطن نفسه على احتمال المشاق العظيمة المتوالية الى الموت والا فقد قصد الامر بغيرآلته وأتاه من غير وجهه (ولقد ذكر) عن الفضيل رحمه الله انه قال من عزم على قطع طريق الآخرة فليجعل فى نفسه أربعة الوان من الموت الابيض والاحمر والاسود والاخضر فالموت الابيض الجوع والاسود ذم الناس والاحمر مخالفة الشيطان والاخضر الوقائع بعضها على بعض (والثانى) من الامرين ما فى الصبر من خير الدنيا والآخرة فمن ذلك النجاة والنجاح قال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب معناه من يتق الله تعالى بالصبر يجعل له مخرجا من الشدائد (ومنها) الظفر بالاعداء قال الله تعالى فاصبر ان العاقبة للمتقين (ومنها) الظفر بالمراد قال الله تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا (وقيل) كتب يوسف فى جواب يعقوب عليهما السلام ان آباءك صبروا فظفروا فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا وفى هذا المعنى قيل

لا تيأسن وان طالت مطالبة * اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب ان يلجا

(ومنها) التقدم على الناس والامامة قال تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا (ومنها) الثناء من الله سبحانه وتعالى قال سبحانه انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب (ومنها) البشارة والصلاة والرحمة قال الله تعالى وبشر الصابرين الى قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة الآية (ومنها) المحبة من الله تعالى قال الله تعالى والله يحب الصابرين (ومنها) الدرجات العلا فى الجنة قال الله تعالى أولئك يجزون الغرفة بما صبروا (ومنها) الكرامة العظيمة قال تعالى سلام عليكم بما صبرتم (ومنها) ثواب بلا غاية ولا نهاية خارجا عن أوهام الخلق وأعدادهم وتحصيلهم قال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (فسبحانه) من اله سيد ماجد ما أكرمه وكل هذه الكرامات فى الدنيا والآخرة يعطيها عبده على صبر ساعة فبان لك ان خير الدنيا والآخرة فى الصبر قال صلى الله عليه وسلم ما أعطى أحد من عطاء خيرا أوسع من الصبر وعن عمر رضى الله عنه انه قال جميع خير المؤمنين فى صبر ساعة واحدة ولقد أحسن القائل

الصبر مفتاح ما يرجى * وكل خير به يكون * فاصبر وان طالت الليالى

فربما أمكن الحرون * وربما نيل باصطبار * ما قيل هيهات لا يكون

(ولقائل آخر) صبرت وكان الصبر منى سجية * وحسبك ان الله أثنى على الصبر

سأصبر حتى يحكم الله بيننا * فاما الى يسر واما الى عسر

(فعليك) باغتنام هذه الخصلة الشريفة المحمودة وبذل المجهود فيها تكن من الفائزين والله تعالى ولى التوفيق (فان قلت) فما حقيقة الصبر وحكمه (فاعلم) ان لفظة الصبر من طريق اللغة الحبس قال الله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم الآية أى احبس نفسك معهم وانما وصف الله تعالى بالصبر على معنى حبسه العذاب عن المجرمين فلا يعاجلهم به ثم المعنى الذى هو من مساعى القلب يسمى صبرا لانه حبس النفس

الله تعالى وتلاوة كتابه وترشد به خلق الله تعالى الى طريقه وتظهر به ما فى ضميرك من حاجات دينك ودنياك فاذا استعملته فى غير ما خلق له فقد كفرت نعمة الله تعالى فيه وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم الا حصائد السنتهم فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لا يكبك فى قعر جهنم ففى الخبر ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها أصحابه فيهوى بها فى قعر جهنم سبعين خريفا وقتل شهيد فى المعركة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائل هنيأ له الجنة فقال صلى الله عليه وسلم ما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه فاحفظ لسانك من ثمانية (الاول) الكذب فاحفظ منه لسانك فى الجد والهزل ولا تعود نفسك الكذب هزلا فيدعوك الى الكذب فى الجد والكذب من أمهات الكبائر ثم انك اذا عرفت بذلك سقطت عدالتك وانتفى قولك وتزدريك الاعين وتحتقرك واذا أردت أن تعرف قبح الكذب من نفسك فانظر الى كذب غيرك والى نفرة نفسك عنه واستحقارك لصاحبه واستقباحك لما جاء به

عن الجزع والجزع فيما قاله العلماء ذكر اضطرابك في الشدة وقيل بل ارادة الخروج من الشدة بالحكم
والصبر تركه وحسن الصبر ذكر مقدار الشدة ووقتها وانها لا تزيد ولا تنقص ولا تتقدم ولا تتأخر ولا فائدة
في الجزع بل فيه الضرر والخطر وحسن هذا الخطر ذكر حسن عوض الله تعالى عليه وكريم الذخر في
ذلك لديه فهذه هذه وبالله التوفيق

(فصل) (فعليك) بقطع هذه العقبة الشديدة المنيعة بدفع هذه العوارض الاربعة وازاحة عللها والا فلا
تدعك تذكر مقصودك من العبادة وتتفكر فيها فضلا عن ان تدركها فحصلها وان لكل واحد منها شغلا شاغلا
عاجلا وآجلا (ثم) ان أعظمها وأعضلها أمر الرزق وتدبيره فانه البلية الكبرى لعامة الخلق أتعبت نفوسهم
وشغلت قلوبهم وأكثرت همومهم وضيعت أعمارهم وأعظمت تبعاتهم وأوزارهم وعدلت بهم عن باب
الله تعالى وخدمته الى خدمة الدنيا وخدمة المخلوقين فعاشوا في الدنيا في غفلة وظلمة وتعب ونصب ومهانة وذل
وقدموا الى الآخرة مفاليس بين أيديهم الحساب والعذاب ان لم يرحم الله تعالى بفضله وانظر كم آية أنزل الله
تعالى في ذلك وكم ذكر من وعده وضمانه وقسمه على ذلك ولم تزل الانبياء والعلماء يعظون الناس ويبينون
لهم الطريق ويصنفون لهم الكتب ويضربون لهم الامثال ويخوفونهم بالله تعالى وهم مع ذلك لا يهتدون
ولا يتقون ولا يطمئنون بل هم في غمرة من ذلك لا يزالون يخافون ان يفوتهم غداء أو عشاء وأصل ذلك كله قلة
التدبر لآيات الله سبحانه وقلة التفكر في صنائع الله وترك التذكر لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك
التأمل لاقوال الصالحين مع الاسترسال لوساوس الشيطان والاصغاء الى كلام الجاهلين والاغترار بعادات
الغافلين حتى تمكن الشيطان منهم ورسخت العادات في قلوبهم فتأدى بهم ذلك الى ضعف القلب ورقة
اليقين (وأما الاخيار) الذين هم أولوا الابصار وأرباب الجد والاجتهاد فابصروا طريق السماء فلم يعبؤا
باسباب الارض واعتصموا بحبل الله فلم يكترثوا بعلائق الخلق وتيقنوا بآيات الله تعالى وابصروا طريقه فلم
يلتفتوا الى وساوس الشيطان والخلق والنفس فاذا وسوس لهم شيطان أو نفس أو انسان بشيء قاموا معه
بالمناقشة والمدافعة والمخالفة حتى ولى الخلق عنهم واعتزل عنهم الشيطان وانقادت لهم النفس واستقام
لهم الطريق المستقيم على ما ذكر عن ابراهيم بن أدهم رحمه الله انه لما أراد ان يدخل البادية أتاه الشيطان
نخوفه بأن هذه بادية مهلكة ولا زاد معك ولا سبب فعزم على نفسه رحمه الله ان يقطع البادية على تجرده ذلك وان
لا يقطعها حتى يصلي تحت كل ميل من أميالها ألف ركعة وقام بما عزم عليه وبقي في البادية اثنتي عشرة سنة حتى
ان الرشيد حج في بعض تلك السنين فرآه تحت ميل يصلي فقيل له هذا ابراهيم بن أدهم يصلي فأتاه فقال له كيف
تجدك يا أبا اسحق فأنشأ ابراهيم يقول

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه * وجاد بدنياه لما يتوقع

وعن بعض الصالحين رحمه الله أنه كان في بعض البوادي فوسوس له الشيطان بأنك متجرد وهذه بادية مهلكة
لا عمران فيها ولا اناس فعزم على نفسه بان يمضي على تجرده وان يترك الطريق حتى لا يأخذ من الناس ولا يأكل
شيأ حتى يجعل في فمه السمن والعسل ثم عدل عن الشارع ومر على وجهه ما شاء الله قال رحمه الله فسرت ما شاء الله
فاذا بقافلة قد أضلت الطريق وهم يسيرون فلما أبصرتهم رميت بنفسي الى الارض لعلهم لا يبصروني فسيرهم
الله عز وجل حتى وقفوا علي فغمضت عيني فدنوا مني وقالوا هذا منقطع غشي عليه من الجوع والعطش فهاتوا
سمنا وعسلا نجعله في فيه لعله يفيق فأتوا بسمن وعسل فسددت فمي وأسناني فأتوا بسكين يعالجون في حتى
يفتحوه فضحكت وفتحت فاي فلما رأوا ذلك مني قالوا مجنون أنت قلت لا والحمد لله تعالى وأخبرتهم ببعض
ما جرى لي مع الشيطان فتعجبوا من ذلك (وعن بعض مشايخنا) رحمهم الله قال نزلت في بعض أسفاري في أيام

وكذلك فافعل في جميع عيوب نفسك فانك لا تدري قبيح عيوبك من نفسك بل من غيرك فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لا محالة فلا ترض لنفسك ذلك (الثاني) الخلف في الوعد فاياك ان تعد بشيء ولا تفي به بل ينبغي ان يكون احسانك الى الناس فعلا بلا قول فان اضطررت الى الوعد فاياك ان تخلف الا لعجز أو ضرورة فان ذلك من امارات النفاق وخبائث الاخلاق قال عليه السلام ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان (الثالث) حفظ اللسان من الغيبة والغيبة أشد من ثلاثين زنية في الاسلام كذلك ورد في الخبر ومعنى الغيبة ان تذكر انسانا بما يكرهه لو سمعه فانت مغتاب ظالم وان كنت صادقا واياك وغيبة القراء المرائين وهو ان تفهم المقصود من غير تصريح فتقول أصلحه الله فقد أساءني وغمني ما جرى عليه فنسأل الله ان يصلحنا واياه فان هذا جمع بين خبيثين أحدهما الغيبة اذ بها يحصل التفهيم والآخر تزكية النفس والثناء عليها بالتحرج والصلاح ولكن ان كان مقصودك من قولك

التعلم مسجدا بعيدا عن الناس وكنت متجردا على عادة أوليائنا فوسوس الى الشيطان بأن هذا المسجد بعيد عن الناس لو سرت الى مسجد بين الناس لرآك أهله وقاموا بكفايتك فقلت لا أبيت الا ههنا وعلى عهد الله ان لا آكل شيأ الا الحلواء ولا آكل حتى يوضع في فمي اللقمة اللقمة فصليت العتمة وأغلقت الباب فلما مضى صدر من الليل اذا أنا بانسان يدق الباب ومعه سراج فلما أكثر الدق فتحت الباب فاذا أنا بعجوز معها شاب وقد دخلت فوضعت بين يدي طبقا من الخبيص وقالت هذا الشاب ولدي صنعت له هذا الخبيص وجرى بيننا كلام فحلف ان لا يأكل حتى يأكل معه رجل غريب أو قالت هذا الغريب الذي في المسجد فكل رحمك الله فأخذت تضع في في لقمة وفي فم ولدها لقمة حتى اكتفينا ثم انصرفا وأغلقت الباب على متعجبا متحيرا فهذه وأمثالها من مجاهدات الصالحين ومناقضتهم للشيطان فان لك في ذلك فوائد ثلاثة احداها ان تعلم ان الرزق لا يفوت من قدر له بحال والثانية ان تعلم ان أمر الرزق والتوكل لهم جد وان للشيطان فيه غوائل ووساوس عظيمة حتى ان مثل أولئك الائمة الزهاد لم يتخلصوا من ذلك ولم ييأس منهم الشيطان بعد طول تلك الرياضات وكثرة المجاهدات التي سبقت لهم حتى يحتاجوا الى دفعه بهذه المناقضات ولعمري ان من جاهد النفس والشيطان سبعين سنة لا يأمن ان وسوساته كوسوسات المبتدي في العبادة بل اغافل لم يجتهد ساعة في الرياضة ولو ظفر به لفضحه وأهلكه هلاك الغافلين المغترين وفي ذلك عبرة لأولي الابصار والثالثة أن تعلم ان الامر لا يتم الا بالجد المحض والمجاهدة البالغة فانهم كانوا لحما ودما وبدنا وروحا مثلك بل كانوا أنحف ابدانا وأضعف أركانا وأدق عظاما منك ولكن كانت لهم قوة العلم ونور اليقين وهمة أمر الدين حتى قووا على مثل تلك المجاهدات والقيام بحق تلك المقامات فانظر لنفسك رحمنا الله واياك وداوها من هذا الداء المعضل العلك تفلح ان شاء الله تعالى

(فصل) ثم اعلم بعد هذه الجملة أني تجرد لك نكتا وجدتها بحيث تمكث في القلب اذا تذكرتها وتكفيك مؤنة هذا الباب وتدلك على واضحة من الحق ان تأملتها وعملت بها والله سبحانه الموفق الاولى أن تعلم ان الله تعالى ضمن الرزق لعباده في كتابه فقد ضمن رزقك وتكفل لك به فما تقول لو وعدك ملك من ملوك الدنيا انه يضيفك الليلة ويعشيك وأنت حسن الظن به انه صادق ولا يكذب ولا يخلف الوعد بل لو وعدك بذلك سوقي أو يهودي أو نصراني أو مجوسي مستور وعندك بظاهره عفيف في مقالته ألست تثق به وبوعده وتطمئن بقوله ولا تهتم لعشائك تلك الليلة اتكالا عليه فما بالك وقد وعدك الله تعالى وضمن لك رزقك وتكفل به بل أقسم عليه في غير موضع وأنت لا تطمئن بوعده ولا تسكن الى قوله وضمانه ولا تنظر الى قسمه بل يضطرب قلبك ويهتم بالها من فضيحة لو رأيتموها بالها ومن مصيبة لو علمت حالها وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال

أتطلب رزق الله من عند غيره * وتصبح من خوف العواقب آمنا
وترضى بصراف وان كان مشركا * ضمينا ولا ترضى بربك ضامنا
كأنك لم تقرأ بما في كتابه * فأصبحت منحول اليقين مباينا

ولهذا المعنى يجر هذا الامر الى الشك والشبهة ويخاف على صاحبه والعياذ بالله سلب المعرفة والدين ولهذا المعنى قال سبحانه وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وعلى الله فليتوكل المؤمنون فسبب المؤمن المتهم لامر دينه هذه النكتة الواحدة ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والثانية أن تعلم ان الرزق مقسوم صح ذلك في كتاب الله تعالى وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلم ان قسمته لا تتبدل ولا تتغير فان أنكرت القسمة أو جوزت نقضها فذلك باب الكفر تقرعه نعوذ بالله وان علمت أنه حق لا يتغير فأي فائدة في الاهتمام والطلب الا الذل والهوان في الدنيا والشدة والخسران في الآخرة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم مكتوب على ظهر الحوت والثور رزق فلان بن فلان فلا يزداد الحريص الا جهدا وفي ذلك يقول شيخنا رحمه الله ان ما قدر لماضغيك أن يمضغاه فلا بد يمضغه غيرك فكل رزقك وبحلك بالعز ولا تأكله بالذل وهذه

نكتة

السروان اغتممت لسيئته فعلامته انك لا تريد فضيحته واظهار غيبته وفي اظهارك الغم بعينه اظهار الغيبة ويكفيك زاجرا عن الغيبة قوله تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه فقد شبهك الله بآكل لحم الميتة فأجدرك أن تحترز منها وبعدك عن غيبة المسلمين أمر لو تفكرت فيه وهو أن تنظر في نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن وهل أنت مقارف معصية سرا أو جهرا فاذا عرفت ذلك من نفسك فاعلم ان عجزه عن التنزه عما نسبته اليه كعجزك وعذره كعذرك وكما تكره أن تفتضح وتذكر عيوبك فهو أيضا يكرهه فان سترته ستر الله عيبك وان فضحته سلط الله عليك ألسنة حدادا يمزقون عرضك في الدنيا ثم يفضحك الله في الآخرة على رؤس الخلائق يوم القيامة وان نظرت الى ظاهرك وباطنك فلم تطلع فيهما على عيب ونقص في دين ولا دنيا فاعلم أن جهلك بعيوب نفسك من أنواع الحماقة ولا عيب أعظم من الحمق ولو أراد الله بك خيرا لبصرك بعيوب نفسك فرؤيتك نفسك بعين الرضا غاية غباوتك وجهلك ثم ان كنت صادقا في ظنك

نكتة مقنعة للرجال والثالثة ما سمعت من شيخي الامام رحمه الله يحكي عن الاستاذ رحمه الله انه كان يقول انه ما يقنعني في أمر الرزق اني تذكرت وقلت في نفسي أليس هذا الرزق للحياة والعيش والميت ما يصنع بالرزق فاذا كان حياة العبد في خزانة الله تعالى وبيده فكذلك الرزق ان شاء يعطيني وان شاء يمنعني وهو غيب عني موكول الى الله تعالى يدبره كيف يشاء وأنا ساكن النفس بذلك وهذه نكتة لطيفة مقنعة لاهل التحقيق والرابعة مما ذكرنا في هذا الفصل أن الله تعالى ضمن رزق العباد ولم يضمن الا الرزق المضمون الذي هو الغذاء والتربية وفيه القوام والعدة (وأما الاسباب) من الطعام والشراب فالعبد اذا تجرد لعبادة الله تعالى وتوكل على الله ثم عسى يحبس عنه الاسباب فلا يعبأ بذلك ولا يضجر لما علم من حقيقة الامر أن الضمان لقوام البنية والتوكل على الله سبحانه انما هو في هذا المعنى لا غير والمنتظر من الله تعالى هذا المعنى وأن الله تعالى لامحالة يمده بالقوة ليقوم بحق العبادة والخدمة ما دام له أجل وتكليف بالعبادة وهذا هو المقصود والله سبحانه قادر على ما يشاء ان شاء أن يقيم بنية عبده بطعام وشراب أو بطين وتراب أو بتسبيح وتهليل كالملائكة وان شاء بغير هذا كله فليس مطلوب العبد الا القوام والقوة للعبادة ليس الاكل والشرب وشدة الشهوة ونيل اللذة فلا اعتبار اذن بالاسباب ولهذا المعنى قويت العباد والزهاد على الاسفار وطي الليالي والايام فمنهم من لم يأكل عشرة أيام ومنهم من لم يأكل شهرا وشهرين وهو على قوته ومنهم من كان يستف الرمل فجعله الله تعالى له غذاء نحو ما ذكر عن سفيان الثوري رحمه الله انه نفدت نفقته بمكة فمكث خمسة عشر يوما يستف الرمل وقال أبو معاوية الاسود رأيت ابراهيم بن أدهم يأكل الطين عشرين يوما وعن الاعمش قال قال لي ابراهيم التيمي رحمه الله تعالى ما أكلت منذ شهر قلت منذ شهر قال ولا شهرين الا الان انسانا أنشدني الله على عنقود من عنب فأكلته فأنا أشتكي بطني (قلت) أنا ولا تعجبن من ذلك فان لله تعالى القدرة على ما يشاء مثل هذا المريض تراه لا يأكل شهرا وهو حي يعيش والمريض على كل حال أضعف نفسا وأرق طبعا من القوي (وأما) الذي يموت جوعا فذلك أجل حضره كالذي يموت شبعا وتخمة ولقد بلغني عن أبي سعيد الخراز رحمه الله أنه قال كان حالي مع الله سبحانه أن يطعمني في كل ثلاثة أيام فدخلت البادية فمضت علي ثلاثة أيام ما طعمت فلما كان في اليوم الرابع وجدت ضعفا فجلست مكاني فاذا بهاتف يقول يا أبا سعيد أيما أحب اليك سبب أو قوى فقلت لا الا القوى فقمت من وقتي وقد استقللت فأقمت اثني عشر يوما ما طعمت ولا وجدت ألما لذلك (فاما) اذا رأى العبد احتباس الاسباب عنه وعلم من نفسه التوكل على الله فليستيقن أن يمده الله تعالى بالقوة فلا يضجرن لذلك بل حقه أن يشكر الله تعالى على ذلك شكرا كثيرا فان له المنة والصنع اللطيف اذ رفع عنه المؤنة وأعطاه المعونة وحصل له الاصل والمقصود ودفع عنه الثقل والواسطة وخرق له علائق العادة وأراه طريق القدرة وشبه حاله بحال الملائكة ورفعه عن حالة البهائم والعامة في تلك الكرامة فتأمل هذا الاصل الكبير تغنم الربح الكثير العظيم ان شاء الله تعالى (قلت أيضا) ولعلك تقول انك أطنبت في هذا الفصل خلاف شرط الكتاب (وأقول) لعمر الله انه لقليل في جنب ما يحتاج اليه في هذا المعنى اذ هو أهم شأنا في العبادة بل عليه مدار أمر الدين والدنيا والعبودية فمن له همة في هذا الشأن فليستمسك بذلك وليراعه حقه والا فهو عن المقصود بمعزل والذي يدلك على بصيرة علماء الآخرة العارفين بالله أنهم بنوا أمرهم على التوكل على الله والتفرغ لعبادة الله وقطع العلائق كلها فكم صنفوا من كتاب وكم أوصوا بوصية وقيض الله لهم أعوانا من السادة وأصحابا بحتى يمشي لهم من الخير المحض ما لم يمش لطائفة من طوائف الائمة الازهاد الكرامية فانهم بنوا مذهبهم على أصول غير مستقيمة وما زلنا أعزة ما دمنا على منهاج أئمتنا يخرج من معابدنا ومدارسنا كل حين امام امام في العلم كالاستاذ أبي اسحق وأبي حامد وأبي الطيب وابن فورك وشيخنا الامام وأمثالهم من السادة وامام صديق في العبادة كأبي اسحق الشيرازي وأبي سعيد الصوفي ونصر المقدسي وغيرهم ممن فاق الامة علما وزهدا حتى ضعفت القلوب من بعضنا وتلطفنا

فاشكر الله تعالى عليه ولا تفسده بسب الناس والتمضمض في اعراضهم فان ذلك من أعظم العيوب (الرابع) المراء والجدال ومناقشة الناس في الكلام فذلك فيه ايذاء للمخاطب وتجهيل له وطعن فيه وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم ثم هو مشوش للعيش فانك لا تماري سفيها الا ويؤذيك ولا تماري حليما الا ويقليك ويحقد عليك وقد قال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة ولا ينبغي أن يخدعك الشيطان ويقول لك أظهر الحق ولا تداهن فيه فان الشيطان أبدا يستجر الحمقى الى الشر في معرض الخير فلا تكن ضحكة للشيطان يسخر بك فاظهارك الحق حسن مع من يقبله منك وذلك بطريق النصيحة في الخفية لا بطريق المماراة وللنصيحة صيغة وهيئة ويحتاج فيها الى تلطف والا صارت فضيحة وصار فسادها أكثر من صلاحها ❊ ومن خالط متفقهة العصر غلب على طبعه المراء والجدال وعسر عليه الصمت اذ ألقى اليه علماء السوء أن ذلك هو الفضل والقدرة على

بشيء من العلائق التي ضررها أكثر من نفعها فتراجعت الامور وتقاعدت الهمم وطارت البركات وزالت اللذات والحلاوات فلا يكاد يصفو لاحد عبادة أو يحصل له علم وحقيقة وان الهمة التي تظهر منا الآن ليست الا ممن بقي على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبي ومحمد بن ادريس الشافعي والمزني وحرملة وغيرهم من أئمة الدين رحمهم الله أجمعين فهم كما قال القائل

وما صحبوا الايام الا تعففا * وما وجدوا من حسبه بعدهم بدا
أفاضل صديقون أهل ولاية * الى سيدا لسادات قد جعلوا القصدا
تحالف عقد الصبر من كل صابر * وما حلت الايام من عقدهم عقدا

وكان في الصدر الاول ماو كافرسانا فصرنا سوقة وكنا فرسانا فصرنا رجالة وليتنا لا ننقطع عن الطريق بمرة والله المستعان على المصائب وهو المسؤل أن لا يسلبنا هذا الرمق انه جواد كريم منان رحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (وأما التفويض) فتأمل فيه أصلين أحدهما انك تعلم ان الاختيار لا يصلح الا لمن كان عالما بالامور بجميع جهاتها ظاهرها وباطنها وحالها وعاقبتها والا فلا يأمن أن يختار الفساد والهلاك على ما فيه الخير والصلاح ألا ترى انك لو قلت لبدوي أو قروي أو راعي غنم انقد لي هذه الدراهم وميز لي بين جيدها ورديئها فانه لا يهتدي لذلك ولو قلت لسوقي غير صيرفي فربما يعسر أيضا فلا تأمن اذن الا أن تعرضها على الصيرفي الخبير بالذهب والفضة وما فيهما من الخواص والاسرار وهذا العلم المحيط بالامور من جميع الوجوه لا يصلح الا لله رب العالمين فلا يستحق اذن أحد أن يكون له الاختيار والتدبير الا الله وحده لا شريك له ولذلك يقول عز من قائل وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ثم قال تعالى وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (وحكى) ان بعض الصالحين قيل له من قبل الله تعالى سل تعط وكان موفقا فقال ان عالما بجميع الوجوه يقول لجاهل من جميع الوجوه سل تعط ايش أعلم ماذا يصلح لي فأسأله ولكن اختر أنت لي فهذه هذه (والاصل الثاني) ما تقول لو أن رجلا قال لك أنا أقوم بجميع أمورك وأدبر جميع ما تحتاج اليه من مصالحك ففوض الامر كله الى واشتغل أنت بشأنك الذي يعنيك وهو عندك أعلم أهل زمانك وأحكمهم وأقواهم وأرحمهم وأتقاهم وأصدقهم وأوفاهم ألست تغتنم ذلك وتعده أعظم نعمة وتمن منه أكبر منة وتقدم له أوفر شكر وأجمل ثناء ثم اذا اختار لك شيأ لا تعرف وجه الصلاح فيه فلا تضجر لذلك بل تثق وتسامح الى تدبيره وتعلم انه لا يختار لك الا ما هو الخير وما ينظر لك الا الصلاح كيفما كان الامر بعدما وكلت الامر اليه وفوضت ذلك فالك اذن لا تفوض الامر الى الله رب العالمين سبحانه فهو الذي يدبر الامر كله من السماء الى الارض فهو أعلم كل عالم وأقدر كل قادر وأرحم كل راحم وأغنى كل غني ليختار لك بلطيف علمه وحسن تدبيره ما لا يبلغه علمك ولا يدركه فهمك واشتغل أنت بشأنك الذي يعنيك في عاقبتك واذا اختار لك أمرا لا تعلم وجه سره رضيت بذلك واطمأننت اليه كيفما كان فهو الصلاح والخير فتأمل راشدا ان شاء الله وبالله التوفيق (وأما) الرضا بالقضاء فتأمل فيه أصلين مقنعين لا مزيد عليهما أحدهما ما في الرضا من الفائدة في الحال والمآل (اما) الفائدة في الحال ففراغ القلب وقلة الهم من غير فائدة ولذلك قال بعض الزهاد رحمه الله اذا كان القدر حقا فالهم فضلة وأصله الخبر المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود رضي الله عنه ليقل همك وما قدر يكن وما لم يقدر لم يأتك هذا هو الكلام الجامع النبوي البالغ في قلة لفظه وكثرة فائدة معناه (واما) الفائدة في المآل فثواب الله تعالى ورضوانه قال الله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه وما في السخط من الهم والحزن والضجر في الحال والوزر والعقوبة في المآل بلا فائدة اذ القضاء نافذ فلا ينصرف بهمك وسخطك كما قيل

ما قد قضى يا نفس فاصطبري له * ولك الامان من الذي لم يقدر
وتحققي أن المقدر كائن * حتما عليك صبرت أم لم تصبر

المحاسبة والمناقشة هو الذي يتمدح به فقر منهم فرارا لهم من الاسد واعلم ان المراء سبب المقت عند الله وعند الخلق (الخامس) تزكية النفس قال الله تعالى فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى وقيل لبعض الحكماء ما الصدق القبيح فقال ثناء المرء على نفسه فاياك أن تتعود ذلك واعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس ويوجب مقتك عند الله فاذا أردت أن تعرف أن ثناءك على نفسك لا يزيد في قدرك عند غيرك فانظر الى أقرانك اذا أثنوا على أنفسهم بالفضل والجاه والمال وكيف يستنكره قلبك عليهم ويستثقله طبعك وكيف تذمهم عليه اذا فارقتهم فاعلم انهم أيضا في حال تزكيتك لنفسك يذمونك في قلوبهم ناجزا وسيظهرونه بألسنتهم اذا فارقتهم (السادس) اللعن فاياك ان تلعن شيأ مما خلق الله تعالى من حيوان أو طعام أو انسان بعينه ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلة بشرك أو كفر أو نفاق فان المطلع على السرائر هو الله تعالى فلا تدخل بين العباد وبين الله تعالى * واعلم انك يوم القيامة لا يقال لك لم لم تلعن فلانا ولم سكت عنه بل لو لم

(والعاقل)

(والعاقل) لا يختار الهم بلا فائدة مع الوزر والعقوبة على راحة القلب وثواب الجنة (والاصل الثانى) ما فى السخط من عظام الخطر والضرر والكفر والنفاق الا أن يتداركه الله تعالى وتأمل قوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما فنفى الايمان وأقسم على فقد الايمان عمن سخط ووجد فى نفسه حرجا من قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف حال من سخط قضاءه تعالى وقد روينا أن الله تعالى يقول من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر على نعمائى فليتخذ الها سوائى قيل كأنه يقول هذا الا رضا بى ربا حين يسخط فليتخذ ربا آخر يرضاه وهذا غاية الوعيد والتهديد لمن عقل ولقد صدق بعض السلف اذ قيل له ما العبودية وما الربوبية فقال للرب أن يقضى وللعبد أن يرضى فاذا قضى الرب ولم يرض العبد فما هنالك عبودية ولا ربوبية فتأمل هذا الاصل وانظر لنفسك لعلك تسلم بعون الله وتوفيقه (وأما الصبر) فانه دواء مر وشربة كريهة مباركة تجلب كل منفعة وتدفع عنك كل مضرة فاذا كان الدواء بهذه الصفة فالانسان العاقل يكره النفس على شربه وتجرعه ويغص على مرارته وحدته ويقول مرارة ساعة راحة سنة (وأما) المنافع التى يجلبها الصبر فاعلم أن الصبر أربعة أقسام صبر على الطاعة وصبر عن المعصية وصبر عن فضول الدنيا وصبر على المحن والمصائب فاذا احتمل مرارة الصبر وصبر فى هذه المواطن الاربعة تحصل له الطاعات ومنازلها من الاستقامة وثوابها الجزيل فى العاقبة ثم لا يقع فى المعاصى وبلياتها فى الدنيا وتبعاتها فى الآخرة ثم لا يبتلى بطلب الدنيا وما لها من الشغل فى الحال والتبعة فى المآل ثم لا يحبط أجره على ما ابتلى به وذهب عنه فحصل اذن بسبب الصبر الطاعة ومنازلها الشريفة وثوابها والتقوى والزهد والعوض والثواب الجزيل من الله سبحانه وتفصيل ذلك أمر لا يعلمه الا الله عز وجل (وأما) دفع المضار فيريحه أولا من مؤنة الجزع ومقاساته فى الدنيا ثم وزره وعقوبته فى العقبى (وأما) انه ومن ضعف عن الصبر وسلك طريق الجزع فانه كل منفعة ولحقه كل مضرة اذ لا يصبر على مشقة الطاعة فلا يفعل الطاعة ولا يصبر على حفظها فيحبطها أولا يصبر على المواظبة عليها فلا يصل الى منزلة شريفة فيها من درجات الاستقامة أولا يصبر عن معصية فيقع فيها أو عن فضول فيشتغل به أولا يصبر على مصيبة فيحرم ثواب الصبر وربما يكثر الجزع حتى يفوت العوض بسبب ذلك فتكون له مصيبتان احداهما فوت الشئ والاخرى فوت الاجر والعوض وحاول المكروه وحرمان الصبر ولقد قيل حرمان الصبر على المصيبة أشد من المصيبة فأى فائدة فى شئ يذهب بالحاصل الموجود ولا يرد عليك الذاهب المفقود فاجتهد اذا فاتك أحدهما ان لا يفوتك الآخر (ومن الكلام الجامع) ما ذكر ان عليا رضى الله عنه عزى رجلا فقال ان صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور وان جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور (ثم أقول) فجملة الامر أن قطع القلب عن العلائق المألوفة ومنع النفس عن العادات الراسخة بالتوكل المحض على الله جل اسمه وترك التدبير فى الامور وتفويضها الى الله سبحانه من غير علم بما هو السر فيها وكبح النفس عن السخط والجزع مع تسارع النفس اليه واكراهها على لجام الرضا وتجرع شربة الصبر مع نفرتها عن ذلك لامر مر وعلاج شديد وحمل ثقيل ولكنه تدبير سديد وطريق مستقيم وله عاقبة محمودة وأحوال سعيدة مسعودة وما تقول فى الوالد المشفق الغنى اذا منع ولده العزيز رطبة أو تفاحة يأكلها وهو أرمد وسلمه الى المعلم الغليظ السائس وحبسه طول النهار عنده ويضجره ويحمله الى الحجام ليحجمه فيوجعه ويقلقه أترى أنه منع ذلك من بخل فيه فكيف وهو يعطى الاجانب ويوسع عليهم أو هوان لهذا الولد عنده كيف وهو يكنز له جميع ما فى يديه أو قصد بذلك اتعابه وايذاءه لبغض له كيف وهو قرة عينه وثمرة فؤاده ولو هبت عليه ريح لعز عليه ذلك كلا ولكن لما علم ان صلاحه فى ذلك وان بهذا التعب القليل يصل الى خير كثير ونفع عظيم (وما تقول) فى الطبيب الحاذق الناصح المحب اذا منع المريض الدنف شربة ماء وهو ظمآن يتقلى كبده وسقاه شربة اهليلج كريهة تنزع عن ذلك نفسه وطبعه أترى ان ذلك منه معاداة وايذاء كلا بل هو نصح واحسان لما علم يقينا أن فى اعطائه شهوته ساعة

تلعن ابليس طول عمرك ولم تشغل لسانك بذكره لم تسئل عنه ولم تطالب به يوم القيامة واذا لعنت أحدا من خلق الله تعالى طولبت ولا تذم شيأ مما خلق الله تعالى فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يذم الطعام الردىء قط بل كان اذا اشتهى شيأ أكله والا تركه (السابع) الدعاء على الخلق احفظ لسانك عن الدعاء على أحد من خلق الله تعالى وان ظلمك فكل أمره الى الله تعالى ففى الحديث ان المظلوم ليدعو على ظالمه حتى يكافئه ثم يكون للظالم فضل عنده يطالبه به يوم القيامة وطول بعض الناس لسانه على الحجاج فقال بعض السلف ان الله لينتقم للحجاج ممن يتعرض له بلسانه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه (الثامن) المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس فاحفظ لسانك منه فى الجد والهزل فانه يريق ماء الوجه ويسقط المهابة ويستجر الوحشة ويؤذى القلوب وهو مبدأ اللجاج والغضب والتصارم ويغرس الحقد فى القلوب فلا تمازح أحدا وان مازحوك فلا تجبهم وأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وكن من الذين اذا مروا باللغو مروا كراما فهذه فى جوامع آفات اللسان ولا يعينك عليه الا

هلاكه وعطبه رأسا وفي منع ذلك شفاؤه وبقاؤه فتأمل أيها الرجل اذا حبس الله عنك رغيفا أو درهما فتعلم يقينا أنه علم ما تريد ويقدر على ايصاله اليك وله الجود والفضل ويعلم حالك فلا يخفى عليه شيء فلا عدم ولا عجز ولا خفاء ولا بخل تعالى عن ذلك وتقدس فانه أغنى الاغنياء وأقدر القادرين وأعلم العلماء وأجود الاجودين فتعلم اذن بالحقيقة أنه لم يمنعك الا اصلاحا واختيارا كيف وهو الذي يقول خلق لكم ما في الارض جميعا كيف وهو الذي جاد عليك بمعرفته وهي التي تتلاشى في جنبها الدنيا بأسرها وفي الخبر المشهور ان الله تعالى يقول اني لاذود أوليائي عن نعيم الدنيا كما يذود الراعي الشفيق ابله عن مبارك الغرة واذا ابتلاك بشدة فاعلم يقينا انه غني عن امتحانك وابتلائك عالم بحالك بصير بضعفك وهو بك رؤف رحيم أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم الله تعالى أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها فاذا علمت هذا علمت انه لم ينزل بك هذا المكروه الا اصلاحا لكن جهلته أنت وهو عليم بذلك ولهذا المعنى تراه كثر ابتلاء أوليائه وأصفيائه الذين هم أعز عباده حتى يقول صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله قوما ابتلاهم ويقول النبي ان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الشهداء ثم الامثل فالامثل فاذا رأيت الله يحبس عنك الدنيا أو يكثر عليك الشدائد والبلوى فاعلم أنك عنده عزيز وأنك عنده بمكان على وانه يسلك بك طريق أوليائه فانه يراك ولا يحتاج الى ذلك أما تسمع قوله تعالى واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا بل اعرف منته عليك فيما يحفظه عليك من صلاحك ويكثر من أجورك وثوابك وينزلك منازل الابرار والاعزة عنده فكم ترى من عواقب حميدة ومواهب كريمة والله ولي التوفيق بمنه وفضله

(فصل) وبالجملة اذا علمت يقينا ان الله تعالى هو المتضمن رزقك الذي لا بد لك منه في بقائك وقيامك بعبادته وانه القادر على ما يشاء كيف شاء وهو البصير بحاجتك حالا فحالا ساعة فساعة اتكلت على ضمانه الحق ووعده الصدق وسكن قلبك بذلك وانصرفت عن ذكر العلائق والاسباب وتعلق قلبك بها اذ العلائق لا تغنيك ولا تكفيك دون الله عز وجل فانه تعالى ييسر أكلها وشربها ثم هو الذي يمرئها ويهنئها ثم هو الذي يحدث قوتها ونفعها ويدفع عنك ثقلها وضررها وهو تعالى يغنيك ويكفيك دونها اذا شاء فالامر كله اليه وحده لا شريك له فتوكل عليه لا غير وكذلك تترك التدبير في أمورك الى من يدبر السماء والارض وتريح نفسك عن شيء لا يبلغه علمك وفكرك من أمر غد ونظرك في أمر يكون غدا أو لا يكون وأنه كيف يكون وتكف عن لعل ولو اذ ليس فيه الا شغل القلب وتضييع الوقت ولعله تكون أمور لم تخطر ببالك فيكون ما سبق في فكرك وتدبيرك وتضييعك الوقت العزيز فيه لغوا بلا فائدة بل خسرا نادما تندم عليه وتغبن فيه لما كان شغل القلب فيه وتضييع العمر في ذلك وفي هذا المعنى لبعض الزهاد رضي الله عنه

سبقت مقادير الاله وحكمه ✻ فارح فؤادك من لعل ومن لو

وقال الآخر

سيكون ما هو كائن في وقته ✻ وأخو الجهالة متعب محزون

فلعل ما تخشاه ليس بكائن ✻ ولعل ما ترجوه ليس يكون

وتقول لنفسك في الجملة يا نفس لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وهو حسبنا ونعم الوكيل اذ هو قدير لا نهاية لقدرته حكيم لا نهاية لحكمه رحيم لا نهاية لرحمته ومن كان بهذه الصفات حقيق أن يتوكل عليه ويفوض الامر كله اليه فعليك بالتفويض وكذلك توطن قلبك على أن ما قضى الله ويقضي لك فهو الاوفق والاصلح وان كان ذلك لا يبلغ علمنا كيفيته وسره وتقول يا نفس المقدور كائن لا محالة فلا فائدة في السخط والطيرة فيما يصنع الله فلا وجه للسخط ألست تقولين رضيت بالله ربا فكيف لا ترضين بقضائه والقضاء من شأن الربوبية وحقها فعليك بالرضا وكذلك اذا أصابتك مصيبة وحل بك مكروه فتراعي نفسك عند ذلك وتضبط قلبك حتى لا تجزع ولا تظهر منك شكاية وقلق لا سيما عند الصدمة الاولى فان الشأن هنالك والنفس متسارعة حينئذ الى عادة الجزع عند ذلك وتقول يا نفس هذه قد وقعت فلا حيلة لدفعها وقد دفع الله تعالى ما هو أكبر منها فان أنواع

البلاء

العزلة وملازمة الصمت الا بقدر الضرورة فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حجرا في فيه ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة ويشير الى لسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد كلها فاحترز منه فانه أقوى أسباب هلاكك في الدنيا والآخرة (وأما البطن) فاحفظه من تناول الحرام والشبهة واحرص على طلب الحلال فاذا وجدته فاحرص على أن تقتصر منه على ما دون الشبع فان الشبع يقسي القلب ويفسد الذهن ويبطل الحفظ ويثقل الاعضاء عن العبادة والعلم ويقوي الشهوات وينصر جنود الشيطان والشبع من الحلال مبدأ كل شر فكيف من الحرام وطلب الحلال فريضة على كل مسلم والعبادة والعلم مع أكل الحرام كالبناء على السرجين فاذا قنعت في السنة بقميص خشن وفي اليوم والليل برغيفين من الخشكار وتركت التلذذ بأطيب الادم لم يعوزك من الحلال ما يكفيك والحلال كثير وليس عليك أن تتيقن بواطن الامور بل عليك أن تحترز مما تعلم أنه حرام أو تظن أنه حرام ظنا حصل من علامة ناجزة مقترنة بالمال أما المعلوم فظاهر وأما

البلاء في خزائنه لكثيرة وان هذه ستنقضي فلا تبقى وانها عما قليل ستنقشع فتمادي يا نفس قليلا لا تجدي لذلك سرورا طويلا وثوابا جزيلا بعد أن لا دفع للنازل ولا فائدة في الجزع ولا مصيبة في الحقيقة مع العزاء والصبر فتشغل لسانك بالاسترجاع وقلبك بذكر ما يحصل لك عند الله تعالى من الاجر وتتذكر صبر أولي العزم على المصائب العظام من الانبياء والاولياء الأعزة على الله تعالى واذا حبس عنك الدنيا فى وقت فتقول يا نفس هو أعلم بالحال وأرحم بك وأكرم وانه الذي يطعم الكلب في خسته ويطعم الكافر في عداوته وأنا عبده العارف الموحد الآساوي عنده رغيفا هذا الحال أيضا فاعلمي بالحقيقة أنه لم يحبس ذلك عنك الا لنفع عظيم وسيجعل الله بعد عسر يسرا. فاصبري قليلا ترى العجب من لطفه فنعما ما سمعت قول القائل

توقع صنع ربك سوف يأتي * بما تهواه من فرج قريب
ولا تيأس اذا ما ناب خطب * فكم في الغيب من عجب عجيب

(وقول الآخر مثله)

ألا يا أيها المرء الذى * الهم به برح اذا اشتدت بك العسرى * ففكر في ألم نشرح
فعسر بين يسرين * اذا ذكرته فافرح

فاذا أجريت هذه الاذكار ونحوها وواظبت عليها بالتفكر والتمرين فان ذلك سيهون عليك اذا كانت لك همة واجتهاد زمانا غير طويل (ولقد) دفعت هذه العوارض الاربعة عن نفسك وكفيت مؤنتها وصرت عند الله تعالى من المتوكلين المفوضين الراضين بقضائه الصابرين على بلائه وحصلت لنفسك راحة القلب والبدن في الدنيا وعظيم الثواب والذخر في العقبى وجليل القدر والمحبة عند رب العالمين فيجتمع لك خير الدارين وتستقيم لك طريق العبادة اذ لا عائق ولا شاغل وكنت حينئذ قد قطعت هذه العقبة العسرة والله تعالى المسؤل أن يمدك وايانا بحسن توفيقه فان الامر كله بيده وهو أرحم الراحمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(الباب الخامس في العقبة الخامسة وهي عقبة البواعث)

ثم عليك يا أخي بالسير اذا استقام لك الطريق وسهلت السبيل وارتفعت العوائق وزالت العوارض ولا يحصل لك السير المستقيم الا باستشعار الخوف والرجاء والتزامهما حقهما على حدهما أما الخوف فانما يجب التزامه لامرين أحدهما الزجر عن المعاصي فان هذه النفس الأمارة بالسوء ميالة الى الشر طماحة الى الفتنة فلا تنتهي عن ذلك الا بتخويف عظيم وتهديد بالغ واستهى في طبعها حرقتهما الوفاء ويمنعها الحياء عن الجفاء انما هي كما قال القائل

العبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه الملامه

والتدبير في أمرها أن تقرعها أبدا بسوط التخويف قولا وفعلا وفكرا نحو ما ذكر عن بعض الصالحين أن نفسه دعته الى معصية فانطلق ونزع ثيابه وجعل يتمرغ في الرمضاء ويقول لنفسه ذوقي فنار جهنم أشد حرا من هذه أي جيفة بالليل بطالة بالنهار والثاني لئلا يعجب بالطاعات فيهلك بل يتهمها بالذم والعيب والنقص بما فيها من الاسواء والاوزار التي فيها ضروب الاخطار ونحو ذلك وذلك نحو ما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو أني وعيسى أخذنا بما كسبت هاتان لعذبنا عذابا لم يعذبه أحد من العالمين وأشار باصبعيه وعن الحسن أنه كان يقول ما يأمن أحدنا أن يكون قد أصاب ذنبا فطبق باب المغفرة دونه فهو يعمل في غير معمل وعن ابن المبارك فيما يعاتب نفسه تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين وفي الجنة تطمعين هيهات هيهات ان للجنة قوما آخرين ولهم أعمال غير ما تعملين فهذه وأمثالها مما يلزم العبد تذكيرها النفس وتكريرها عليها لئلا تعجب بطاعة أو تقع في معصية وبالله التوفيق (وأما) الرجاء فانما يلزمك استشعاره لامرين أحدهما البعث على الطاعات وذلك أن الخير ثقيل والشيطان عنه زاجر والهوى الى ضده داع وحال أهل الغفلة من عامة الخلق في النفس منطبع مشاهد والثواب الذي يطلب بالطاعات عن العين غائب وأمد الوصول اليه فيما يحسبه بعيد واذا كان الحال على

الظانون بصلاحه فهو مال السلطان وعماله ومال من لا كسب له الا من النياحة أو بيع الخمر أو الربا أو المزامير وغير ذلك من آلات اللهو الحرام حتى من علمت أن أكثر ماله حرام قطعا فما تأخذه من يده وان أمكن أن يكون حلالا نادرا فهو حرام لانه الغالب على الظن ومن الحرام المحض ما يؤكل من الاوقاف من غير شرط الواقف فمن لم يشتغل بالتفقه فما يأخذه من المدارس حرام ومن ارتكب معصية ترد بها شهادته فما يأخذه باسم الصوفية من وقف أو غيره حرام وقد ذكرنا مداخل الشبهات والحلال والحرام في كتاب مفرد من كتب احياء علوم الدين فعليك بطلبه فان معرفة الحلال وطلبه فريضة على كل مسلم كالصلوات الخمس (وأما الفرج) فاحفظه عن كل ما حرم الله تعالى وكن كما قال الله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ولا تصل الى حفظ الفرج الا بحفظ العين عن النظر وحفظ القلب عن الفكر وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع فان هذه محركات للشهوة ومغارسها (وأما اليدان) فاحفظهما عن

هذه الحالة فلا تنبعث النفس للخير ولا ترغب فيه حقه ولا تتركه الا بأمر يقابل كل هذه الموانع ويساويها بل يزيد عليها وذلك الامر هو الرجاء القوى فى رحمة الله والترغيب البالغ فى حسن ثوابه وكريم أجره ولقد قال شيخنا رحمه الله الحزن يمنع عن الطعام والخوف يمنع من الذنوب والرجاء يقوى على الطاعات وذكر الموت يزهد فى الفضول والثانى ليهون عليك احتمال الشدائد والمشقات (واعلم) أن من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ومن طلب له شئ ورغب فيه حق رغبته احتمل شدته ولم يبال بما يلقى من مؤنته ومن أحب أحدا حق محبته أحب أيضا احتمال محنته حتى انه ليجد بتلك المحنة ضربا من اللذة ألا ترى مشتار العسل لا يبالى بلسع النحل لما يتذكر من حلاوة العسل والاجير لا يعبأ بارتقاء السلم الطويل مع الحمل الثقيل طول النهار الصائف المديد لما يتذكر من أخذ درهمين بالعشى وان الفلاح لا يتفكر بمقاساة الحر والبرد ومباشرة الشقاء والكد طول السنة لما يتذكر من البيدر أوان الغلة وكذلك يا أخى العباد الذين هم أهل الاجتهاد اذا ذكروا الجنة فى طيب مقيلها وأنواع نعيمها من حورها وقصورها وطعامها وشرابها وحليها وحللها وسائر ما أعده الله تعالى لاهلها هان عليهم ما احتملوه من تعب فى عبادة أو ما فاتهم فى الدنيا من لذة ونعمة أو نالهم من ضرر وذلة أو نقمة أو مشقة لاجلها (ولقد حكى) أن أصحاب سفيان الثورى رحمه الله تعالى كلموه فيما كانوا يرون من خوفه واجتهاده ورثاثة حاله فقالوا يا أستاذ لو نقصت من هذا الجهد نلت مرادك أيضا ان شاء الله تعالى فقال سفيان كيف لا أجتهد وقد بلغنى ان أهل الجنة يكونون فى منازلهم فيتجلى لهم نور تضىء له الجنان الثمانية فيظنون ان ذلك نور من قبل الرب سبحانه فيخرون ساجدين فينادون ان ارفعوا رؤسكم ليس الذى تظنون انما هو نور جارية تبسمت فى وجه زوجها ثم انشأ يقول

ما ضر من كانت الفردوس مسكنه * ماذا تحمل من بؤس واقتار
تراه يمشى كئيبا خائفا وجلا * الى المساجد يمشى بين اطمار
يا نفس مالك من صبر على لهب * قد حان ان تقبلى من بعد ادبار

(قلت انا) فاذا كان مدار أمر العبودية على الامرين القيام بالطاعة والانتهاء عن المعصية وذلك لا يتم مع هذه النفس الامارة بالسوء الا بترغيب وترهيب وترجية وتخويف فان الدابة الحرون تحتاج الى قائد يقودها والى سائق يسوقها واذا وقعت فى مهواة فربما تضرب بالسوط من جانب ويلوح لها الشعير من جانب آخر حتى تنهض وتتخلص مما وقعت فيه وان الصبى العرم لا يمر الى المكتب الا بترجية من الوالدين وتخويف من المعلم فكذلك هذه النفس دابة حرون وقعت فى مهواة الدنيا فالخوف سوطها وسائقها والرجاء شعيرها وقائدها وانها الصبى العرم يحمل الى كتاب العبادة والتقوى فذكر النار والعقاب تخويفه وذكر الجنة وثوابها ترجيته وترغيبه فكذلك يلزم العبد الطالب للعبادة والرياضة ان يشعر النفس بالامرين اللذين هما الخوف والرجاء والا فلا تساعد النفس الجموح على ذلك وبهذا المعنى ورد الذكر الحكيم بمجموع الامرين الوعد والوعيد والترغيب والتهديد وبالغ فى كل واحد منهما فذكر من الثواب الكريم ما لا صبر عنه وذكر من العقاب الاليم ما لا صبر عليه فعليك اذن بالتزام هذين المعنيين يحصل لك مرادك من العبادة ويسهل عليك احتمال المشقة والله تعالى ولى التوفيق بفضله ورحمته (فان قلت) فما حقيقة الرجاء والخوف وحكمهما فاعلم ان الخوف والرجاء عند علمائنا رحمهم الله تعالى يرجعان الى قبيل الخواطر وانما المقدور للعبد مقدماتهما قالوا فالخوف رعدة تحدث فى القلب عن ظن مكروه يناله والخشية نحوه لكن الخشية تقتضى ضربا من الاستعظام والمهابة وضد الخوف الجراءة ولكن قد يقابل بالامن يقال خائف وآمن وخوف وأمن لان الآمن الذى يجترئ على الله سبحانه والحقيقة ان الجراءة تضاده ومقدمات الخوف أربع الاولى ذكر الذنوب الكثيرة التى سبقت وكثرة الخصوم الذين مضوا الى المظالم وأنت مرتهن لم يتبين لك الخلاص بعد والثانية ذكر شدة عقوبة الله سبحانه التى لا طاقة

ان تضرب بهما مسلما أو تتناول بهما الحراما أو تؤذى بهما أحدا من الخلق أو تخون بهما فى أمانة أو وديعة أو تكتب بهما ما لا يجوز النطق به فان القلم أحد اللسانين فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه (وأما الرجلان) فاحفظهما من ان تمشى بهما الى حرام أو تسعى بهما الى باب سلطان ظالم فالمشى الى السلاطين الظلمة من غير ضرورة وارهاق معصية كبيرة فانه تواضع لهم واكرام لهم على ظلمهم وقد أمر الله تعالى بالاعراض عنهم فى قوله تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار الآية وان كان ذلك لسبب طلب مالهم فهو سعى الى الحرام وقد قال صلى الله عليه وسلم من تواضع لغنى صالح ذهب ثلثا دينه هذا فى غنى صالح فما ظنك بالغنى الظالم وعلى الجملة فحركاتك وسكناتك بأعضائك نعمة من نعم الله تعالى عليك فلا تحرك شيئا منها فى معصية الله تعالى أصلا واستعملها فى طاعة الله تعالى (واعلم) انك ان قصرت فعليك يرجع وباله وان شمرت فاليك ترجع ثمرته والله غنى عنك وعن عملك وانما كل نفس بما كسبت رهينة واياك ان تقول ان الله كريم رحيم يغفر الذنوب

لاثمها والثالثة ذكر ضعف نفسك عن احتمال العقوبة والرابعة ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء (وأما الرجاء) فهو ابتهاج القلب بمعرفة فضل الله سبحانه واسترواحه الى سعة رحمة الله تعالى وهذا من جملة الخواطر غير مقدور للعبد ورجاء هو مقدور للعبد وهو تذكر فضل الله وسعة رحمته وقد يسمى أيضا ارادة الخاطرة بالاستثناء رجاء والمراد من هذا الباب هو الاول وهو التذكر على حسب الابتهاج والاسترواح وضده اليأس وهو تذكر فوات رحمة الله وفضله وقطع القلب عن ذلك وهو معصية محضة وهذا الرجاء فرض اذا لم يكن للعبد سبيل الى الامتناع عن اليأس الابه والا فهو نفل بعد اعتقاد الجملة في فضل الله وسعة رحمته ومقدمات الرجاء أربع الاولى ذكر سوابق فضله اليك من غير قدم أو شفيع والثانية ذكر ما وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه دون استحقاقك اياه بالفعل اذ لو كان على حسب الفعل لكان أقل شئ وأصغر أمر والثالثة ذكر كثرة نعمة الله عليك في أمر دينك ودنياك في الحال من أنواع الامداد والالطاف من غير استحقاق أو سؤال والرابعة ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه وانه الرحمن الرحيم الغنى الكريم الرؤف بعباده المؤمنين فاذا واظبت على هذين النوعين من الاذكار افضى بك الى استشعار الخوف والرجاء بكل حال والله تعالى ولى التوفيق بمنه وفضله

(فصل) فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة في تمام الاحتياط والتحرز وحد الرعاية فانها عقبة دقيقة المسلك خطرة الطريق وذلك ان طريقها بين طريقين مخوفين مهلكين أحدهما طريق الامن والثاني طريق اليأس وطريق الرجاء والخوف هو الطريق العدل بين الطريقين الجائرين فان غلب الرجاء عليك حتى فقدت الخوف البتة وقعت في طريق الامن ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون وان غلب عليك الخوف حتى فقدت الرجاء البتة وقعت في طريق اليأس ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون فان كنت ركبت بين الخوف والرجاء واعتصمت بهما جميعا فهو الطريق العدل المستقيم الذي هو سبيل أولياء الله وأصفيائه الذين وصفهم الله تعالى بقوله انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين فاذا ظهرت لك في هذه العقبة طرق ثلاثة طريق الامن والجراءة وطريق اليأس والقنوط وطريق الخوف والرجاء ممتدا بينهما فان ملت عنه بقدم الى يمينك أو يسارك وقعت في الهالكين وهلكت مع الهالكين ثم الشأن ان الطريقين الجائرين المهلكين أوسع مجالا وأكثر دواعيا وأسهل سلوكا من الطريق العدل لانك اذا نظرت من جانب الامن رأيت من سعة رحمة الله وكثرة فضله وغاية جوده مالا يبقى لك معه خوف فتتكل على ذلك بمرة وتأمن وان نظرت من جانب الخوف رأيت من عظيم قدرة الله تعالى وسياسته وكثرة هيبته ودقة أمره وغاية مناقشته مع أوليائه وأصفيائه مالا يكاد يبقى معه رجاء فتيأس بمرة وتقنط فتحتاج اذن ان لا تنظر الى سعة رحمة الله فقط حتى تتكل وتأمن ولا الى عظيم الهيبة والمناقشة فقط حتى تقنط وتيأس بل تنظر الى هذا والى هذا جميعا وتأخذ من هذا بعضا ومن هذا بعضا فتركب بينهما طريقا دقيقا فوق ذلك فاعلم فان طريق الرجاء المحض سهل واسع عريض وعاقبته تؤديك الى الأمن والخسران وطريق الخوف المحض واسع عريض وعاقبته تؤديك الى الضلال وطريق العدل بينهما أعنى طريق الخوف والرجاء وذلك وان كان طريقا دقيقا عسرا فانه سبيل سالم ومنهج بين يؤدى الى الغفران والاحسان ثم الى الجنان والرضوان ولقاء الملك الرحمن سبحانه أما تسمع قوله تعالى في اتباع هذا السبيل يدعون ربهم خوفا وطمعا ثم قال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون فتأمل هذه الجملة جدا وتشمر وتنبه للامر فانه لا يتهيأ بالهوينا والله ولى التوفيق ثم اعلم انه لا يتأتى لك سلوك هذه الطريق وحمل هذه النفس الجموح الكسلى عن الخير باجتناب المحبوب عندها واكتساب الطاعات الثقيلة عليها الا بالتحفظ بثلاثة أصول والتذكر لها على سبيل الدوام من غير فترة ولا غفلة أحدها ذكر أقواله تعالى سبحانه في الترغيب والترهيب والثاني ذكر

العصاة فان هذه كلمة حق أريد بها باطل وصاحبها ملقب بالحماقة بتلقيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى (واعلم) ان قولك هذا يضاهى قول من يريد ان يصير فقيها في علوم الدين واشتغل بالبطالة وقال ان الله كريم رحيم قادر على أن يفيض على قلبي من العلوم ما أفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غير جهد وتكرار وتعلق وهو كقول من يريد مالا فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل وقال ان الله كريم رحيم وله خزائن السموات والارض وهو قادر على أن يطلعني على كنز من الكنوز أستغنى به عن الكسب فقد فعل ذلك لبعض عباده فانت اذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما وسخرت منهما وان كان ما وصفاه من كرم الله تعالى وقدرته صدقا حقا وكذلك يضحك عليك أرباب البصائر في الدين اذا طلبت المغفرة بغير سعى لها والله تعالى يقول وان ليس للانسان الا ما سعى ويقول انما تجزون ما كنتم تعملون ويقول ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم فاذا لم

أفعاله سبحانه في الاخذ والعفو والثالث ذكر جزائه للعباد في المعاد من الثواب والعقاب وتفصيل كل فصل منها يحتاج الى صحف كثيرة ولاجلها صنفنا كتاب تنبيه الغافلين ونحن نشير في هذا الكتاب الى كلمات توقفك على المقصود ان شاء الله عز وجل والله ولي التوفيق (الاصل الاول أقواله سبحانه وتعالى) تدبر أيها الرجل ما في الكتاب العزيز من آيات الترغيب والترهيب والترجية والتخويف فمن آيات الرجاء قوله تعالى لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ومن يغفر الذنوب الا الله غافر الذنب وقابل التوب وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت كتب ربكم على نفسه الرحمة ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ان الله بالناس لرؤف رحيم وكان بالمؤمنين رحيما فهذه ونحوها آيات الرجاء ومن آيات الخوف والسياسة قوله تعالى يا عباد فاتقون أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون أيحسب الانسان ان يترك سدى ليس بامانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوأ يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا نسأل الله تعالى ان يسلمنا برحمته ومن الآيات اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء قوله تعالى نبئ عبادي اني أنا الغفور الرحيم ثم قال في عقبه وان عذابي هو العذاب الاليم لئلا يستولي عليك الرجاء بمرة وقوله تعالى شديد العقاب ثم قال في عقبه ذي الطول لا اله الا هو لئلا يستولي عليك الخوف بمرة وأعجب منه قوله سبحانه وتعالى ويحذركم الله نفسه ثم قال في عقبه والله رؤف بالعباد وأعجب منه قوله سبحانه وتعالى من خشي الرحمن بالغيب علق الخشية باسم الرحمن دون اسم الجبار والمنتقم والمتكبر ونحوه لتكون الخشية مع ذكر الرحمة فلا تكون الخشية تطير قلبك بمرة فيكون تخويفا في تأمين وتحريكا في تسكين كما تقول أما تخشى الوالدة الرحيمة أما تخاف الوالد المشفق أما تحذر الامير الكريم والمراد من ذلك ان يكون الطريق عدلا فلا تذهب الى أمن وقنوط جعلنا الله واياكم من المتدبرين لهذا الذكر الحكيم والعاملين بما فيه برحمته انه هو الجواد الكريم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (الاصل الثاني في أفعاله عز وجل ومعاملاته) أما من جانب الخوف فاعلم ان ابليس عبده ثمانين ألف سنة فلم يترك فيما قيل موضع قدم الا وسجد لله تعالى فيه سجدة ثم ترك أمرا واحدا فطرده عن بابه وضرب بوجهه عبادة ثمانين ألف سنة ولعنه الى يوم الدين وأعد له عذابا أليما الى أبد الآبدين حتى روي أن الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه رأى جبريل عليه السلام متعلقا بأستار الكعبة وهو يصرخ وينادي الهي وسيدي لا تغير اسمي ولا تبدل جسمي ثم آدم صلى الله عليه وسلم صفيه ونبيه الذي خلقه بيده وأسجد له ملائكته وحمله على أعناقهم الى جواره انبسط فأكل أكلة واحدة فلم يؤذن له فيها فنودي ألا لا يجاورني من عصاني وأمر الملائكة الذين حملوا سريره يزعجونه من سمائه الى سماء حتى أوقعوه بالارض ولم يقبل توبته فيما روي حتى بكى على ذلك مائتي سنة ولحقه من الهوان والبلاء ما لحقه وبقيت ذريته في تبعات ذلك على الابد ثم ان نوحا عليه السلام شيخ المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين الذي احتمل في أمر دينه ما احتمل لم يقل الا كلمة واحدة على غير وجهها اذ نودي فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين حتى روي في بعض الاخبار أنه لم يرفع رأسه الى السماء حياء من الله أربعين سنة ثم ان ابراهيم خليل الله عليه السلام لم يكن منه الا هفوة واحدة فكم خاف وتضرع وقال والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين حتى روي انه كان يبكي من شدة الخوف فيرسل الله تعالى اليه الامين جبريل عليه السلام فيقول يا ابراهيم هل رأيت خليلا يعذب خليله بالنار فيقول يا جبريل اذا ذكرت خطيئتي نسيت خلته ثم موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم لم يكن منه الا لطمة واحدة عن حدة فكم خاف وتضرع واستغفر وقال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي ثم في زمانه بلعم بن باعوراء كان بحيث اذا نظر الى السماء يرى العرش وهو المعني بقوله تعالى واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ولم يكن منه الا انه مال الى الدنيا وأهلها ميلة

واحدة

ترك السعي في طلب العلم والمال اعتمادا على كرمه فكذلك لا تترك التزود للآخرة ولا تغتر فان رب الدنيا والآخرة واحد وهو فيهما كريم ورحيم ليس يزيده كرم بطاعتك وانما كرمه في ان ييسر لك طريق الوصول الى الملك المقيم المخلد بالصبر على ترك الشهوات أياما قلائل وهذا نهاية الكرم فلا تحدث نفسك بتهويسات البطالين واقتد بأولي العزم والنهى من الانبياء والصالحين ولا تطمع في ان تحصد ما لم تزرع وليت من صام وصلى وجاهد واتقى غفر له فهذه جمل ما ينبغي ان تحفظ عنه جوارحك الظاهرة واعمال هذه الجوارح انما تترشح من صفات القلب فان أردت حفظ الجوارح فعليك بتطهير القلب وهو التقوى الباطن والقلب هو المضغة التي اذا صلحت صلح لها الجسد كله فاشتغل باصلاحه لتصلح به جوارحك *(القول في معاصي القلب)* اعلم ان الصفات المذمومة في القلب كثيرة وتطهير القلب من رذائلها طويل وسبيل العلاج فيها غامض وقد اندرس بالكلية علمه وعمله لغفلة الخلق عن أنفسهم واشتغالهم بزخارف الدنيا وقد استقصينا ذلك كله في

واحدة وزلة لولي من أوليائه حرمة واحدة فسلبه الله معرفته وجعله بمنزلة الكلب المطرود فقال فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث الآية فأوقعه في بحر الضلال والهلاك الى آخر الابد حتى سمعت بعض العلماء يقول انه كان في أول أمره بحيث يكون في مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا وذكر فيه ان ليس للعالم صانع نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه ومن عذابه الاليم وقطيع خذلانه الذي لا طاقة لنا به فانظر الى خبث الدنيا وشؤمها ماذا يجلب للعلماء خاصة فتنبه فان الامر خطير والعمر قصير وفي العمل تقصير والناقد بصير فان ختم بالخير أعمالنا وأقالنا عثراتنا فما ذلك عليه بعسير ثم ان داود عليه السلام خليفته في أرضه أذنب ذنبا واحدا فبكى على ذلك حتى نبت العشب في الارض من دموعه وقال الهي أما ترحم بكائي وتضرعي فأجيب يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ولم يقبل توبته أربعين يوما وقيل أربعين سنة ثم ان يونس نبيه عليه السلام غضب غضبة واحدة في غير موضعها فسجنه في بطن الحوت تحت قعر البحار أربعين يوما وهو ينادي ان لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين وسمعت الملائكة صوته فقالوا الهنا وسيدنا صوت معروف من موضع مجهول فقال الله تعالى ذلك صوت عبدي يونس فتشفعت فيه الملائكة ثم مع ذلك كله غير اسمه فقال وذا النون فنسبه الى سجنه ثم قال فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ثم ذكر نعمته ومنته فقال لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فانظر الى هذه السياسة أيها المسكين وكذلك هلم جرا الى سيد المرسلين اكرم خلقه عليه يقول له فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول شيبتني هود واخواتها قيل عني هذه الآية وأشكالها في القرآن فقال الله تعالى واستغفر لذنبك الى أن من الله عليه بالغفران فقال ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك وقال تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وكان بعد ذلك صلوات الله عليه يصلي الليل حتى تورمت قدماه فيقولون أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول أفلا أكون عبدا شكورا وكان عليه السلام يقول لو أني وعيسى أخذنا بما كسبت هاتان لعذبنا عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين وكان يصلي الليل ويبكي ويقول أعوذ بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ثم الصحابة الذين هم خير قرن في خير أمة كان يبدو منهم شئ من المزاح فنزل قوله تعالى ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله الآية ثم وضع في هذه الامة مع كونها مرحومة الحدود والسياسات العظيمة والآداب حتى كان يونس بن عبيد يقول لا تأمن من قطع في خمسة دراهم خير عضو منك أن يكون غدا عذابه هكذا نسأل الله تعالى الرحيم الكريم سبحانه أن لا يعاملنا الا بمحض كرمه انه أرحم الراحمين وأما من جانب الرجاء فحدث عن رحمة الله الواسعة ولا حرج ومن الذي يعرف غايتها أو يعرف وصفها ونهايتها فانه الذي يهب كفر سبعين سنة بايمان ساعة قال الله تعالى قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف أما ترى في أمر سحرة فرعون الذين جاؤا لحربه وحلفوا بعزة فرعون عدوه فلما كان الآن رأوا آية موسى عليه السلام فعرفوا الحق فقالوا آمنا برب العالمين ولم يذكر انهم زادوا على اعلانهم ثم انظر كم كرر ذكرهم في معنى المدح في كتابه العزيز وكم كبائر وصغائر غفرها لهم بايمان ساعة بل لحظة فلما قالوا الآن آمنا برب العالمين عن صدق القلوب كيف قبلهم ووهب لهم جميع ما سلف ثم كيف جعلهم رؤس الشهداء في الجنة أبد الآبدين فهذا حال من عرفه ووحده ساعة بعد كل ذلك السحر والكفر والضلال والفساد فكيف حال من أفنى عمره في توحيده ولا يرى لذلك أهلا في الدارين غيره أما ترى أصحاب الكهف وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها والتجؤا اليه كيف قبلهم ووهب لهم ثم اعزهم واكرمهم فقال ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكيف أعطاهم الحرمة والبسهم المهابة والخشية حتى يقول لأكرم الخلق عليه لو اطلعت

كتاب احياء علوم الدين في ربع المهلكات وربع المنجيات ولكنا نحذرك الآن ثلاثا من خبائث القلب هي الغالبة على متفقهة العصر لتأخذ منها حذرك فانها مهلكات في أنفسها وهي امهات لجملة من الخبائث سواها وهي الحسد والرياء والعجب فاجتهد في تطهير قلبك منها فان قدرت عليها فتعلم كيفية الحذر من بقيتها من ربع المهلكات فان عجزت عن هذا فانت عن غيره أعجز ولا تظنن أنك تسلم بنية صالحة في تعلم العلم وفي قلبك شئ من الحسد والرياء والعجب وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه (أما الحسد) فهو متشعب من الشح فان البخيل هو الذي يبخل بما في يده على غيره والشحيح هو الذي يبخل بنعمة الله وهي في خزائن قدرته لا في خزائنه على عباد الله تعالى فشحه أعظم والحسود هو الذي يشق عليه انعام الله تعالى من خزائن قدرته على عبد من عباده بعلم أو مال أو محبة في قلوب الناس أو حظ من الحظوظ حتى انه ليحب زوالها عنه وان لم يحصل له من ذلك مصلحة وهذا منتهى الخبث فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه

عليهم لو ليستمنهم فرارا ولملئت منهم رعبا بل كيف اكرم كلبا تبعهم حتى ذكره في كتابه العزيز مرات ثم جعله معهم في الدنيا محبوبا ويدخله الجنة في الآخرة مكرما فهذا فضله مع كلب خطا خطوات مع قوم عرفوه ووحدوه أياما معدودة من غير عبادة أو خدمة فكيف فضله مع عبده المؤمن الذي خدمه ووحده وعبده سبعين سنة وكيف لو عاش سبعين ألف سنة لكان قاصد العبودية أما ترى كيف عاتب ابراهيم عليه السلام في دعائه على المجرمين بالهلاك وكيف عاتب موسى في أمر قارون فقال استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه وكيف عاتب يونس عليه السلام في شأن قومه بأنك تحزن على شجرة من يقطين أنبتها في ساعة وأيبستها في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون ثم كيف قبل عذرهم وصرف عذابه العظيم عنهم بعدما أظلهم ثم كيف عاتب سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله أجمعين فيما روي انه دخل من باب بني شيبة فرأى قوما يضحكون فقال لم تضحكون لا أراكم تضحكون حتى اذا كان عند الحجر الاسود رجع القهقرى وقال جاءني جبريل فقال يا محمد ان الله تعالى يقول لك لم تقنط عبادي من رحمتي نبئ عبادي اني أنا الغفور الرحيم وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله أرحم بالعبد المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وفي الخبر المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى مائة رحمة فواحدة منها قسمها بين الجن والانس والبهائم فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وادخر منها تسعة وتسعين لنفسه ليرحم بها عباده يوم القيامة واذ قد أعطاك من الرحمة الواحدة كل هذه العطايا الكريمة العزيزة من معرفته سبحانه والكون من هذه الامة المرحومة مع معرفة السنة والجماعة الى سائر ما لديك من النعم الظاهرة والباطنة فرجو من فضله العظيم ان يتم ذلك فان من بدأ بالاحسان فعليه الاتمام ويحصل من تسع وتسعين رحمة لك الحظ الوافر فنسأل الله سبحانه أن لا يخيب آمالنا من فضله العظيم بفضله انه السيد الكريم الجواد الرحيم (وأما الاصل الثالث) في ذكر ما وعد وأوعد في المعاد فلنذكر في ذلك الاحوال الخمسة الموت والقبر والقيامة والجنة والنار وما في كل مقام منها من الخطر العظيم للمطيعين والعاصين والمقصرين والمجتهدين (أما الموت) فاذكر فيه حال رجلين أحدهما ما روي عن ابن شبرمة انه قال دخلت مع الشعبي على مريض نعوده وهو بحاله وعنده رجل آخر يلقنه لا اله الا الله وحده لا شريك له فقال له الشعبي ارفق به فتكلم المريض فقال ان تلقني أو لم تلقني فاني لا أدعها ثم قرأ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها فقال الشعبي الحمد لله الذي نجى صاحبنا والآخر ما حكي أن تلميذا للفضيل بن عياض حضرته الوفاة فدخل عليه الفضيل وجلس عند رأسه وقرأ سورة يس فقال يا أستاذ لا تقرأ هذا فسكت ثم لقنه فقال له قل لا اله الا الله فقال لا أقولها لاني منها بريء ومات على ذلك فدخل الفضيل منزله وجعل يبكي أربعين يوما لم يخرج من البيت ثم رآه في النوم وهو يسحب الى جهنم فقال بأي شيء نزع الله المعرفة منك وكنت أعلم تلامذتي فقال بثلاثة أشياء أولها بالنميمة فاني قلت لاصحابي بخلاف ما قلت لك والثاني بالحسد حسدت أصحابي والثالث كان بي علة فجئت الى الطبيب فسألته عنها فقال تشرب في كل سنة قدحا من خمر فان لم تفعل تبق بك العلة فكنت أشربه نعوذ بالله من سخطه الذي لا طاقة لنا به ثم أذكر حال رجلين آخرين أحدهما ما حكي عن عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى انه لما احتضر نظر الى السماء فضحك وقال لمثل هذا فليعمل العاملون وسمعت امام الحرمين رضي الله عنه يحكي عن الاستاذ أبي بكر رحمه الله انه قال كان لي صاحب أيام التعليم وكان مبتديا كثير الجهد في التعلم تقيا متعبدا وكان لا يحصل له مع الاجتهاد الا القليل فكنا نتعجب من حاله فمرض فلزم مكانه بين الاولياء في الرباط ولم يدخل الى بيت المرضى وكان يجتهد مع مرضه فاشتد به الحال وأنا الى جانبه فبينما هو كذلك اذ شخص ببصره الى السماء ثم قال لي يا ابن فورك لمثل هذا فليعمل العاملون وتوفي عند ذلك رحمة الله عليه وأما الآخر فهو ما روي عن مالك بن دينار رحمه الله انه دخل على جار له احتضر فقال له يا مالك جبلان من نار بين يدي أكلف الصعود عليهما قال فسألت أهله فقالوا كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال

وتأكل الحسد يا كل الحسنات كما تأكل النار الحطب والحسود هو المعذب الذي لا يرحم ولا يزال في عذاب دائم في الدنيا فان الدنيا لا تخلو قط عن خلق كثير من اقرانه ومعارفه ممن أنعم الله عليهم بعلم أو مال أو جاه فلا يزال في عذاب دائم في الدنيا الى موته ولعذاب الآخرة أشد وأكبر بل لا يصل العبد الى حقيقة الايمان ما لم يحب لسائر المسلمين ما يحب لنفسه بل ينبغي ان يساويهم في السراء والضراء فالمسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضا وكالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو اشتكى سائر الجسد فان كنت لا تصادف هذا من قلبك فاشتغالك بطلب الخلاص عن الهلاك أهم من اشتغالك بنوادر الفروع وعلم الخصومات (وأما الرياء) فهو الشرك الخفي وهو أحد الشركين وذلك طلبك منزلة في قلوب الخلق لتنال بها الجاه والحشمة وحب الجاه من الهوى المتبع وفيه هلك أكثر الناس فما أهلك الناس الا الناس فلو أنصف الناس حقيقة لعلموا ان أكثر ما هم فيه من العلوم والعبادات فضلا عن أعمال العادات ليس يحملهم عليها الامراآة الناس وهي محبطة للاعمال

بالآخر قد عوتب بهما فضربت أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ثم سألت الرجل فقال ما يزداد الامر على الاعظما (وأما القبر) والحال بعد الموت فأذكر فيه حال رجلين أحدهما ماذكر عن بعض الصالحين قال رأيت سفيان الثورى فى النوم بعد موته فقلت كيف حالك يا أبا عبد الله فأعرض عنى وقال ليس هذا زمان الكنى فقلت كيف حالك يا سفيان فأنشأ يقول

نظرت الى ربى عيانا فقال لى * هنيأ رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما اذا الليل قد دجا * بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر تريده * وزرنى فانى عنك غير بعيد

والرجل الثانى ماذكر ان بعضهم رؤى فى النوم شاحب اللون مغلولة يداه الى عنقه فقيل له مافعل الله بك فأنشأ يقول

تولى زمان لعبنا به * وهذا زمان بنا يلعب

وحال رجلين آخرين أحدهما ماروى عن بعض الصالحين انه قال كان لى ابن استشهد ولم أره فى المنام الى ليلة توفى فيها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اذ رأيته تلك الليلة فقلت يابنى ألم تكن ميتا فقال لا ولكنى استشهدت وأنا حى عند الله تعالى ارزق فقلت ما جاء بك قال نودى فى أهل السماء ألا لا يبقى نبى ولا صديق ولا شهيد الا وحضر الصلاة على عمر بن عبد العزيز فجئت لأشهد الصلاة عليه ثم جئتكم لأسلم عليكم والآخر ماروى عن هشام بن حسان أنه قال مات لى ابن حدث فرأيته فى النوم فاذا هو أشيب فقلت يابنى ما هذا الشيب قال لما قدم علينا فلان زفرت جهنم لقدومه زفرة لم يبق منا أحد الا شاب نعوذ بالله الرحيم من العذاب الاليم (وأما القيامة) فتأمل قول الله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فواحد يخرج من قبره فاذا البرق على رأس القبر والتاج والحلل فيلبس ويركب الى جنات النعيم لا يخلى من عزته أن يمشى الى الجنة برجليه وآخر يخرج من قبره فاذا الزبانية والاغلال والانكال لا يخلون الشقى يمشى الى النار برجليه بل يسحب به الى سواء الجحيم على وجهه نعوذ بالله من سخطه ولقد سمعت بعض العلماء يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا كان يوم القيامة يخرج قوم من قبورهم لهم نجب يركبونها لها أجنحة خضر فتطير بهم فى عرصات القيامة حتى اذا اتوا على حيطان الجنة فاذا رأتهم الملائكة قال بعضهم لبعض من هؤلاء فيقولون ماندرى لعلهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيأتيهم بعض الملائكة فيقول من أنتم ومن أى الامم أنتم فيقولون نحن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول لهم الملائكة هل حوسبتم فيقولون لا فتقول الملائكة هل وزنتم فيقولون لا فتقول الملائكة هل قرأتم كتبكم فيقولون لا فتقول الملائكة ارجعوا فكل ذلك وراءكم فيقولون هل أعطيتمونا شيأ فنحاسب عليه وفى خبر آخر ما ملكنا شيأ فنعدل أونجور ولكن عبدنا ربنا حتى دعانا فأجبناه فينادى مناد صدق عبادى ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم أما تسمع قوله تعالى أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة فاعظم برجل يشاهد تلك الاهوال والزلازل والوقائع وهو آمن لا يدخل قلبه فزع ولا يكون على قلبه ثقل نسأل الله العظيم ان يجعلنا واياكم من أولئك السعداء وما ذلك على الله جل جلاله بعزيز (وأما الجنة والنار) فتأمل فيهما آيتين من كتاب الله تعالى احداهما قوله تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا وقال تعالى حكاية عن آخرين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسؤا فيها ولا تكلمون وروى انهم يصيرون عند ذلك كلابا يتعاوون فى النار نعوذ بالله الرؤف الرحيم من عذابه الاليم فان الامر كما قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله لا ندرى أى المصيبتين أعظم فوت الجنان أم دخول النيران أما الجنة فلا صبر عنها وأما النار فلا صبر عليها وعلى كل حال ففوت النعيم أيسر من مقاساة الجحيم ثم الطامة الكبرى والمصيبة العظمى هى الخلود اذ لو كان الامر على كل حال منقطعا لكان هينا ولكن الشأن فى أبد بلا آخر فأى قلب يحتمل ذلك وأى نفس تصبر على ذلك ولذلك قال عيسى عليه السلام ذكر خلود الخالدين يقطع قلوب الخائفين وذكر عند الحسن ان آخر من يخرج من النار رجل

كما ورد فى الخبران الشهيد يؤتى به يوم القيامة الى النار فيقول يارب استشهدت فى سبيلك فيقول الله تعالى أردت ان يقال فلان شجاع وقد قيل ذلك وذلك أجرك وكذا يقال للعالم والحاج والقارئ (وأما العجب والكبر والفخر) فهو الداء العضال وهو نظر العبد الى نفسه بعين العزة والاستعظام والى غيره بعين الاحتقار ونتيجته على اللسان ان يقول انا وانا كما قال ابليس اللعين انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين وثمرته فى المجالس الترفع والتقدم وطلب التصدر فى المحاورة والاستنكاف من ان يرد كلامه عليه والمتكبر هو الذى ان وعظ أنف أو وعظ عنف وكل من رأى نفسه خيرا من أحد من خلق الله تعالى فهو متكبر بل ينبغى لك ان تعلم ان الخير من هو خير عند الله فى دار الآخرة وذلك غيب وهو موقوف على الخاتمة فاعتقادك فى نفسك انك خير من غيرك جهل محض بل ينبغى ان لا تنظر الى أحد الا وترى انه خير منك وان الفضل له على نفسك فان رأيت صغيرا قلت هذا لم يعص الله وانا عصيته فلا شك انه خير منى وان رأيت كبيرا قلت هذا قد عبد الله قبلى فلا شك انه خير منى وان كان

فقال له هناد عذب ألف عام ينادي ياحنان يامنان فبكى الحسن وقال ياليتني كنت هنادا فتعجبوا منه فقال ويحكم أليس يوما يخرج (قلت) فرجع الامر كانه اذن الى أصل واحد وهى النكتة التى تقصم الظهور وتصفر الوجوه وتذيب الاكباد وتقطع القلوب وتدمى العيون من العباد وهى خوف نزع المعرفة فهذه الغاية التى ينتهى اليها خوف الخائفين وتبكى عليها أعين الباكين ولقد قال بعضهم ان الغموم ثلاثة غم الطاعة ان لاتقبل وغم المعصية أن لاتغفر وغم المعرفة أن تسلب وقال المخلصون بل الغم كله واحد بالحقيقة وهو غم سلب المعرفة وكل غم دونه جلل اذ له انقضاء ولقد بلغنا عن يوسف بن اسباط رحمه الله تعالى انه قال دخلت على سفيان رحمه الله تعالى فبكى ليله اجمع فقلت بكاؤك هذا على الذنوب قال فحمل تبنا وقال الذنوب أهون على الله من هذا انما أخشى ان يسلبنى الله الاسلام نسأل الله ربنا المنان سبحانه أن لا يبتلينا بمصيبة وان يتم علينا بفضله كثير نعمته وان يتوفانا على ملة الاسلام انه أرحم الراحمين وقد ذكرنا سبب سوء الخاتمة ومعناها فى كتاب احياء علوم الدين فتأمله هنالك فان الخوض فيه ههنا خروج الى الاكثار فتأمل هذه الجملة راشدا فان التفصيل أكثر مما يأتى عليه الوهم والذكر لعلك تفلح بعون الله وحسن توفيقه (فان قلت) فأى الطريقين أسلك طريق الخوف أو طريق الرجاء (يقال لك) بل المركب بينهما فلقد قيل من غلب عليه الرجاء صار مرجئا بل ربما يخاف عليه أن يصير حروريا ومن غلب عليه الخوف صار حروريا والمراد أن لا ينفرد بأحدهما دون الآخر فان بالحقيقة الرجاء الحقيقى لا ينفك عن الخوف الحقيقى والخوف الحقيقى لا ينفك عن الرجاء الحقيقى ولذلك قيل الرجاء كله لاهل الخوف لا الامن والخوف كله لاهل الرجاء لا اليأس (فان قلت) فهل يكون أحدهما أرجح من الآخر أو أكثر ذكر الحال فاعلم ان العبد اذا كان صحيحا قويا فالخوف أولى به واذا مرض وضعف لاسيما اذا أشرف على الآخرة فالرجاء أولى كذا سمعت العلماء يقولون قلت وذلك لما روى ان الله سبحانه وتعالى يقول أنا عند المنكسرة قلوبهم من مخافتى فيصير رجاؤه أولى فى ذلك الوقت لانكسار قلبه وخوفه المتقدم زمان الصحة والقوة والامكان ولذلك يقال لهم لا تخافوا ولا تحزنوا (فان قلت) أليس قد جاءت الاخبار الكثيرة فى حسن الظن بالله والترغيب فى ذلك فاعلم ان من حسن الظن بالله تعالى الحذر من معصيته والخوف من عقابه والاجتهاد فى خدمته واعلم ان ههنا أصلا أصيلا ونكتة عزيزة يغلط فيها الكثير من الناس وهو ان الفرق بين الرجاء والأمنية ان الرجاء يكون على أصل والتمنى لا يكون على أصل مثاله من زرع زرعا واجتهد وجمع بيدرا ثم يقول ارجو أن يحصل لى منه مائة قفيز فذلك منه رجاء وآخر لا يزرع زرعا ولا يعمل يوما لا فذهب ونام وأغفل سنته فاذا جاء وقت البيادر يقول أرجو ان يحصل لى منه مائة قفيز فيقال له من أين لك هذا الرجاء وانما ذلك أمنية بلا أصل فكذلك العبد اذا اجتهد فى عبادة الله وانتهى عن معصية الله تعالى يقول أرجو أن يتقبل الله منى هذا اليسير و يتم هذا التقصير و يعظم هذا الثواب و يعفو عن الزلل وأحسن الظن فهذا منه رجاء (وأما) اذا غفل عن ذلك وترك الطاعات وارتكب المعاصى ولم يبال بسخط الله تعالى ولا رضاه ولا وعده و وعيده ثم أخذ يقول أرجو من الله الجنة والنجاة من النار فذلك منه أمنية لا حاصل تحتها سماها رجاء وحسن ظن وذلك منه خطأ وضلال وقد نظم المعنى القائل

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

(قلت) ومما يبين هذا الاصل ما روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل الامانى وفى ذلك قال الحسن البصرى رحمه الله ان أقواما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس وليست لهم حسنة فيقول أحدهم انى أحسن الظن بربى وكذب لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل له ثم تلا قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا الآية وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين وعن جعفر الضبعى رحمه الله انه قال

قال

فلما قلت هذا فقد أعطى مالم أعط و بلغ مالم أبلغ وعلم ما جهلت فكيف أكون مثله وان كان جاهلا قلت هذا عصى الله بجهل وانا عصيته بعلم فحجة الله على آكد وما أدرى بما يختم لى و بما يختم له وان كان كافرا قلت لا أدرى عسى ان يسلم و يختم له بخير العمل و ينسل باسلامه من الذنوب كما تنسل الشعرة من العجين وأما أنا والعياذ بالله فعسى ان يضلنى الله فأكفر فيختم لى بشر العمل فيكون غدا هو من المقربين وأنا أكون من المعذبين فلا يخرج الكبر من قلبك الا بان تعرف ان الكبير من هو كبير عند الله تعالى وذلك موقوف على الخاتمة وهى مشكوك فيها فيشغلك خوف الخاتمة عن ان تتكبر مع الشك فيها على عباد الله تعالى فيقينك وايمانك فى الحال لا يناقض تجويزك التغير فى الاستقبال فان الله مقلب القلوب يهدى من يشاء و يضل من يشاء والاخبار فى الحسد والكبر والرياء والعجب كثيرة و يكفيك فيها حديث واحد جامع فقد روى ابن المبارك باسناده عن رجل انه قال لمعاذ يا معاذ حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكى معاذ حتى ظننت انه لا يسكت

قال رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد قلت يرحمك الله ان رحمة الله واسعة فغضب وقال هل رأيت مني ما يدل على القنوط ان رحمة الله قريب من المحسنين قال جعفر فأبكاني قوله فاذا كان كل الرسل والابدال والاولياء مع كل هذا الاجتهاد في الطاعة والحذر عن المعصية مرتبطين فايش تقول أما كان لهم حسن ظن بالله بلى فانهم كانوا أعلم بسعة رحمته وأحسن ظنا بجوده منك ولكن علموا ان ذلك دون الاجتهاد أمنية وغرور فاعتبر بهذه النكتة وتأمل حالهم وانتبه من رقدتك والله تعالى ولي التوفيق

(فصل) وجملة الامر انك اذا تذكرت سعة رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه ووسعت كل شئ ثم ان كنت من هذه الامة المرحومة الكريمة على الله تعالى ثم غاية فضله العظيم وكمال جوده القديم وجعل عنوان كتابه اليك بسم الله الرحمن الرحيم ثم كثرة أياديه اليك ونعمته عليك ظاهرة وباطنة من غير شفيع أو قدم سابقة لك وتذكرت من جانب آخر كمال جلاله وعظمته وعظم سلطانه وهيبته ثم شدة غضبه الذي لا تقوم له السموات والارض ثم غاية غفلتك وكثرة ذنوبك وجفوتك مع دقة أمره وخطر معاملته في احاطة علمه وبصره بالعيوب والغيوب ثم حسن وعده وثوابه الذي لا يبلغ كنهه الاوهام وشدة وعيده وأليم عقابه الذي لا يحتمل ذكره القلوب تارة تنظر الى فضله وتارة تنظر الى عذابه وتارة تنظر الى رأفته ورحمته وتارة تنظر الى نفسك في جفواتها وجناياتها فاذا فعلت أدى بك جميع ذلك الى الخوف والرجاء وكنت قد سلكت السبيل الشارع القصد وعدلت عن الجانبين المهلكين الامن واليأس ولا تتيه فيهما من التائهين ولا تهلك مع الهالكين وشربت الشراب الممزوج العدل فلا تهلك ببرودة الرجاء الصرف ولا بحرارة الخوف الصرف وكأني بك قد وصلت الى المقصود غانما وشفيت من العلتين سالما ووجدت النفس قد انبعثت للطاعة ودانت في الخدمة ليلا ونهارا من غير فترة ولا غفلة واجتنبت المعاصي والمخازي وهجرتها هجرة (كما قال نوف البكالي) ان نوفا اذا ذكر الجنة طال شوقه واذا ذكر النار طار نومه وصرت حينئذ من الاصفياء الخواص العابدين الذين وصفهم الله تعالى بقوله انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين وكنت قد خلفت هذه العقبة الخطيرة وراءك باذن الله تعالى وحسن توفيقه فكم لك من حلاوة وصفوة في الدنيا وكم لك من ذخر كريم وأجر عظيم في العقبى والله سبحانه وتعالى مسؤل أن يمدك وايانا بحسن توفيقه وتسديده انه أرحم الراحمين وأجود الاجودين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(الباب السادس في العقبة السادسة وهي عقبة القوادح)

ثم عليك يا أخي أيدك الله وايانا بحسن توفيقه بعد ما استبان لك السبيل واستقام لك المسير بتمييز سعيك وصيانته عما يفسده ويضيعه عليك وانما لزمك ذلك باقامة الاخلاص وذكر المنة والاجتناب عن ضده لامرين (أحدهما) لما في فعله من الفائدة وهي حسن القبول من الله تعالى وفوز الثواب عليه والا فتكون مردودا ذاهب الثواب كلا أو بعضا على ما روى في الحديث المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه يقول أنا أغنى الاغنياء عن الشرك من عمل عملا فأشرك فيه غيري فنصيبي له فاني لا أقبل الا ما كان لي خالصا (وقيل) ان الله تعالى يقول لعبده يوم القيامة اذا التمس ثواب عمله ألم يوسع لك في المجالس ألم تكن الرأس في الدنيا ألم يرخص بيعك وشراؤك ألم تكرم هذا واشباهه من الخطر والضرر (قلت) ومن خطر الرياء فضيحتان ومصيبتان (أما) الفضيحتان فاحداهما فضيحة السر وهي اللوم على رؤس الملائكة وذلك لما روى ان الملائكة تصعد بعمل العبد مبتهجين به فيقول الله تعالى ردوه الى سجين فانه لم يردني به فيفتضح ذلك العمل والعبد عند الملائكة والثانية فضيحة العلانية وهي يوم القيامة على رؤس الخلائق روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان المرائي ينادي يوم القيامة بأربعة أسماء يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر ضل سعيك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم التمس الاجر ممن كنت تعمل له يا مخادع وروي انه ينادي مناد يوم القيامة يسمع الخلائق أين الذين كانوا يعبدون الناس قوموا

ثم سكت ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لي يا معاذ اني محدثك بحديث ان أنت حفظته نفعك عند الله وان أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة يا معاذ ان الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل ان يخلق السموات والارض فجعل لكل سماء من السبع ملكا بوابا عليها فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح الى حين أمسى له نور كنور الشمس حتى اذا طلعت به الى سماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني الى غيري قال ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به الى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه أراد بعمله عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري انه كان يفتخر على الناس في مجالسهم أنا ملك الفخر قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نورا من صدقة وصلاة وصيام قد أعجب الحفظة فيجاوزون به الى السماء

خذوا أجره ممن عملتم له فانى لا أقبل عملا خالطه شئ (وأما) المصيبتان فاحداهما فوت الجنة وذلك لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الجنة تكلمت وقالت أنا حرام على كل بخيل ومراء والخبر يحتمل معنيين أحدهما ان هذا البخيل من يبخل بأحسن قول وهو قول لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا المرائى من يرائى بأقبح رياء وهو المنافق الذى يرائى بايمانه وتوحيده وفى هذا القول ترجية والمعنى الثانى ان من لم يتب عن البخل والرياء ولم يراع نفسه ففيه خطران أحدهما أن يلحقه شؤم ذلك فيقع فى الكفر فتفوته الجنة رأسا والعياذ بالله والآخر سلب الايمان الذى يستحق به النار نعوذ بالله من سخطه وشديد غضبه (والمصيبة الثانية) دخول النار وذلك لما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أول من يدعى يوم القيامة رجل قد جمع القرآن ورجل قد قاتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى فيقول بلى يارب فيقول ماذا عملت فيما علمت فيقول يارب قمت به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله سبحانه بل أردت ان يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج الى أحد فيقول بلى يارب فيقول فما عملت فيما آتيتك فيقول كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله سبحانه بل أردت أن يقال انك جواد فقد قيل ذلك ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله ما فعلت فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله بل أردت أن يقال فلان جرئ وشجاع فقد قيل ذلك قال ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على ركبتى وقال يا أبا هريرة أولئك أول خلق الله تسعر بهم نار جهنم وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان النار وأهلها يعجون من أهل الرياء قيل يا رسول الله وكيف تعج النار قال من حر النار التى يعذبون بها وفى هذه الفضائح عبرة لأولى الابصار والله سبحانه ولى الهداية بفضله (فان قلت) فاخبرنا عن حقيقة الاخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما فى العمل فاعلم ان الاخلاص عند علمائنا اخلاصان اخلاص العمل واخلاص طلب الاجر (فاما) اخلاص العمل فهو ارادة التقرب الى الله عز وجل وتعظيم أمره واجابة دعوته والباعث عليه الاعتقاد الصحيح وضده هذا الاخلاص النفاق وهو التقرب الى ما دون الله سبحانه وقال شيخنا رحمه الله النفاق هو الاعتقاد الفاسد الذى هو للمنافق فى الله عز وجل وليس هو من قبيل الارادات لعلة ذكرناها فى موضعها (وأما) الاخلاص فى طلب الاجر فهو ارادة نفع الآخرة بعمل الخير وكان شيخنا رحمه الله يقول انه ارادة نفع الآخرة بخير لم يرد ردا يتعذر عليه خيره بحيث ترجى به تلك المنفعة وقد شرحنا هذه الشرائط وقال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام ما الخالص من الاعمال قال الذى يعمل لله لا يحب أن يحمده عليه أحد وهذا تعرض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لانه أقوى الاسباب المشوشة للاخلاص وقال الجنيد الاخلاص تصفية الاعمال من الكدرات وقال الفضيل الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والاقاويل فى هذا كثيرة فلا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقائق وقد قال سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم اذ سئل عن الاخلاص فقال تقول ربى الله تعالى ثم تستقيم كما أمرت أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد الا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت وهذه اشارة الى قطع كل ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا وضد الاخلاص الرياء وهو ارادة نفع الدنيا بعمل الآخرة ثم الرياء ضربان رياء محض ورياء تخليط فالمحض أن تريد به نفع الدنيا لا غير والتخليط أن تريدهما جميعا نفع الدنيا ونفع الآخرة هذا احدهما وأما تأثيرهما فان اخلاص العمل أن تجعل الفعل قربة وأما اخلاص طلب الاجر أن تجعله مقبولا وافر الاجر والتعظيم والنفاق يحبط العمل ويخرجه عن كونه قربة مستحقا عليه الثواب بالوعد من الله تعالى فالرياء المحض لا يكون من العارف عند بعض العلماء وان كان أبطل نصف الثواب وعند آخرين

الثالثة فيقول لهم الملك الموكل قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انا ملك الكبر أمرنى ربى ان لا أدع عمله يجاوزنى الى غيرى انه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهو كما هو الكوكب الدرى له دوى من تسبيح وصلاة وصيام وحج وعمرة حتى يجاوزون به الى السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وظهره وبطنه انا صاحب العجب أمرنى ربى ان لا أدع عمله يجاوزنى الى غيرى انه كان اذا عمل عملا ادخل العجب فيه قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزون الى السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة الى بعلها فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه واجعلوه على عاتقه انا ملك الحسد انه كان يحسد من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا على العباد كان يحسدهم ويقع فيهم أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى الى غيرى قال وتصعد الحفظة بعمل العبد له ضوء كضوء الشمس من صلاة وزكاة وحج وعمرة وجهاد وصيام فيجاوزون به الى السماء

قد يكون الرياء المحض من العارف وانه يذهب بنصف الاضعاف والتخليط يذهب بربع الاضعاف والصحيح عند شيخنا رحمه الله ان الرياء المحض لا يكون من العارف عند تذكر الآخرة ويكون مع السهو والمختار ان من تأثير الرياء رفع القبول والنقصان في الثواب ولا تقدير له بنصف ولا ربع وشرح هذه المسائل يطول وقد شرحناها في كتاب احياء علوم الدين شرحا مستقصيا وأشبعنا القول في أسرار معاملات الدين (فان قلت) فما موضع الاخلاص وفي أي طاعة يقع ويجب فاعلم ان الاعمال عند بعض العلماء ثلاثة أقسام قسم يقع فيه الاخلاصان جميعا وهو العبادة الظاهرة الاصلية وقسم لا يقع فيه شيء منهما وهو العبادة الباطنة الاصلية وقسم يقع فيه اخلاص طلب الاجر دون اخلاص العمل وهو المباحات المأخوذة للعدة قال شيخنا رحمه الله ان كل عمل يحتمل الصرف الى غير الله تعالى من العبادات الاصلية يقع فيه اخلاص العمل فالعبادات الباطنة أكثرها يقع فيها اخلاص العمل (وأما) اخلاص طلب الاجر قال مشايخ الكرامية لا يقع في العبادات الباطنة اذ لا يطلع عليها أحد الا الله سبحانه فامتنع فيها دواعي الرياء فلم يحتج الى اخلاص طلب الاجر وكان شيخنا رحمه الله يقول اذا أراد العبد المتقرب من الله بالعبادات الباطنة نفع الدنيا فهو أيضا رياء (قلت أنا) ولا يبعد اذن أن يقع في كثير من العبادات الباطنة الاخلاصان وكذلك النوافل يجب فيها الاخلاصان جميعا عند الشروع وأما المباحات المأخوذة للعدة فانما يقع فيها اخلاص طلب الاجر دون اخلاص العمل اذ هي لا تصلح أن تكون بنفسها قربة بل هي عدة على القربة (فان قلت) هذا موضعهما فبين لنا وقتهما من العمل فاعلم ان اخلاص العمل مع الفعل يقارنه لا محالة ولا يتأخر عنه وأما اخلاص طلب الاجر ربما يتأخر عنه وعند بعض العلماء يعتبرون فيه وقت الفراغ من العمل فاذا فرغ على اخلاص أو رياء فقد انقضى الامر ولا يمكنه استدراكه بعد وعند غيرنا من مشايخ الكرامية ما لم ينل المنفعة المطلوبة بالرياء يمكنه اقامة الاخلاص في ذلك العمل فاذا نال المطلوب فقد فات وقال بعض العلماء ان الفريضة يمكن اقامة الاخلاص فيها الى الموت (وأما) النوافل فلا سبيل الى ذلك قال والفرق بينهما ان الله تعالى أدخل العبد في الفريضة فأمول منه التفضل والتيسير فيها وأما النفل فالعبد الذي أدخل نفسه فيه وتكلفه فطولب بحق ما تكلف (قلت) أنا وفي المسئلة فائدة وهي ان من سبق منه الرياء أو ترك الاخلاص في عمل فيمكنه استدراك ذلك وتلافيه على أحد الوجوه التي ذكرناها قبل والمقصود من نقل مذاهب الناس في هذه الدقائق علمنا الآن بقلة العاملين وقلة الرغبة في سلوك هذه الطريق والتقريب على المبتدي في العبادة فان لم يجد لعلته دواء في هذا القول وجده في الآخر لاختلاف الامراض والاغراض وعلل الاعمال وآفاتها فانهم راشدا ان شاء الله تعالى (فان قلت) أكل عمل يحتاج الى اخلاص مفرد فاعلم انه قد اختلفوا في ذلك فقيل انه يجب لكل عمل اخلاص مفرد وقيل انه يجوز تناول اخلاص واحد بجملة من العبادات أما العمل ذو الاركان كالصلاة والوضوء يكفيهما اخلاص واحد لان بعضها متعلق ببعض صلاحا وفسادا فصارت كشيء واحد (فان قلت) ان أراد بعمله الخير نفعا من الله تعالى ولا يريد من الناس شيأ من مدحة أو سمعة أو منفعة أيكون ذلك رياء (فاعلم) ان ذلك محض الرياء قال علماؤنا رحمهم الله الاعتبار في الرياء بالمراد لا بالذي يريد منه فان كان مرادك من عمل الخير نفعا دنيويا فانه رياء سواء اردته من الله أو من الناس قال الله تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب وليس الاعتبار بلفظة الرياء واشتقاقها من معنى الرؤية وانما سميت هذه الارادة الفاسدة بهذا الاسم لانها أكثر ما تقع وتكون من قبل الناس ورؤيتهم فافهم (فان قلت) اذا كان القصد من الدنيا التي يريدها من الله التعفف عن الناس والعدة على عبادة الله يكون ذلك رياء فاعلم ان التعفف ليس في كثرة المال والجاه والحطام وانما هو في القناعة والثقة بكفاية الله سبحانه (وأما) العدة على عبادة الله تعالى فاذا كان مراده ذلك فلا يكون رياء وذلك مما يتصل بأمر الآخرة وأسبابها وتصير

السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه كان لا يرحم انسانا قط من عباد الله أصابه بلاء أو مرض بل كان يشمت بهم أنا ملك الرحمة أمرني ربي ان لا أدع عمله يجاوزني الى غيري قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وصيام ونفقة وجهاد وورع له دوي كدوي النحل وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به الى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا جوارحه وأقفلوا على قلبه أنا أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به ربي انما أراد بعمله غير الله تعالى انه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء وصيتا في المدائن أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني الى غيري وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات السبع حتى يقطعوا الحجب كلها الى الله تعالى فيقفون بين يديه يشهدون له بالعمل الصالح الخالص لله تعالى فيقول الله

قصده قطعا لذلك فان أريد بعمل الخير هذا النوع لا تكون تلك الارادة رياء لان هذه الامور تصير بتلك النية خيرا أو تصير في حكم أعمال الآخرة ولا تكون ارادة الخير رياء وكذلك ان أردت أن يكون لك تعظيم عند الناس أو محبة عند المشايخ والأئمة ويكون قصدك من ذلك التمكن من تأييد مذهب أهل الحق أو الرد على أهل البدع أو النشر للعلم أو حض الناس على العبادة ونحو ذلك دون ان تقصد بذلك شرف نفسك من حيث هي أو دنيا تنالها فان هذه كلها ارادة سديدة ونيات محمودة لا يدخل شيء منها في باب الرياء اذ المقصود منها أمر الآخرة بالحقيقة واعلم اني سألت بعض مشايخنا عما يعتاده أولياؤنا من قراءة سورة الواقعة في أيام العسرة أليس المراد بذلك أن يدفع الله تلك الشدة عنهم ويوسع عليهم شيأ من الدنيا على ما جرت به العادة فكيف تصح ارادة متاع الدنيا بعمل الآخرة فقال في جوابه رحمه الله كلاما معناه ان المراد منهم أن يرزقهم الله قناعة أو قوتا يكون لهم عدة على عبادة الله وقوة على درس العلم وهذه من جملة ارادات الخير دون الدنيا واعلم أن هذه السيرة أعني قراءة هذه السورة عند الشدة في أمر الرزق والخصاصة انما هو شيء وردت به الاخبار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حتى ان ابن مسعود حين عوتب في أمر ولده اذ لم يترك لهم من الدنيا شيأ قال لقد خلفت لهم سورة الواقعة ومن ذلك الاصل في السنة جرت هذه الخصلة في سير علمائنا رحمهم الله والافلا لا اذ لهم بحمد الله تعالى بشدة في أمر الدنيا أو سعة وهم الذين يغتنمون ضيق الدنيا وعسرها ويتغالون في ذلك فيما بينهم ويعدونه من الله تعالى منة عظيمة ويخافون اذا بدا لهم من الله سعة من الدنيا التي لا يعدها أكثر الناس الا الاحسان والنعمة أن يكون ذلك استدراجا من الله تعالى ومصيبة كيف وبطانتهم الاسفار والطي في عموم الاحوال ومقدمهم يقولون الجوع رأس مالنا فهذا وضع مذهب أهل التصوف وهو مذهبي ومذهب أشياخي وبذلك جرت سيرة سلفنا وأما تقصير بعض المتأخرين فلا يعتبر به وانما ذكرنا هذا الفصل لئلا يغمز فيهم مخالف جهلا منه بمقاصد القوم في أمورهم أو يغلط فيهم مبتدئ سليم الصدر لم يأخذ من العلم حقه (فان قيل) كيف يليق هذا بحال أهل العلم والتجرد والزهد وأرباب الصبر والرياضة فاعلم ان هذا شيء مأخوذ من السنة ثم المقصود حصول القناعة والعدة لا اتباع الشره والشهوة والضعف عن احتمال العسرة والشدة وأكثر ما ترى في عقب ذلك قناعة القلب وفقد كلب الجوع وضعفه وسلوه عن الطعام ونهمته وقد علم ذلك من امتحنه فاعلم هذه الجملة موفقا ان شاء الله تعالى (القادح الثاني) العجب وانما يلزمك اجتنابه لامرين أحدهما أنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى فان المعجب مخذول فاذا انقطع عن العبد التأييد والتوفيق من الله تعالى فما أسرع ما يهلك ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه والثاني انه يفسد العمل الصالح ولذلك قال المسيح عليه السلام يا معشر الحواريين كم من سراج قد اطفأته الريح وكم من عابد قد أفسده العجب واذا كان المقصود والفائدة العبادة وهذه الخصلة تحرم العبد حتى لا يحصل له خير فان حصل له خير فقليل من ذلك يفسده حتى لا يبقى بيده شيء فحقيق ان يحذر من ذلك ويتحفظ والله تعالى ولي التوفيق والعصمة (فان قيل) فما حقيقة العجب وما معناه وما تأثيره وحكمه فبين لنا ذلك فاعلم ان حقيقة العجب استعظام العمل الصالح وتفصيله عند علمائنا رحمهم الله ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح بشيء دون الله عز وجل أو الناس أو النفس قالوا وقد يكون العجب مثلثا بأن يذكر ذلك من هذه الثلاثة جميعا النفس والخلق والشيء ومثنى بأن يذكره من اثنين وموحدا بأن يذكره من واحد وضد العجب ذكر المنة وهو أن يذكر أنه بتوفيق الله سبحانه وأنه الذي شرفه وعظم ثوابه وقدره وهذا الذكر فرض عند دواعي العجب نفل في سائر الاوقات (وأما) تأثير العجب في العمل قال بعض علمائنا المعجب ينتظر الاحباط فان تاب قبل موته سلم والا أحبط واليه ذهب محمد بن صابر من شيوخ الكرامية والاحباط عنده أن يذهب عن العمل جميع الاسماء الحسنة حتى لا يستحق بذلك ثوابا ولا مدحة البتة وفي قول غيره هو ذهاب الاضعاف لا غير

تعالى أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على قلبه انه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي فتقول الملائكة كلها عليه لعنتك ولعنتنا وتلعنه السبع السموات ومن فيهن فبكى معاذ قال معاذ قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ فكيف لي بالخلاص والنجاة قال اقتد بي وان كان في عملك نقص يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في اخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك وتذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فتنقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار قال الله تعالى والناشطات نشطا هل تدري ماهن يا معاذ قلت ماهي بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال كلاب في النار تنشط اللحم من العظم قلت بأبي وأمي أنت يا رسول الله من يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها قال يا معاذ انه ليسير على من يسره الله عليه قال خالد بن معدان فما رأيت أحدا أكثر تلاوة للقرآن العظيم

(فان قلت) كيف يلتبس على العبد العارف أن الله تعالى هو الذى وفق للعمل الصالح وعظم قدره وأكثر ثوابه بفضله ومنه فاعلم ان ههنا نكتة لطيفة وذخيرة شريفة وهو ان الناس فى العجب ثلاثة أصناف صنف هم المعجبون بكل حال وهم المعتزلة والقدرية الذين لا يرون لله عليهم منة فى أفعالهم وينكرون العون والتوفيق الخاص واللطف وذلك لشبهة استولت عليهم وصنف هم الذاكرون لله المنة بكل حال وهم المستقيمون لا يعجبون بشئ من الاعمال وذلك لبصيرة أكرموا بها وتأييد خصوا به والثالث وهم المخلطون وهم عامة أهل السنة تارة ينتبهون فيذكرون منة الله وتارة يغفلون فيعجبون بذلك لمكان الغفلة العارضة والفترة فى الاجتهاد والنقص فى البصيرة (فان قلت) كيف حال القدرية والمعتزلة فى أفعالهم فاعلم أن فى ذلك اختلافات فقيل انه محبط لمكان اعتقادهم (وقيل) لا يحبط عمل باعتقاد فى الجملة من فرق الاسلام حتى يخص كل عمل باعجاب كما ان اعتقاد أهل السنة لا يمنع العجب فى كل عمل حتى يخصه بذكر المنة (فان قيل) فهل سوى العجب والرياء من قادح فى العمل قيل له أجل ان فيه لقوادح سواهما لكنا خصصناهما بالذكر لانهما الاصل الذى يدور عليهما معظم الابواب وقد قال بعض المشايخ ان حق العبد أن يتحفظ فى العمل من عشرة أشياء النفاق والرياء والتخليط والمن والأذى والندامة والعجب والحسرة والتهاون وخوف ملامة الناس ثم ذكر شيخنا رحمه الله ضد كل خصلة منها واضرارها بالعمل فضد النفاق الاخلاص العمل وضد الرياء اخلاص طلب الاجر وضد التخليط التفريد وضد المن تسليم العمل الى الله وضد الاذى تحصين العمل وضد الندامة تثبيت النفس وضد العجب ذكر المنة وضد الحسرة اغتنام الخير وضد التهاون تعظيم التوفيق وضد خوف الملامة الخشية واعلم ان النفاق يحبط العمل والرياء يوجب رده والمن والاذى يحبطان الصدقة أصلا فى الوقت وعند بعض المشايخ رحمهم الله يبطلان اضعافها (وأما) الندامة فانها تحبط العمل فى قولهم جميعا والعجب يذهب اضعاف العمل والحسرة والتهاون وخوف الملامة تخفف العمل فتذهب زيادته (قلت) فالقبول والرد عند أهل التحصيل يرجعان الى ضروب من التعظيم والاستخفاف والاحباط ابطال منافع تكون بالفعل وبسببه ثم تارة يكون بابطال الثواب وأخرى بابطال التضعيف والثواب منفعة يقتضيها الفعل بعينه وقرائنه وأحواله والتضعيف زيادة على هذا والزيادة زيادة تحصل بمقتضى قرائن وأحوال أخر كالاحسان الى أحد من أهل الخير ثم الى الوالدين ثم الى نبى من الانبياء ففى الشئ يكون زيادة ولا يكون تضعيف فهذا تهذيب ما تحققت فى هذه المعانى فاعلم ذلك وبالله التوفيق

(فصل) فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة ذات المقاطع والمتالف فى غاية التحرز فان صاحب بضاعة الطاعات قد قطع كل تلك العقبات وتحمل تلك المشقات حتى حصلت له بضاعة من العبادة عزيزة شريفة فانه لا يتخاف على بضاعته تلك الا فى هذه العقبة فان فيها مقاطع يحذر أن تسلب فيها بضاعته ومتالف يحذر ان يبدو منها آفات تفسد عليه طاعته ثم أعظمها خطرا وأعمها وقوعا هذان القاطعان اللذان هما الرياء والعجب فلنذكر فى كل واحد منهما أصولا مقنعة تجردها لك لعلك تكفى مؤنتها باذن الله ان شاء الله (أما) الرياء فاذكر فيه أولا قول الله سبحانه الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما كأن الله سبحانه يقول انى خلقت السموات والارض وما بينهما فى كل هذه الصنائع والبدائع واكتفيت بنظرك لتعلم انى قادر عالم وأنت تصلى ركعتين مع ما فيهما من المعايب والتقصير فلا تكتفى بنظرى اليك وبعلمى بك وثنائى عليك وشكرى لك حتى تحب أن يعلم الخلق ليحمدوك بذلك أيكون ذلك وفاء أيكون ذلك عقلا برضاه أحد لنفسه ويحك أفلا تعقل (الاصل الثانى) أن من كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ فى ثمنه ألف ألف دينار فباعه بفلس أليس يكون ذلك خسرانا عظيما وغبنا فظيعا ودليلا بينا على خسة الهمة وقصور العلم وضعف الرأى وركة العقل فما يناله العبد بعمله من الخلق من مدحة وحطام بالاضافة الى رضا رب العالمين وشكره وثنائه وثوابه لا أقل من فلس فى جنب ألف ألف دينار وأضعاف ذلك بل فى جنب الدنيا وما فيها

من معاذ لهذا الحديث العظيم فتأمل أيها الراغب فى العلم هذه الخصال واعلم ان أعظم الاسباب فى رسوخ هذه الخبائث فى القلب طلب العلم لاجل المباهاة والمنافسة فالعامى بمعزل عن أكثر هذه الخصال والمتفقه مستهدف لها وهو معرض للهلاك بسببها فانظر أى أمورك أهم أن تتعلم كيفية الحذر من هذه المهلكات وتشتغل باصلاح قلبك وعمارة آخرتك أم الاهم أن تخوض مع الخائضين فتطلب من العلم ما هو سبب زيادة الكبر والرياء والحسد والعجب حتى تهلك مع الهالكين * واعلم أن هذه الخصال الثلاث من أمهات خبائث القلب ولها مغرس واحد وهو حب الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة ومع هذا فالدنيا مزرعة للآخرة فمن أخذ من الدنيا بقدر الضرورة ليستعين به على الآخرة فالدنيا مزرعته ومن أراد الدنيا ليتنعم بها فالدنيا مهلكته فهذه نبذة يسيرة من ظاهر علم التقوى وهى بداية الهداية فان جربت نفسك فيها وطاوعتك عليها فعليك بكتاب احياء علوم الدين لتعرف كيفية الوصول الى باطن التقوى فاذا عمرت بالتقوى باطن قلبك فعند ذلك ترتفع الحجب

وأكثروا كبر ألا يكون من الخسران المبين ان تفوت نفسك تلك الكرامات العزيزة الشريفة بهذه الامور الحقيرة الدنية ثم ان كان ولابد لك من هذه الهمة الخسيسة فاقصد أنت الآخرة تتبعك الدنيا بل اطلب الرب وحده يعطك الدارين اذ هو مالكهما جميعا وذلك قوله تعالى من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وقال عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى ليعطي الدنيا بعمل الآخرة ولا يعطي الآخرة بعمل الدنيا فاذا أنت أخلصت النية وجردت الهمة للآخرة حصلت لك الآخرة والدنيا جميعا وان أنت أردت الدنيا ذهبت عنك الآخرة في الوقت وربما لا تنال في الدنيا كما تريد وان نلتها فلا تبقى لك فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة فتأمل أيها العاقل (الاصل الثالث) أن المخلوق الذي لاجله تعمل ورضاه تطلب لو علم انك تعمل لاجله لأبغضك ولسخط عليك واستهان بك واستخف بك فكيف يعمل الرجل العاقل العمل لاجل من لو علم به أنه يطلب رضاه لسخط عليه وأهانه فاعمل يا مسكين لاجل من اذا عملت لاجله وقصدته بعملك وطلبت رضاه بذلك أحبك وأعطاك وأكرمك حتى أرضاك وأغناك عن الكل وكفاك فهذه هذه فافطن لها ان كنت تعقل (الاصل الرابع) ان من حصل له سعي تام يمكن ان يكتسب به رضا أعظم ملك في الدنيا فطلب به رضا كناس خسيس بين الناس فيكون ذلك دليلا على السفه ورداءة الرأي منه وسوء الحظ له ويقال ما حاجتك الى رضا هذا الكناس مع امكانك من رضا الملك فكيف وقد سخط الكناس عليك بسبب سخط الملك ففاتك الكل فهذا حال المرائي فأي حاجة الى ارضاء مخلوق حقير ضعيف مهين وأنت متمكن من تحصيل رضوان الله رب العالمين الكافي عن الكل فان ضعفت الهمة وكانت البصيرة حتى طلبت رضا مخلوق لامحالة فسبيلك أن تجرد ارادتك وتخلص سعيك لله سبحانه فان القلوب والنواصي بيده فهو يميل اليك القلوب ويجمع لك النفوس ويشحن من حبك الصدور فتنال من ذلك ما لا تنال بجهدك وقصدك فان لم تفعل وقصدت بعملك رضا المخلوقين دونه سبحانه وتعالى فانه يصرف عنك القلوب وينفر عنك النفوس ويسخط عليك الخلق فيحصل لك بهذا الامر سخط الله وسخط الناس جميعا فيا له من خسران وحرمان ولقد ذكر عن الحسن أنه قال كان رجل يقول والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها وكان أول داخل المسجد وآخر خارج منه لا يراه أحد حين الصلاة الا قائما يصلي وصائما لا يفطر ويجلس الى حلق الذكر فلبث كذا سبعة أشهر فكان لا يمر بقوم الا قالوا فعل الله بهذا المرائي وصنع فاقبل على نفسه باللوم وقال لها اني أراني في غير شئ لأجعلن عملي كله لله فلم يزد على عمله الذي كان يعمل قبل ذلك شيأ الا انه تغيرت نيته الى الخير فكان بعد ذلك يمر بالناس فيقولون رحم الله فلانا الآن قد أقبل على الخير ثم قرأ الحسن ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا قال يحبهم ويحببهم الى المؤمنين ولقد صدق القائل

يامبتغي الحمد والثواب * في عمل تبتغي محالا
قد خيب الله ذا رياء * وأبطل السعي والكلالا
من كان يرجو لقاء رب * أخلص من خوفه الفعالا
الخلد والنار في يديه * فراته يعطك النوالا
والناس لا يملكون شيا * فكيف راءيتهم ضلالا

وأما العجب فلنذكر فيه أصولا أحدها ان فعل العبد انما صارت له قيمة لما وقع من الله موقع الرضا والقبول والافترى الاجير يعمل طول النهار بدرهمين والحارس يسهر طول الليل بدانقين وكذلك أصحاب الصناعات والحرف كل واحد يعمل في الليل والنهار فيكون قيمة ذلك دراهم معدودة فان صرفت الفعل الى الله تعالى فصمت لله تعالى يوما فيكون صومك ذلك اليوم لا قيمة له اذا رضيه وتقبله قال الله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وفي الخبر أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

بيتك وبين ربك وتنكشف لك أنوار المعارف وتتفجر من قلبك ينابيع الحكمة وتتضح لك أسرار الملك والملكوت ويتيسر لك من العلوم ما تستحقر به هذه العلوم المحدثة التي لم يكن لها ذكر في زمن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وان كنت تطلب العلم من القيل والقال والمراء والجدال فما اعظم مصيبتك وما أطول تعبك واعظم حرمانك وخسرانك فاعمل ماشئت فان الدنيا التي تطلبها بالدين لا تسلم لك والآخرة تسلب منك ومن طلب الدنيا بالدين خسرهما جميعا ومن ترك الدنيا للدين ربحهما جميعا فهذه جمل الهداية الى بداية الطريق في معاملتك مع الله تعالى باداء أوامره واجتناب نواهيه وأشير عليك الآن بجمل من الآداب لتؤاخذ بها نفسك في مخالطتك مع عباد الله تعالى وصحبتك معهم في الدنيا

(القول في آداب الصحبة والمعاشرة مع الخالق سبحانه وتعالى ومع الخلق)

اعلم ان صاحبك الذي لا يفارقك في حضرك وسفرك ونومك ويقظتك بل في حياتك وموتك هو ربك وسيدك ومولاك وخالقك ومهما ذكرته فهو جليسك اذ قال الله تعالى أنا جليس

فهذا يومك الذي قيمته درهمان مع احتمالك التعب العظيم صار له كل هذه القيمة بتأخير غدائك الى عشاء ولو قمت ليلة لله تعالى وأخلصتها له كان قيامك لا قيمة له في الشرف والنفاسة قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون فهذا الذي قيمته دانقان أو درهمان صار له كل هذه القيمة والقدر بل لو جعلت لله ساعة تصلي فيها ركعتين خفيفتين بل نفسا قلت فيه لا اله الا الله قال الله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب فهذا نفس من أنفاسك التي لا قيمة لها عند أهل الدنيا ولا عندك فكم تضيع أمثال ذلك في لا شيء وكم عمر ضاع لك من الزمان بلا فائدة وصار له كل هذا القدر العظيم لما انه وقع مرضيا لله تعالى فعظم قدره وكثرت قيمته بفضله فحق للعاقل اذن أن يرى حقارة عمله وقلة قدره من حيث هو وان لا يرى الا منة الله تعالى عليه فيما شرف من قدر عمله وأعظم من جزائه وان يحذر على فعله من ان يقع على وجه لا يصلح لله ولا يقع منه موقع الرضا فتذهب عنه القيمة التي حصلت له ويعود الى ما كان في الاصل من الثمن الحقير من دراهم أو دوانق وأحقر وأخس من ذلك ومثاله ان العنقود من العنب والاضبارة من الريحان يكون قيمته في السوق دانقا فان أهداه واحد الى ملك مع خسته فوقع منه موقع الرضا يهب له على ذلك ألف دينار لما وقع منه موقع الرضا فصار ما قيمته حبة بألف دينار فاذا لم يرضه الملك ورده اليه رجع الى قيمته الخسيسة من حبة أو دانق فكذلك ما نحن فيه فتنبه وأبصر منة الله وصن فعالك عما يشينه عند الله عز وجل (والاصل الثاني) ما تعلم ان الملك في الدنيا اذا أجرى على أحد جرايته من طعام أو شراب أو كسوة أو دراهم أو دنانير معدودة فانية فانه يستخدمه آناء الليل والنهار مع ما في ذلك من الذل والصغار ويقوم على رأسه حتى تخدر رجلاه ويسعى بين يديه اذا ركب وربما يحتاج أن يكون على بابه طول الليل حارسا وربما يبدو له عدو فيحتاج ان يقاتل عدوه فيبذل روحه التي لا خلف عنها لاجله ويحتمل كل هذه الخدمة والكلفة والخطر والضرر لاجل تلك المنفعة النكدة الحقيرة مع انها الحقيقة من الله تعالى وانما هو بمنزلة سبب في ذلك فربك الذي خلقك ولم تك شيأ ثم رباك فاحسن اليك التربية ثم انعم عليك من النعم الظاهرة والباطنة في دينك ونفسك ودنياك ما لا يبلغ كنهها فهمك ووهمك قال عز من قائل وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها الآية ثم انك تصلي ركعتين مع ما فيهما من المعايب والآفات ومع ما وعدك عليهما في المستقبل من حسن الثواب وضروب الكرامات حتى تستعظم ذلك وتعجب به فليس ذلك من شأن عاقل اذا نظرت فهذه هذه (والاصل الثالث) ان الملك الذي من شأنه ان يخدمه الملوك والامراء وتقوم على رأسه السادات والعظماء ويتولى خدمته الالباء والحكماء ويطلب مدحته العقلاء والعلماء ويمشي بين يديه الاكابر والرؤساء اذا أذن لسوقي أو قروي بمقتضى رأفة وعناية له في بابه حتى زاحم أولئك الملوك والسادات والاكابر والافاضل في خدمته ومدحته وجعل له مقاما من حضرته معلوما ونظر الى خدمته بعين الرضا وان كانت مشوشة معيبة أليس يقال له لقد كبرت على هذا الحقير المنة من الملك وعظمت عنايته به فان أخذ هذا الحقير يمن على الملك بتلك الخدمة المعيبة ويستعظم ذلك ويعجب به ألا يقال ان ذلك لسفيه جدا أو مجنون لا يعقل شيأ ولما تقرر هذا فان الله سبحانه هو الملك الذي يسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده والمعبود الذي يسجد له من في السموات والارض طوعا وكرها فمن الخدم على بابه جبريل الامين وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وحملة العرش والكرسي والروحانيون وسائر الملائكة المقربين الذي لا يحصي عددهم الا الله رب العالمين في منازلهم الرفيعة وأنفسهم الطاهرة وعباداتهم العظيمة ثم من الذين هم خدمة على بابه آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد خير العالمين مع سائر الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في مراتبهم المنيفة ومناقبهم العزيزة الشريفة ومقاماتهم الكريمة وعباداتهم الجليلة الخطيرة ثم العلماء الائمة الابرار والزهاد في مراتبهم العظيمة الفاخرة وابدانهم النقية الطاهرة وعباداتهم الكثيرة الخالصة المتظاهرة واذل الخدم على بابه ملوك الدنيا

من ذكرني ومهما انكسر قلبك حزنا على تقصيرك في حق دينك فهو صاحبك وملازمك اذ قال الله تعالى انا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي فلو عرفته حق معرفته لاتخذته صاحبا وتركت الناس جانبا فان لم تقدر على ذلك في جميع أوقاتك فاياك ان تخلي ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه لمولاك وتتلذذ معه بمناجاتك وعند ذلك فعليك أن تتعلم آداب الصحبة مع الله تعالى (وآدابها) اطراق الرأس وغض الطرف وجمع الهم ودوام الصمت وسكون الجوارح ومبادرة الامر واجتناب النهي وقلة الاعتراض على القدر ودوام الذكر وملازمة الفكر وايثار الحق على الباطل والاياس عن الخلق والخضوع تحت الهيبة والانكسار تحت الحياء والسكون عن حيل الكسب ثقة بالضمان والتوكل على فضل الله معرفة بحسن الاختيار وهذا كله ينبغي أن يكون شعارك في جميع ليلك ونهارك فانه آداب الصحبة مع صاحب لا يفارقك والخلق يفارقونك في بعض أوقاتك وان كنت عالما فآداب العلم سبعة عشر الاحتمال ولزوم الحلم والجلوس بالهيبة على سمت الوقار مع اطراق الرأس

وجبابرتها يخرون له على الاذقان ساجدين صاغرين ويعفرون الوجوه فى التراب خاضعين ويرفعون نحوه أيديهم اليه باكين باهلين ضارعين ويعترفون له بالعبودية ولانفسهم بالنقص ساجدين صاغرين حتى ربما ينظر اليهم نظرة ويقضى لهم بفضله حاجة أو يتجاوز عنهم بكرمه زلة وانه مع هذه العظمة والجلال والملك والكمال قد أذن لك فى خدمته وعبادته وزيارته وأنت الذى لو استأذنت على رئيس بلدك فربما لا يأذن لك وان كلمت أمير ناحيتك فربما لا يكلمك وان حدث لسلطان بلدك بالارض فربما لا يلتفت اليك وقد أذن لك جل جلاله حتى تعبده وتثنى عليه وتخاطبه بل تدل عليه بالمسئلة وتباسطه فتستقضيه حاجاتك وتستكفيه مهماتك ثم انه يرضى ركعتيك فى معاليهما بل يعد لك عليهما من الثواب ما لا يخطر بقلب بشر وأنت مع ذلك تعجب بهاتين الركعتين وتستكثر ذلك وتستعظمه ولا ترى منة الله عليك فى ذلك فما أسوأك من عبد وما أجهلك من انسان والله تعالى المستعان واليه المشتكى من هذه النفس الجاهلة وعليه التكلان فهذه هذه

(فصل) وعلى وجه آخر ان الملك العظيم اذا أذن فى ادخال الهدايا اليه فتدخل بحضرته الامراء والكبراء والرؤساء والنبلاء والاغنياء بأنواع الهدايا من الجواهر الثمينة والذخائر النفيسة والاموال الجليلة فان جاء بقال بباقة بقل أو قروى بسلة عنب تساوى دانقا أو حبة فيدخل فى حضرته ويزاحم أولئك الاكابر والاغنياء بهداياهم الكثيرة الشريفة وهذا الملك يقبل من هذا الفقير هديته وينظر اليه بنظر القبول والرضا ويأمر له بأنفس خلعة وكرامة ألا يكون ذلك منه غاية الفضل والكرم فان أخذ هذا الفقير عن بذله على الملك ويعجب به ويستعظمه ويتمنى ذكره منة الملك ألا يقال ان هذا مجنون مضطرب العقل أو سفيه سيئ الادب عظيم الجهل فالآن يجب أنك اذا قمت لله ليلة وصليت له ركعتين فاذا فرغت فتفكر كم قام لله سبحانه فى هذه الليلة من الخدم فى أقطار الارض برها وبحرها وجبالها وبلادها من أصناف المتقين والصديقين والخائفين والمشتاقين والمجتهدين والمتضرعين وكم حضرت فى هذه الساعة بباب الله سبحانه من عبادة صافية وخدمة خالصة عن أنفس خاشعة وألسن طاهرة وعيون باكية وقلوب عامرة وصدور نقية وأركان تقية وصلواتك ان كنت بذلت المجهود فى تحسينها واحكامها واخلاصها فلا تكاد تصلح لحضرة هذا الملك العظيم ولا تتبين فى جنب تلك العبادات التى تعرض هنالك كيف وقد كانت منك عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب وبدن نجس بأقذار الذنوب ولسان متلطخ بأنواع المعصية والفضول فكيف يصلح هذا ان يحمل الى تلك الحضرة وكيف يستأهل ان يهدى الى رب العزة قال شيخنا رحمه الله انظر أيها العاقل هل وجهت قط صلاة من صلواتك الى السماء كأنها بعثتها الى بيوت الاغنياء وكان أبو بكر الوراق يقول ما فرغت من صلاة الا استحييت منها حين فرغت منها أشد حياء من امرأة فرغت من الزنا (ثم) ان الرب الكريم سبحانه بمحض كرمه وفضله عظم قدر هاتين الركعتين ووعد عليهما من جزيل الثواب ما وعد وأنت عبده وفى جوارحه وعملت ما عملت بتوفيقه وتيسيره ثم مع ذلك كله تعجب بذلك وتنسى منة الله عليك هذا والله أعجب العجب لا يكاد يصدر مثله الا عن جاهل لا فكرة له وغافل لا ذهن له أو قلب ميت خاو لا خير فيه فهذه هذه نسأل الله حسن الكفاية بمنه وفضله

(فصل) ثم أقول بعد هذه الجملة تيقظ من رقدتك أيها الرجل فى هذه العقبة والا كنت من الخاسرين فان هذه العقبة أشد وأشق وأمر وأضر عقبة استقبلتك فى هذه الطريق اذ اليها تنتهى ثمرة كل ما مضى من العقبات فان سلمت غنمت وربحت وان كانت الاخرى فقد ضاع السعى كله وخاب الامل وبطل العمر ثم الشان كله انه قد اجتمع فى هذه العقبة ههنا ثلاثة أمور الاول منها ان الامر دقيق جدا والغبن شديد والخطر عظيم اما دقة الامر فان مجارى الرياء والعجب فى الاعمال دقيقة خفية بالغاية فلا يكاد يتنبه لذلك الا كل نحرير فى أمر الدين بصير يقظان القلب متحرز وأنى يطلع عليه الجاهل اللعوب والغافل النؤوم ولقد سمعت بعض علمائنا رحمهم الله بنيسابور يحكى ان عطاء السلمى رحمة الله عليه ورضوانه نسج ثوبا فأحكمه وحسنه جدا ثم حمله الى السوق فعرضه فاسترخصه البزاز

فقال

وترك التكبر على جميع العباد الا على الظلمة زجرا لهم عن الظلم وايثار التواضع فى المحافل والمجالس وترك الهزل والدعابة والرفق بالمتعلم والتأنى بالمتحرف واصلاح البليد بحسن الارشاد وترك الحرد عليه وترك الانفة من قول لا أدرى وصرف الهمة الى السائل وتفهم سؤاله وقبول الحجة والانقياد للحق بالرجوع اليه عن الهفوة ومنع المتعلم عن كل علم يضره وزجره عن أن يريد بالعلم النافع غير وجه الله تعالى وصد المتعلم عن أن يشغل نفسه بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين وفرض عينه اصلاح ظاهره وباطنه بالتقوى ومؤاخذة نفسه أولا بالتقوى ليقتدى المتعلم أولا بأعماله ويستفيد ثانيا من أقواله وان كنت متعلما فأدب المتعلم مع العالم أن يبدأه بالتحية والسلام وان يقل بين يديه الكلام ولا يتكلم ما لم يسأله استاذه ولا يسأل أولا ما لم يستأذن ولا يقول فى معارضة قوله قال فلان بخلاف ما قلت ولا يشير عليه بخلاف رأيه فيرى أنه أعلم بالصواب من استاذه ولا يشاور جليسه فى مجلسه ولا يلتفت الى الجوانب بل يجلس مطرقا ساكنا متأدبا كأنه فى الصلاة ولا يكثر عليه عند ملله واذا

فقال ان فيه عيوبا كثيرة وكيت فأخذه عطاء وجلس يبكي بكاء شديدا فندم الرجل على ذلك وجعل يعتذر اليه ويبذل له في ثمنه ما يريد فقال له عطاء ليس ذلك كما تظن انما أنا عامل في هذه الصناعة وقد اجتهدت في احكام هذا الثوب واصلاحه وتحسينه حتى لا يوجد به عيب فلما عرض على البصير بعيوبه أظهر فيه عيوبا كنت عنها غافلا فكيف اعمالنا هذه اذا عرضت غدا على الله كم يبدو فيها من العيوب والنقصان الذي نحن اليوم عنها غافلون

* وعن بعض الصالحين قال كنت ليلة في وقت السحر في غرفة لدي شارعة أقرأ سورة طه فلما أن ختمتها اغفوت غفوة فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة منشرها بين يدي فاذا فيها سورة طه واذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة الا كلمة واحدة فاني رأيت مكانها محوا ولم أر تحتها شيأ فقلت والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أرى لها ثوابا ولا أراها اثبتت فقال الشخص صدقت قد قرأتها وكتبناها الا أنا سمعنا مناديا ينادي من قبل العرش امحوها وأسقطوا ثوابها فمحوناها قال فبكيت في منامي وقلت لم فعلتم ذلك قال مر رجل فرفعت بها صوتك لاجله فذهب ثوابها فهذه هذه (وأما) شدة الغبن فلان الرياء والعجب آفة عظيمة تقع في لحظة فربما تفسد عليك عبادة سبعين سنة (وحكي) أن رجلا أضاف سفيان الثوري رحمه الله وأصحابه فقال لاهله هاتوا الطبق لا الذي أتيت به في الحجة الاولى بل الذي أتيت به في الحجة الثانية فنظر اليه سفيان وقال مسكين قد أفسد عليه حجتيه ووجه آخر في الغبن ان أقل طاعة سلمت عن هذا الرياء والعجب يكون لها من الله عز وجل من القيمة ما لا نهاية له وأكثر طاعة اذا أصابتها هذه الآفة بقيت لا قيمة لها الا ان يتداركها الله تعالى على ما روي عن علي رضي الله عنه انه قال لا يقل عمل مقبول البتة وكيف يقل عمل مقبول وسئل النخعي عن عمل كذا وكذا ما ثوابه قال اذا قبل لا يحصى ثوابه وعن وهب قال كان فيمن كان قبلكم رجل عبد الله سبعين عاما انما يفطر من سبت الى سبت فطلب الى الله حاجة فلم تقض له فأقبل على نفسه يلومها وقال من قبلك أوتيت لو كان عندك خير لقضيت حاجتك فأنزل الله تعالى ملكا فقال يا ابن آدم ساعتك التي ازدريت فيها نفسك خير من عبادتك التي مضت (قلت) فلينظر العاقل الى هذا الكلام أليس من الغبن ان واحدا يكدح ويتعب سبعين سنة وآخر يتفكر ساعة واحدة فتكون فكرة ساعة أفضل عند الله من عبادة سبعين سنة أليس هذا من الغبن العظيم أنك متمكن من ساعة خير من سبعين سنة وتترك ذلك من غير حاجة بلى والله انه لاعظم الغبن وان اغفاله لاشد خسرانا وان الخصلة التي لها هذه القيمة والخطر يجب ان تحذر وتجتنب ولمثل هذا المعنى انما وقع نظر أولي الابصار من العباد في مثل هذه الدقائق فاهتموا لمثل هذه الاسرار بمعرفتها أولا ثم رعايتها والتحفظ عنها ثانيا ولم تغرهم كثرة الاعمال بالظاهر وقالوا الشأن في الصفوة لا في الكثرة وقالوا جوهرة واحدة خير من ألف خرزة وأما الذين قل علمهم وكل في هذا الباب نظرهم فجهلوا المعاني واغفلوا ما في القلوب من العيوب واشتغلوا باتعاب النفوس في الركوع والسجود والامساك عن الطعام والشراب ونحوه فغرهم العدد والكثرة ولم ينظروا وما فيها من الخلل والصفوة وما يغني عدد الجوز ولا لب فيه وما ينفع زنة الستوق ولم تحكم مبانيها وما يعقل هذه الحقائق الا العالمون بالله المكاشفون والله تعالى ولي الهداية بفضله وأما عظم الخطر فمن وجوه (أحدها) ان المعبود ملك لا نهاية لجلاله وعظمته وله عليك نعم لا تعد ولا تحصى وانك بدن معيب بعيوب خفية موف بآفات كثيرة وأمر مخوف ان وقع لك زلل مع تسارع النفس اليه فيحتاج ان يستخرج من هذا الصفاء سالما من بدن معيب ونفس ميالة الى الشر أمارة بالسوء على وجه يصلح لرب العالمين في جلاله وعظمته وكثرة أياديه ومننه ويقع منه موقع الرضا والقبول والا فيفوتك الربح العظيم الذي لا تسمح النفس بفوته بل ربما يصيبك فيه مصيبة لا طاقة لك بها وهذا والله شأن عظيم وخطب جسيم وأما جلال الملك وعظمته بحيث ان الملائكة المقربين الابرار قائمون له بالخدمة آناء الليل والنهار حتى ان منهم من هو منذ خلقه الله تعالى في قيام ومنهم من هو في ركوع ومنهم من هو في سجود ومنهم من هو في تسبيح وتهليل فلا يتم القائم قيامه ولا الراكع ركوعه ولا الساجد سجوده ولا المسبح تسبيحه ولا المهلل تهليله

قام قام له ولا يتبعه بكلامه وسؤاله ولا يسأله في طريقه الى أن يبلغ الى منزله ولا يسيء الظن به في أفعال ظاهرها منكرة عنده فهو أعلم بأسراره وليذكر عند ذلك قول موسى للخضر عليهما السلام أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيأ امرا وكونه مخطئا في انكاره اعتمادا على ظاهره وان كان لك والدان فأدب الولد مع الوالدين أن يسمع كلامهما ويقوم لقيامهما ويمتثل أمرهما ولا يمشي أمامهما ولا يرفع صوته فوق أصواتهما ويلبي دعوتهما ويحرص على مرضاتهما ويخفض لهما الجناح ولا يمن عليهما بالبر لهما ولا بالقيام لامرهما ولا ينظر اليهما شزرا ولا يقطب وجهه في وجوههما ولا يسافر الا باذنهما * واعلم ان الناس بعد هؤلاء في حقك ثلاثة أصناف اما أصدقاء واما معارف واما مجاهيل فان بليت بالعوام المجهولين فادب مجالسة العامة ترك الخوض في حديثهم وقلة الاصغاء الى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم والاحتراز عن كثرة لقائهم والحاجة اليهم والتنبيه على منكراتهم باللطف والنصح عند رجاء القبول منهم وأما الاخوان والاصدقاء فعليك

ماداب صوته الى نفخ الصور ثم لما فرغوا من هذه الخدمة العظيمة نادوا باجمعهم سبحانك ما عبدناك حق عبادتك وهذا سيد المرسلين وخير العالمين أعلم الخلق وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين يقول لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك يقول أنا لا أقدر ان أثني عليك ثناء أنت له أهل فضلا عن أن اعبدك كما أنت له أهل وهو الذي يقول ليس أحد يدخل الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته وأما النعم والايادي فكما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وعلى ما روى أنه تحشر الناس على ثلاثة دواوين ديوان الحسنات وديوان السيآت وديوان النعم فتقابل الحسنات بالنعم فلا يوفى بحسنة الا أتى بنعمة حتى تغمر الحسنات النعم وتبقى السيآت والذنوب فلله تعالى فيها المشيئة وأما عيوب النفس وآفاتها فقد قدمناها في بابها والامر المخوف ان العبد يكدح في العبادة ويدأب سبعين سنة غافلا عن عيوبه وآفاته فربما لا يكون واحد منها مقبولا وربما يتعب أعواما فتفسده ساعة واحدة وأعظم خطرا من ذلك كله انه ربما ينظر الله تعالى الى العبد وهو يرائي الناس بعبادته وخدمته حيث جعل ظاهره لله وباطنه للخلق فيطرده طرد الامر دله والعياذ بالله ولقد سمعت بعض العلماء يحكي عن الحسن البصري رحمه الله انه رؤي في المنام بعد موته فسئل عن حاله فقال أقامني الله بين يديه وقال يا حسن أتذكر يوم كنت تصلي في المسجد اذ رمقك الناس بأبصارهم فزدت حسنا الصلاتك فلولا أن أول صلاتك كان لي خالصا لطردتك اليوم عن بابي ولقطعتك عني مرة واحدة ولما كان الامر في الجملة من الدقة والصعوبة الى حد عظيم نظر أولو الابصار فيه فخافوا على أنفسهم حتى ان منهم من لا يلتفت الى جميع ما يظهر للناس من أعماله حتى حكي عن رابعة انها قالت ما ظهر لي من أعمالي لا أعده شيأ وقال آخر اكتم حسناتك كما تكتم سيآتك وآخر يقول ان أمكنك أن تجعل لك خبأ من الخير فافعل ولقد حكي انه قيل لرابعة بم ترتجين أكثر ما ترتجين قالت بيأسي من جل عملي (وحكي) انه اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار فقال مالك اما طاعة الله أو النار فقال محمد بن واسع اما رحمة الله أو النار فقال مالك ما أحوجني الى معلم مثلك (وعن أبي يزيد البسطامي رحمه الله) قال كابدت العبادة ثلاثين سنة فرأيت قائلا يقول لي يا أبا يزيد خزائنه مملوءة من العبادة فان أردت الوصول اليه فعليك بالذلة والافتقار (وسمعت الاستاذ ابا الحسن) يحكي عن الاستاذ ابي الفضل رحمهما الله انه كان يقول اني أعلم ان ما أعمله من الطاعات غير مقبول عند الله تعالى فقيل له في ذلك فاجاب اني أعلم ما يحتاج اليه الفعل حتى يكون مقبولا واعلم اني لست أقوم بذلك فعلمت انها غير مقبولة قيل له فلم تفعلها قال عسى أن يصلحني الله تعالى يوما فتكون النفس متعودة لعمل الخير فلا احتاج الى أن أعودها ذلك من الرأس فهذه حال هؤلاء الاعلام وذوي المجاهدات والاخطار والاقدام فكنت أنت كما قال الشاعر

فاطلب لنفسك صحبة مع غيرهم * وقع الاياس وخابت الآمال
هيهات تدرك بالتواني سادة * كدوا النفوس وساعد الاقبال

ثم رأيت اني أثبت ههنا الخبر المأثور عن الصادق المصدوق صلوات الله عليه وعلى آله وسلامه وقد ذكرناه في غير كتاب واحد (روي) عن ابن المبارك رحمه الله عن رجل وهو خالد بن معدان انه قال لمعاذ حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظته وذكرته في كل يوم من شدته ودقته قال نعم ثم بكى بكاء طويلا ثم قال واشوقاه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى لقائه ثم قال بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ ركب وأردفني خلفه ثم سرنا فرفع بصره الى السماء ثم قال الحمد لله الذي يقضي في خلقه ما يشاء يا معاذ قلت لبيك يا سيد المرسلين قال أحدثك بحديث ان أنت حفظته نفعك وان ضيعته انقطعت حجتك عند الله عز وجل يا معاذ ان الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض لكل سماء ملكا بوابا خازنا وجعل على كل باب من أبواب السموات ملكا بوابا على قدر الباب وجلالته فتصعد الحفظة بعمل العبد وله نور وشعاع كالشمس حتى اذا بلغ السماء الدنيا والحفظة تستكثر عمله وتزكيه فاذا انتهى الى الباب قال الملك للحفظة

اضربوا

فيهم وظيفتان (احداهما) ان تطلب أولا شروط الصحبة والصداقة فلا تؤاخي الا من يصلح للاخوة والصداقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل فاذا طلبت رفيقا ليكون شريكك في التعلم وصاحبك في أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال * الاولى العقل فلا خير في صحبة الاحمق فالى الوحشة والقطيعة يرجع آخرها وأحسن أحواله ان يضرك وهو يريد ان ينفعك والعدو العاقل خير من الصديق الاحمق قال علي رضي الله عنه

ولا تصحب أخا الجهل
واياك واياه
فكم من جاهل أردى
حليما حين واخاه
يقاس المرء بالمرء
اذا ما هو ماشاه
وللشيء على الشيء
مقاييس واشباه
وللقلب على القلب
دليل حين يلقاه

* الثانية حسن الخلق فلا تصحب من ساء خلقه وهو الذي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة وقد جمعه علقمة العطاردي رحمه الله في وصيته لابنه لما حضرته الوفاة فقال يا بني اذا أردت صحبة انسان فاصحب من اذا خدمته صانك وان صحبته

اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من يغتاب الناس يتجاوزني الى غيري ثم تصعد الحفظة من العبد بعمل صالح له نور تستكثره الحفظة وتزكيه حتى اذا انتهوا به الى السماء الثانية قال الملك قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه فانه أراد به عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني الى غيري فتلعنه الملائكة حتى يمسي وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجا به فيه صدقة وصيام كثير من البر فتستكثره الحفظة وتزكيه فاذا انتهوا به الى السماء الثالثة قال الملك البواب قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك صاحب الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني الى غيري انه كان يتكبر على الناس في مجالسهم وتصعد الحفظة بعمل العبد وهو يزهو كما تزهو النجوم والكوكب الدري له دوي وتسبيح بصوم وصلاة وحج وعمرة فاذا انتهوا الى السماء الرابعة قال الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك صاحب الاعجاب أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني الى غيري انه كان اذا عمل عملا أدخل العجب فيه وتصعد الحفظة بعمل العبد يزف كما تزف العروس الى أهلها حتى اذا انتهوا الى السماء الخامسة بذلك العمل الحسن من جهاد وحج وعمرة له ضوء كضوء الشمس فيقول الملك انا ملك صاحب الحسد انه كان يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد سخط ما أرضى الله أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني الى غيري وتصعد الحفظة بعمل العبد بوضوء تام وصلاة كثيرة وصيام وحج وعمرة حتى يتجاوزوا به الى السماء السادسة فيقول الملك الموكل بالباب أنا صاحب الرحمة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه كان لم يرحم قط انسانا وان أصيب عبد شمت به أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني الى غيري وتصعد الحفظة بعمل العبد بنفقة كثيرة وصوم وصلاة وجهاد وورع له صوت كصوت الرعد وضوء كضوء البرق فاذا انتهوا به الى السماء السابعة يقول الملك الموكل بالسماء أنا صاحب الذكر يعني السمعة والصيت في الناس ان صاحب هذا العمل أراد به الذكر في المجالس والرفعة عند القرناء والجاه عند الكبراء أمرني ربي أن لا أدع عمله يتجاوزني الى غيري وكل عمل لم يكن لله تعالى خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عز وجل عمل المرائي وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر الله تعالى وتشيعه ملائكة السموات السبع حتى تقطع الحجب كلها الى الله سبحانه فيقفون بين يدي الرب جل جلاله ويشهدون له بالعمل الصالح الخالص لله تعالى فيقول الله تعالى أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على ما في نفسه انه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري ولا أخلصه لي وأنا أعلم بما أراد من عمله عليه لعنتي غر الآدميين وغركم ولم يغرني وأنا علام الغيوب المطلع على ما في القلوب لا تخفى علي خافية ولا تعزب عني عازبة علمي بما كان كعلمي بما يكون وعلمي بما مضى كعلمي بما بقي وعلمي بالاولين كعلمي بالآخرين اعلم السر وأخفى فكيف يغرني عبدي بعمله انما يغر المخلوقين الذين لا يعلمون وأنا علام الغيوب عليه لعنتي وتقول الملائكة السبعة والثلاثة الآلاف المشيعون يا ربنا عليه لعنتك ولعنتنا فتقول أهل السموات عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين ثم بكى معاذ رحمه الله وانتحب انتحابا شديدا وقال يا رسول الله كيف النجاة مما ذكرت قال يا معاذ اقتد بنبيك في اليقين قلت أنت رسول الله وأنا معاذ بن جبل كيف لي النجاة والخلاص قال نعم يا معاذ ان كان في عملك تقصير فاقطع لسانك عن الوقيعة في الناس وعن اخوانك من حملة القرآن خاصة واردد عن الوقيعة في الناس ما تعلمه من عيب نفسك ولا تزك نفسك بذم اخوانك ولا ترفع نفسك بوضع اخوانك ولا تراء بعملك كي تعرف في الناس ولا تدخل في الدنيا دخولا ينسيك امر الآخرة ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فتنقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة ولا تفحش في مجلسك حتى يحذروك من سوء خلقك ولا تمن على الناس ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب جهنم وهو قوله تعالى والناشطات نشطا يقول تنزع اللحم عن العظام قلت يا رسول الله ومن يطيق هذه الخصال قال يا معاذ ان الذي وصفت لك ليسير على من يسره الله تعالى عليه انما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره

ذلك واذا قعدت بك مؤنة مانك ※ واصحب من اذا مددت يدك للخير مدها وان رأى منك حسنة عدها وان رأى منك سيئة سدها اصحب من اذا قلت صدق قولك وان حاولت أمرا أعانك ونصرك وان تنازعتما في شئ آثرك ※ وقال علي رضي الله عنه رجزا

ان أخاك الحق من كان معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك
شتت فيك شمله ليجمعك

※ الثالثة الصلاح فلا تصحب فاسقا مصرا على معصية كبيرة لان من يخاف الله لا يصر على معصية كبيرة ومن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله بل يتغير بتغير الاعراض والاحوال قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه فاحذر صحبة الفاسق فان مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية وتهون عليك أمرها ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة لالفهم لها ولو رأوا خاتما من ذهب أو ملبوسا من حرير على فقيه لاشتد انكارهم عليه والغيبة أشد من ذلك ※ الرابعة لا تصحب حريصا فصحبة الحريص على الدنيا سم قاتل لان الطباع مجبولة

نفسك فاذن أنت قد سلمت ونجوت قال خالد بن معدان وكان معاذ لا يكثر من تلاوة القرآن كما يكثر من تلاوة هذا الحديث وذكره في مجلسه فلما سمعت أيها الرجل وكالكم ذلك الرجل بهذا الحديث العظيم نبؤه الكبير خطره الاليم أثره الذي تطير له القلوب وتحير له العقول وتضيق من حمله الصدور وتجزع لهوله النفوس فاعتصم بمولاك اله العالمين والزم الباب بالتضرع والابتهال والبكاء آناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين المبتهلين فانه لا نجاة من هذا الامر الا برحمته ولا سلامة من هذا البحر الا بنظره وتوفيقه وعنايته فتنبه من رقدة الغافلين وأعط الامر حقه وجاهد نفسك في هذه العقبة المخوفة لعلك لا تهلك مع الهالكين والمستعان بالله على كل حال فانه خير معين وهو تعالى أرحم الراحمين لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(فصل) وجملة الامر انك اذا أحسنت النظر فرأيت قدر طاعة الله تعالى ورأيت عجز الخلق وضعفهم وجهلهم فلا تلتفت اليهم بقلبك وكن زاهدا في ثنائهم ومدحهم وتعظيمهم الذي لا فائدة تحته فلا ترد بطاعتك شيأ من ذلك واذا رأيت خسة الدنيا وحقارتها وسرعة زوالها فلا تردها أيضا بطاعتك من الله وقل يا نفس ثناء رب العالمين وشكره خير من ثناء المخلوقين العاجزين الجاهلين الذين لا يعرفون قدر عملك بالحقيقة وما تحملت فيه وما يبلغون حقك فيما عملت وتحملت بل ربما يفضلون عليك من هو أدون منك حالا بالف درجة ويضيعونك في أحوج الاوقات وينسونك وان لم يفعلوا ذلك فماذا عسى أن يكون بأيديهم والى ماذا تبلغ قدرتهم ثم هم في قبضة الله تعالى يصرفهم كيف يشاء والى ما يشاء فاعقلي أيتها النفس فلا تضيعي طاعتك العزيزة بهم ولا يفوتك ثناء من ثناؤه كل فخر وعطاء من عطاؤه كل ذخر ولقد صدق القائل

سهر العيون لغير وجهك باطل * وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

وقل يا نفس أجنة الخلد خير أم لطخة من حطام الدنيا وحطامها النكد الفاني وأنت متمكنة من ان يحصل لك بطاعتك هذا النعيم المقيم فلا تكوني خسيسة الهمة رديئة الارادة دنيئة الافعال اما ترين الحمام اذ كان هماويا كيف تعلو قيمته ويزداد قدره فارفعي همتك كلها الى السماء وتجردي قلبك لله تعالى الواحد الذي بيده الامر كله ولا تضيعي ما ظفرت به من طاعتك بلا شئ وكذلك اذا أحسنت التأمل فرأيت أيادي الله تعالى ومننه العظام عليك في هذه الطاعة بأن أمكنك منها واعطاك الآلة أولا ثم ازاح عنك العوائق حتى تفرغت لهذه الطاعة ثانيا ثم خصك بالتوفيق والتأييد ويسرها عليك وزينها في قلبك حتى عملتها ثالثا ثم مع جلاله وعظمته واستغنائه عنك وعن طاعتك وكثرة نعمته عليك أعدلك على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل والثواب العظيم الذي لا تستحقينه رابعا ثم شكرك على ذلك وأثنى عليك على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل وأحبك بذلك خامسا فهذه كلها بفضله العظيم لا غير والا فأي استحقاق لك وأي قدر لعملك الحقير المعيب فاذكري أيتها النفس منة ربك الكريم الرحيم سبحانه فيما أحسن اليك في هذه الطاعة واستحيي من ان تلتفتي الى عمل بل الفضل والمنة لله تعالى علينا بكل حال ولا يكون لك شغل بعد حصول هذه الطاعة الا التضرع والابتهال الى الله سبحانه بأن يتقبلها أما تسمعين قول خليله ابراهيم عليه السلام لما فرغ من خدمته في بناء بيته كيف ابتهل الى الله في ان يتفضل عليه بالقبول فقال ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ولما فرغ من دعائه قال ربنا وتقبل دعاء فلئن من عليك بقبول هذه البضاعة المزجاة فلقد أكمل النعمة وأعظم المنة فيالها من سعادة ودولة وعز ورفعة وكم تربن اذ ذاك لك من خلعة ونعمة وذخر وكرامة وان تكن الاخرى فياله من خسران وغبن وحرمان فافهمي واشتغلي بهذا الشأن فاذا واظبت على مثل ذلك وكررته على قلبك عند الفراغ من طاعتك واستعنت بالله عز وجل صرفك عن الالتفات الى الخلق والنفس وشغلك عن مرآة واعجاب وبعثك على محض الاخلاص لله تعالى في الطاعات والتمسك بذكر منة الله تعالى عليك في جميع الحالات ويحصل لك أرجى طاعات طاهرة لا عيب فيها وخيرات خالصة لا شوب فيها وعبادات مقبولة لا نقص فيها

بل

على التشبه والاقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري فمجالسة الحريص تزيد في حرصك ومجالسة الزاهدين تزيد في زهدك* الخامسة الصدق فلا تصحب كذابا فانك منه على غرور فانه مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ولعلك لا تعدم اجتماع هذه الخصال في سكان المدارس والمساجد فعليك باحد أمرين اما العزلة والانفراد فان فيها سلامتك واما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم بان تعلم ان الاخوة ثلاثة أخ لآخرتك فلا تراع فيه الا الدين وأخ لدنياك فلا تراع فيه الا الخلق الحسن وأخ تستأنس به فلا تراع فيه الا السلامة من شره وفتنته وخبثه والناس ثلاثة أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه والآخر مثله مثل الدواء يحتاج اليه في وقت دون وقت والآخر مثله مثل الداء لا يحتاج اليه قط ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذي لا انس فيه ولا نفع فتجب مداراته الى الخلاص منه وفي مشاهدته فائدة عظيمة ان وفقت لها وهو ان تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه فالسعيد من وعظ

بل مثل هذه الطاعة وان حصلت فى العمر مرة واحدة لاشبر فانها بالحقيقة لكثيرة ولعمرى انها وان قل عددها لقد كثر معناها وعظم قدرها وكثر نفعها وطابت عقباها وان التوفيق لمثلها العزيز والفضل به لله تعالى على العبد لكثير فأى هدية أجل من هدية يقبلها رب العالمين وأى سعى أكرم من سعى يشكره محبوب المضطرين و يثنى عليه رب العالمين وأى بضاعة أعز من بضاعة اختارها ورضيها رب العالمين فتأمل أيها المسكين واياك أن تكون من المغبونين واذا جرى الامر على هذه الجملة كنت من الخاصين لله سبحانه الخائفين الذاكرين لمنته المرضيين وكنت قد خلفت هذه العقبة المخوفة وزاعلة وسلمت من آفاتها وسبقت بخيراتها وغراتها فائزا على الابد بكراماتها وسعادتها والله سبحانه ولى التوفيق والعصمة بمنه وكرمه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

*(العقبة السابعة وهى عقبة الحمد والشكر)

ثم عليك وفقك الله واياناً بحسن توفيقه بعد قطع هذه العقبات والظفر بالمقصود من هذه العبادة السالمة من الآفات بالحمد والشكر لله سبحانه على هذه النعمة العظيمة والمنة الكريمة وانما يلزمك ذلك لامرين أحدهما لدوام النعمة العظيمة والثانى لحصول الزيادة فاما دوام النعمة فلان الشكر قيد النعم به تدوم وتبقى وبتركه تزول وتحول قال الله سبحانه ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وقال عز من قائل فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون وقال سبحانه ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقال النبى صلى الله عليه وسلم ان للنعم أوابد كأوابد الوحش فقيدوها بالشكر واما حصول الزيادة فلما كان الشكر هو قيد النعمة فهو يثمر الزيادة وقال الله سبحانه لئن شكرتم لازيدنكم والذين اهتدوا زادهم هدى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فالسيد الحكيم اذا رأى العبد قد قام بحق نعمة من عليه بأخرى وراه اهلا لها والا فيقطع ذلك عنه ثم النعم قسمان دنيوية ودينية فالدنيوية ضربان نعمة نفع ونعمة دفع فنعمة النفع أن اعطاك المصالح والمنافع فالمنافع ضربان الخلقة السوية فى سلامتها وعافيتها والملاذ الشهية من المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها من فوائدها ونعمة الدفع أن صرف عنك المفاسد والمضار وهى ضربان أحدهما فى النفس بأن سلمك من زماناتها وسائر آفاتها وعللها والثانى دفع ما يلحقك به ضرر من أنواع العوائق أو يقصدك بشر من انس او جن او سباع او هوام أو نحوها (وأما) النعم الدينية فضربان نعمة التوفيق ونعمة العصمة فنعمة التوفيق أن وفقك الله أولا للاسلام ثم للسنة ثم للطاعة ونعمة العصمة أن عصمك أولا عن الكفر والشرك ثم عن البدعة والضلالة ثم عن سائر المعاصى وتفصيل ذلك لا يحصيه الا السيد العالم الذى أنعم عليك كما قال جل وعلا وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وان دوام هذه النعم كلها بعد ما من عليك بها والزيادة عليها من كل باب منها مما لا يحصيه ولا يبلغه وهمك وكلها تتعلق بشئ واحد وهو الشكر والحمد لله وان خصلة تكون لها هذه القيمة وتكون فيها كل هذه الفائدة لحقيق بأن يتمسك بها من غير اغفال بحال فانه جوهر ثمين وكيمياء عزيزة والله ولى التوفيق بفضله ورحمته (فان قيل) فما حقيقة الحمد والشكر وما معناهما وحكمهما فاعلم أن العلماء فرقوا بين الحمد والشكر عند التحصيل بأن الحمد من أشكال التسبيح والتهليل فيكون من المساعى الظاهرة والشكر من اشكال الصبر والتفويض فيكون من المساعى الباطنة لان الشكر يقابل الكفران والحمد يقابل اللوم ولان الحمد أعم وأكثر والشكر أقل وأخص قال الله تعالى وقليل من عبادى الشكور فثبت انهما معنيان متغايران ثم الحمد هو الثناء على أحد بالفعل الحسن هذا مقتضى كلام شيخنا رحمه الله وأما الشكر فتكلموا فى معناه وأكثروا فعن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق فى السر والعلانية والى نحوه ذهب بعض مشايخنا فقال الشكر هو أداء الطاعات فى الظاهر والباطن ثم رجع الى أنه اجتناب المعاصى ظاهرا وباطنا وقال

بغيره والمؤمن مرآة المؤمن وقيل لعيسى عليه السلام من أدبك قال ما أدبنى أحد ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته ولقد قال صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم فلو اجتنب الناس ما يكرهونه من غيرهم لكملت آدابهم واستغنوا عن المؤدبين (الوظيفة الثانية حقوق الصحبة) فمهما انعقدت الشركة وانتظمت بينك وشريكك الصحبة فعليك حقوق يوجبها عقد الصحبة وفى القيام بها آداب وقد قال صلى الله عليه وسلم مثل الاخوين مثل اليدين تغسل احداهما الاخرى ودخل صلى الله عليه وسلم أجمة فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم وكان معه بعض أصحابه فاعطاه المستقيم وأمسك لنفسه المعوج فقال يارسول الله انك أحق منى بالمستقيم فقال صلى الله عليه وسلم ما من صاحب يصحب صاحبا ولو ساعة من نهار الاسئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله تعالى أو اضاعه وقال صلى الله عليه وسلم مااصطحب اثنان قط الا وكان أحبهما الى الله تعالى أرفقهما بصاحبه *(وآداب الصحبة) الايثار بالمال فان لم يكن هذا فبذل الفضل من المال عند الحاجة

غيره الشكر الاحتراس من اختيار معاصي الله تحترس على قلبك ولسانك وأركانك حتى لا تعصي الله عز وجل بشيء من هذه الثلاثة بوجه من الوجوه والفرق بين قوله وبين قول الشيخ الاول انه رحمه الله تعالى جعل الاحتراس معنى مثبتا زائدا على الاجتناب عن المعاصي وأما الاجتناب عن المعصية ما هو الا ان لا يفعل المعصية عند دواعيها ولا يكون في نفسه معنى محصلا يكون العبد به مشتغلا وعن الكفران معتصما وقال شيخنا رحمه الله تعالى ان الشكر تعظيم المنعم على مقابلة نعمته على حد يمنعه عن جفاء المنعم وكفرانه ولو قلت تعظيم المحسن على مقابلة احسانه ليصح ان يكون من الله الشكر للعبد لحسن وفيه تفاصيل قد شرحناها في كتاب احياء علوم الدين وغيره ولكن التحصيل ان الشكر من العبد تعظيم يمنع من جفاء من أحسن اليه وذلك بتذكر احسانه وحسن حال الشاكر في شكره وقبح حال الكافر في كفرانه (قلت) ان أقل ما يستوجبه المنعم بنعمته ان لا يتوصل بها الى معصية وما أقبح حال من جعل نعمة المنعم سلاحا على عصيانه فعلى العبد اذن من فرض الشكر في حقيقته أن يكون له من تعظيم الله سبحانه ما يحول بينه وبين معاصيه على حسب تذكر نعمه فاذا أتى بذلك فقد أتى بما هو الاصل فيه ثم يقابل ذلك بجد في الطاعة وجهد في القيام بالخدمة اذ هو من حقوق النعمة فلا بد من الاحتراس عن المعصية وبالله التوفيق (فان قلت) فما موضع الشكر فاعلم أن موضعه النعم الدينية والدنيوية على اقدارهما وأما الشدائد والمصائب في الدنيا في نفس أو أهل أو مال فتكلموا في ذلك هل يلزم العبد الشكر عليها قال بعضهم لا يلزم العبد الشكر عليها من حيث هي وانما يجب فيها الصبر وأما الشكر فهو على النعمة لا غير قالوا ولا شدة الا وفي جنبها نعم لله تعالى فلزم الشكر على تلك النعم المقترنة بها دون نفس الشدة وتلك النعم ما قاله ابن عمر رضي الله عنهما ما ابتليت ببلية الا كان لله تعالى علي فيها أربع نعم اذ لم تكن في ديني واذ لم تكن أعظم منها واذ لم أحرم الرضا بها واذ رجوت الثواب عليها وقد قيل أيضا من تلك النعم ان تلك الشدة زائلة غير دائمة وانها من الله تعالى دون غيره وان كانت بسبب مخلوق فانه الك عليه لا له عليك فاذن يلزم العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدة وقال آخرون وهو الاولى عند شيخنا رحمه الله تعالى ان شدائد الدنيا مما يلزم العبد الشكر عليها لان تلك الشدائد نعم بالحقيقة بدليل انها تعرض العبد لمنافع عظيمة ومثوبات جزيلة واعواض كريمة في العاقبة يتلاشى في جنبها مشقة هذه الشدائد وأية نعمة تكون أكبر من هذه ومثال ذلك من يسقيك دواء كريها مر المذاق شديدا أو يفصدك أو يحجمك لعلة عظيمة مخوفة الخطر فيؤدي ذلك الى صحة النفس وسلامة البدن وصفوة العيش فيكون ايلامه اياك بمرارة الدواء أو جراحة الفصد والحجامة نعمة بالغة بالحقيقة ومنة ظاهرة وان كان في صورته مكروها ينفر عنه الطبع وتستوحش منه النفس وأنت تحمد الذي تولى منك هذا بل تحسن اليه بما أمكنك فكذلك حكم هذه الشدائد أما ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم كيف حمد الله وشكره على الشدائد كشكره على المسار حيث قال الحمد لله على ما ساء وسر أما ترى كيف يقول جل جلاله فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وما سماه الله خيرا فهو أكثر مما يبلغه وهمك ومما يؤكد هذا القول ان النعمة ليست عبارة عن اللذة وما تشتهيه النفس بمقتضى الطبع وانما هو ما يزيد في رفعة الدرجات ولذلك تسمى نعمة بمعنى الزيادة واذا كانت الشدة مما تصير سببا في زيادة شرف العبد ورفعة درجته فتكون نعما بالحقيقة وان كانت تعد في الشدائد والمحن بظاهرها فاعلم ذلك موفقا (فان قلت) فالشاكر أفضل أم الصابر فاعلم انه قيل ان الشاكر أفضل بدليل قوله تعالى وقليل من عبادي الشكور فجعلهم أخص الخواص وقال في مدح نوح عليه السلام انه كان عبدا شكورا وقال في ابراهيم عليه السلام شاكرا لانعمه ولانه في منزلة الانعام والعافية ولذلك قيل لان أنعم فاشكر أحب الي من أن ابتلى فاصبر وقيل بل الصابر أفضل لانه أعظم مشقة فيكون أعظم ثوابا وأرفع منزلة قال الله تعالى انا وجدناه صابرا نعم العبد وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وقال تعالى والله يحب الصابرين (قلت انا) الشاكر بالحقيقة لا يكون الا صابرا والصابر بالحقيقة

والاعانة بالنفس في الحاجات على سبيل المبادرة من غير احواج الى التماس وكتمان السر وستر العيوب والسكوت عن تبليغ ما يسوءه من مذمة الناس اياه وابلاغ ما يسره من ثناء الناس عليه وحسن الاصغاء عند الحديث وترك المماراة فيه وان يدعوه باحب أسمائه اليه وان يثني عليه بما يعرف من محاسنه وان يشكره على صنيعه في وجهه وان يذب عنه في غيبته اذا تعرض لعرضه كما يذب عن نفسه وان ينصحه باللطف والتعريض اذا احتاج اليه وأن يعفو عن زلته وهفوته فلا يعتب عليه وان يدعو له في خلوته في حياته وبعد مماته وان يحسن الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته وان يؤثر التخفيف عنه فلا يكلفه شيأ من حاجته ويروح قلبه من مهماته وان يظهر الفرح بجميع ما يباح له من مساره والحزن بما يناله من مكارهه وان يضمر مثل ما يظهره فيكون صادقا في وده سرا وعلانية وان يبدأه بالسلام عند اقباله وان يوسع له في المجلس ويخرج له من مكانه وان يشيعه عند قيامه وان يصمت عند كلامه حتى يفرغ من خطابه وترك المداخلة في كلامه وعلى الجملة فيعامله بما يحب ان يعامل به فمن لا يحب

لا يكون الا شاكرا لان الشاكر فى دار المحنة لا يخلو من محنة يصبر عليها لا محالة ولا يجزع فان الشكر تعظيم المنعم على حد يمنع من عصيانه والجزع عصيان والصابر لا يخلو من نعمة كما ذكرنا ان الشدائد نعم بالحقيقة على المعنى المتقدم فانه شكر بالحقيقة اذا صبر عليها لانه حبس نفسه عن الجزع تعظيما لله تعالى وهذا هو الشكر بعينه اذ هو تعظيم يمنع من العصيان ولان الشاكر يمنع نفسه عن الكفران فصبر عن المعصية وحمل نفسه على الشكر وصبر على الطاعة فصار صابرا بالحقيقة والصابر عظم الله تعالى حتى منعه تعظيمه عن الجزع فيما أصابه وحمله على الصبر فقد شكر الله تعالى فصار شاكرا بالحقيقة ولان حبس النفس عن الكفران مع قصد النفس له شدة يصبر عليها الشاكر و توفيق الصابر والعصمة نعمة يشكر عليها الصابر فأحدهما لا ينفك عن الآخر ولان البصيرة الباعثة عليهما واحدة وهى بصيرة الاستقامة فى قول بعض علمائنا فمن هذه الوجوه قلنا ان أحدهما لا ينفك عن الآخر فاعرف هذه الجملة وبالله التوفيق

(فصل) فعليك أيها الرجل ببذل المجهود فى قطع هذه العقبة اليسيرة المؤنة الكثيرة الجدوى العزيزة العنصر العظيمة القدر وتأمل أصلين أحدهما ان النعمة انما تعطى من يعرف قدرها وانما يعرف قدرها الشاكر ودليل ما قلناه قوله سبحانه فى الحكاية عن الكفار والرد عليهم أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ظن أولئك الجهال ان النعمة العظيمة والمنة الكريمة انما تعطى من يكون أكثرهم مالا وأشرفهم حسبا ونسبا فقالوا ما بال هؤلاء الفقراء بزعمهم من العبيد والاحرار أعطوا هذه النعمة العظيمة بزعمكم دوننا فقالوا على طريق الاستنكار ومجرى الاستهزاء أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا فأجابهم الله تعالى بهذه النكتة الزاهرة فقال أليس الله بأعلم بالشاكرين تقدير الكلام ان السيد الكريم انما يعطى نعمته من يعرف قدرها وانما يعرف قدرها من أقبل عليها بنفسه وقلبه فاختارها على غيرها ولا يعبأ بما تحصل من أعباء المؤنة فى تحصيلها ثم لا يزال قائما بالباب يؤدى شكرها وكان فى علمنا السابق ان هؤلاء الضعفاء يعرفون قدر هذه النعمة و يقومون بشكرها فكانوا أولى بهذه النعمة منكم فلا اعتبار بغناكم وثروتكم ولا جاهكم فى الدنيا وحشمتكم ولا نسبكم فى الانساب ولا حسبكم انما تحسبون النعمة كلها الدنيا وحطامها والحسب والنسب وعلوه لا الدين والعلم والحق ومعرفته وانما تعظمون ذلك وتتفاخرون به أما ترون انكم لا تكادون تقبلون هذا الدين والعلم والحق الا بجنة على من أتاكم به وذلك لاستحقاركم ذلك وقلة مبالاتكم به وان هؤلاء الضعفاء يقتلون أنفسهم على ذلك و يبذلون فيه مهجتهم ولا يبالون بما فاتهم و بمن عاداهم مع ذلك لتعلموا أنهم هم الذين عرفوا قدر هذه النعمة ورسخ فى قلوبهم تعظيمها وهان عليهم فوت كل شئ دونها وطاب لهم احتمال كل شدة فيها فيستغرقون جميع العمر فى شكرها فلذلك استأهلوا هذه المنة الكريمة والنعمة العظيمة فى سابق علمنا وخصصناهم بها دونكم فهذه هذه ثم أقول وكذلك كل فريق من الناس خصهم الله تعالى بنعمة من نعم الدين من علم أو عمل فانك تجدهم بالحقيقة أعرف الناس بقدرها وأشدهم تعظيما لها وأجدهم فى تحصيلها وأعظمهم فى اكرامها وأقومهم بشكرها والذين حرمهم الله ذلك فلقلة احتفالهم وتعظيمهم لها بعد القدر السابق فلو كان تعظيم العلم والعبادة فى قلوب العامة والسوقة مثل ما فى قلوب العلماء والمتعبدين لما آثروا سوقهم عليه وهان عليهم تركه الا ترى ان فقيها اذا ظفر بتعليم مسئلة كانت ملتبسة عليه ثم ظفر بها كيف يرتاح قلبه و يعظم سروره ويجل موقعها من قلبه حتى انه ربما لو وجد ألف دينار ما كان يعدل ذلك و ربما يهمه أمر مسئلة فى باب الدين فيتفكر فيها سنة بل عشرا بل عشرين وأكثر لا يستكثر ذلك ولا يمل حتى ربما رزقه الله تعالى فهم ذلك فيعده أعظم منة وأكبر نعمة و يرى نفسه بذلك أغنى كل غنى وأشرف كل شريف بل ربما يتبين مثل هذه المسئلة لسوقى أو لمتعلم كسلان يرى من نفسه انه مشغل فى الرغبة فى العلم والجبلة فلا يستمع اليه حقه و ربما ان طال عليه الكلام مل أو ينام وان تبين ذلك له فلا يعده كبير أمر وكذلك

لا تحسبه مثل ما تحسب لنفسه فأخوته نفاق وهى عليه فى الدنيا والآخرة وبال فهذا أدبك فى حق العوام المجهولين وفى حق الاصدقاء المؤاخين

*وأما القسم الثالث وهم المعارف فاحذر منهم فانك لا ترى الشر الا ممن تعرفه أما الصديق فيعينك وأما المجهول فلا يتعرض لك وانما الشر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم فأقلل من المعارف ما قدرت فاذا ابتليت بهم فى مدرسة أو جامع أو مسجد أو بلد أو سوق فيجب ان لا تستحقر منهم احدا فانك لا تدرى لعله خير منك ولا تنظر اليهم بعين التعظيم لهم فى حال دنياهم فتهلك لان الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها ومهما عظم أهل الدنيا فى قلبك فقد سقطت من عين الله تعالى واياك ان تبذل لهم دينك لتنال به من دنياهم فلم يفعل ذلك احد الا صغر فى أعينهم ثم حرم ما عندهم وان عادوك فلا تقابلهم بالعداوة فانك

المنيب الى الله تعالى كم يجتهد و يدأب بالرياضة وصيانة النفس عن الشهوات واللذات والجام الاركان فى
الحركات والسكنات عسى ان يتم الله له ركعتين فى آداب وطهارة وكم يتضرع الى الله تعالى عسى ان يرزقه
ساعة مناجاة بصفوة وحلاوة فان ظفر بذلك فى شهر مرة بل فى سنة مرة بل فى عمره كله مرة عد ذلك أكبر منة
وأعظم نعمة وكم يسر وكم يشكر الله تعالى ولا يكترث بما قاساه من المشقات وكابده من الليالى وهجر من اللذات
فهل ترى الذى يزعم انه راغب فى العبادات يحب ان يحصل منها شيأ لو احتاج أحدهم تحصيل مثل هذه العبادة
الصافية الى نقصان لقمة من عشائهم أو ترك كلمة لا تعنيهم أو دفع نوم ساعة عن أعينهم فلا تسمح أنفسهم بذلك
ولا تطيب قلوبهم وان اتفق لهم فى النادر حصول عبادة فى صفوة فلا يعدونه خطيرا أمر ولا يقدمون فيه كثير
شكر وانما يعظم سرورهم ويكثر بالظاهر حمدهم اذا حصل لهم درهم أو استقامت لهم كسرة أو طابت لهم
مرقة أو طالت لهم فى سلامة البدن رقدة فيقولون عند ذلك الحمد لله هذا من فضل الله فانى يساوى هؤلاء
الغافلون العاجزون مع أولئك السعداء المجدين المجتهدين ولذلك صار هؤلاء المساكين عن هذا الخير محرومين
وأولئك المؤيدون به ظافرين فائزين وكذلك قسم الامر أحكم الحاكمين سبحانه وهو أعلم العالمين فهذا تفصيل
قوله تعالى أليس الله بأعلم بالشاكرين فتفهم وراعه حقه واعلم انك لم تحرم قط خيرا أنت تتمناه الا من قبل
نفسك فابذل مجهودك لتعرف قدر نعمة الله تعالى وتعظمها حق تعظيمها فتكون اهلا لها ولا عطائها ثم من
عليك بابقائها كما من عليك بابتدائها على ما نذكره فى الاصل الثانى انه الرؤف الرحيم (الاصل الثانى) ان النعمة
انما تسلب ممن لا يعرف قدرها والذى لا يعرف قدرها الكفور والذى كفرها ولا يؤدى شكرها ودليل ذلك قوله
تعالى واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها
الآية تقدير الكلام انا انعمنا على هذا العبد بالنعم العظام والايادى الجسام فى باب الدين بما مكناه فى ذلك من
تحصيل الرتبة الكبيرة والمنزلة الرفيعة على بابنا الصغير رفيعا عندنا عظيم القدر كبير الجاه ولكنه جهل قدر
نعمتنا فمال الى الدنيا الخسيسة الحقيرة وآثر شهوة نفسه الدنيئة الرديئة ولم يعلم ان الدنيا كلها لا تزن عند الله أدنى
نعمة من نعم الدين ولا تساوى عنده جناح بعوضة فكان فى ذلك بمنزلة الكلب الذى لا يعرف الاكرام والراحة
من الاهانة والمشقة ولا الرفعة والشرف من الحقارة والخسة فهو فى الحالتين يلهث وانما الكرامة كلها عنده فى
كسرة يطعمها أو عراق مائدة يرمى اليه سواء تقعده على سرير معك أو تقيمه فى التراب والقذر بين يديك فهمته
وكرامته ونعمته كلها فى ذلك فهذا العبد السوء اذا جهل قدر نعمتنا ولم يعرف حق ما آتيناه من كرامتنا
فكلت بصيرته وساء فى مقام القربة أدبه بالالتفات الى غيرنا والاشتغال عن ذكر نعمتنا بدنيا حقيرة ولذة
خسيسة فنظرنا اليه نظر السياسة واحضرناه ميدان العدل وأمرنا فيه بحكم الجبروت فسلبناه جميع خلعنا
وكراماتنا ونزعنا من قلبه معرفتنا فانسلخ عاريا من جميع ما آتيناه من فضلنا فصار كلبا طريدا وشيطانا رجيما مريدا
نعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه انه بار رؤف رحيم ثم اقنع بمثال ملك يكرم عبد اله فيخلع عليه خاصة
ثيابه ويقربه منه ويجعله فوق سائر خدامه وحجابه وأمره بملازمة بابه ثم أمر ان يبنى له فى موضع آخر القصور
وترفع له الاسرة وتنصب له الموائد وتزين له الجوارى وتقام له الغلمان حتى اذا رجع من الخدمة اجلس هنالك
ملكا مخدوما مكرما وما بين حال خدمته الى ملكه وولايته الا ساعة من نهار أو أقل فان أبصر هذا العبد بجانب
باب هذا الملك سائس الدواب يأكل رغيفا أو كلبا يمضغ عظما فيشتغل عن خدمة الملك بنظره اليه واقباله عليه ولا
يلتفت الى ماله من الخلع والكرامة فيسعى الى ذلك السائس ويمد يده ويسأله كسرة من رغيف أو يزاحم
الكلب على عظمة ويغبطهما ويعظم ما هما فيه أليس الملك اذا نظر اليه فى مثل هذه الحالة يقول هذا سفيه
خسيس الهمة لم يعرف حق كرامتنا ولم يقدر اعزازنا اياه بخلعنا والتقريب الى حضرتنا مع ما صرفنا
اليه من عنايتنا وأمرنا له من النثار وضروب الايادى ما هذا الا ساقط الهمة عظيم الجهل قليل التمييز اسلبوه

الخلع

لا تطيق الصبر على مكافأتها فيذهب دينك فى مداواتهم فيطول عناؤك معهم ولا تسكن اليهم فى حال اكرامهم اياك وثنائهم عليك فى وجهك واظهارهم المودة لك فانك ان طلبت حقيقة ذلك لم تجد فى المائة واحدا ولا تطمع ان يكون لك فى العلن والسر واحد ولا تتعجب ان ثلبوك فى غيبتك ولا تغضب منه فانك ان انصفت وجدت فى نفسك مثل ذلك حتى اصدقائك وأقاربك بل فى استاذك ووالديك فانك تذكرهم فى الغيبة بما لا تشافههم به فاقطع طمعك عن مالهم وجاههم ومعونتهم فان الطامع فى الاكثر خائب فى المآل وهو ذليل لا محالة فى الحال فاذا سألت واحدا حاجة فقضاها فاشكر الله تعالى واشكره وان قصر فلا تعاتبه ولا تشكه فتصير عداوة وكن كالمؤمن يطلب المعاذير ولا تكن كالمنافق يطلب العيوب وقل لعله قصر لعذر له لم أطلع عليه ولا تظن فى أحد منهم ما لم تتوسم فيه

الخلع واطردوه عن بابنا فهذا حال العالم اذا مال الى الدنيا والعابد اذا اتبع الهوى بعدما أكرمه الله بعبادته ومعرفة أياديه وشريعته وأحكامه ثم انه لم يعرف قدر ذلك فيصير الى أحقر شئ عند الله عز وجل وأهونه عنده فيرغب فيه ويحرص عليه ويكون أعظم في قلبه وأحب اليه من جميع ما أعطى من تلك النعم العزيزة من العلم والعبادة والحكم والحقائق وكذلك من خصه الله تعالى بأنواع توفيقه وعصمته وزينه بأنوار خدمته وعبادته ويديم النظر اليه بالرحمة في أكثر أوقاته ويباهي به ملائكته وأعطاه على بابه القيادة والوجاهة وأحله محل الشفاعة وأنزله منزلة الاعزة حتى اذا صار بحيث لو دعاه لاجابه ولباه ولو سأله أعطاه وأغناه ولو شفع في عالم لشفعه فيهم وأرضاه ولو أقسم عليه لابره وأوفاه ولو خطر بباله شئ لاعطاه قبل أن يسأله بلسانه فمن كانت هذه حاله ثم لم يعرف قدر هذه النعم ولم ينظر الى قدر هذه المنزلة فيعدل عن ذلك الى شهوة نفس رديئة لاحياء لها او لعقة من الدنيا الدنيئة التي لا بقاء لها ولم ينظر الى تلك الكرامات والخلع والهدايا والمنن والعطايا ثم ما وعده وما أعده له في الآخرة من الثواب العظيم والنعيم السابغ المقيم فما أحقرها اذن من نفس وما أسوأه من عبد وما أعظم خطره لو علم وما أفحش صنعه لو فهم نسأل الله البر الرحيم أن يصلحنا بعظيم فضله وسعة رحمته انه أرحم الراحمين فعليك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف قدر نعم الله تعالى عليك واذا أنعم عليك بنعمة الدين فاياك ان تلتفت الى الدنيا وحطامها فان ذلك منك لا يكون الا ضربا من التهاون بما أولاك ربك من نعم الدين أما تسمع قوله تعالى لسيد المرسلين ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم الآية تقديره ان كل من أوتي القرآن العظيم حق له ان لا ينظر الى الدنيا الحقيرة نظرا باستحلاء واستحسان قط فضلا عن ان يكون له فيها رغبة فليدم الشكر لله على ذلك فانها الكرامة التي حرص خليله ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يمن بها على أبيه فلم يفعل وحرص حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يمن بها على عمه ابي طالب فلم يفعل وأما حطام الدنيا فانه الذي يصبه على كل كافر وفرعون وملحد وزنديق وجاهل وفاسق الذين هم أهون خلقه عليه حتى يغرقوا فيه ويصرفه عن كل نبي وصفي وصديق وعالم وعابد الذين هم أعز خلقه عليه حتى انهم لا يكادون يصيبون كسرة وخرقة ومن عليهم بأن لا يلطخهم بقذرها حتى قال عز من قائل لموسى وهرون عليهما السلام ولو أشاء ان أزينكما بزينة ليعلم فرعون حين يراها ان مقدرته تعجز عنها لفعلت ولكني أزوي عنكما الدنيا وأرغب بكما عنها وكذلك أفعل بأوليائي واني لاذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق ابله عن مبارك العرة واني لاجنبهم سكونها وعيشها وليس ذلك لهوانهم علي ولكن ليستكملوا حظهم من كرامتي وقال تعالى ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة الآيتين فانظر الفرق بين الامرين ان كنت مبصرا وقل الحمد لله الذي من علينا بين أوليائه وأصفيائه وصرف عنا فتنة أعدائه لنحظى ولنخص بالشكر الاوفر والحمد الاكبر والمنة الكبرى والنعمة العظمى التي هي الاسلام فانها الاولى والاحرى بأن لا تفتر لذلك وتهاونك عن شكرها فان كنت عاجزا عن عرفان قدرها فاعلم بالحقيقة انك لو خلقت من أول الدنيا وأخذت في شكر نعمة الاسلام من أول الوقت الى الابد ما كنت تقوم بذلك ولما قضيت بعض الحق لما هنالك من الفضل العظيم (قلت) واعلم ان الموضع لا يحتمل ذكر ما يليق على من قدر هذه النعمة ولو أمليت فيه ألف ألف ورقة لكان ما يبلغ على فوق ذلك مع اعترافي بأن ما أعلمه في جنب ما لا أعلمه كنقطة في بحار الدنيا بأسرها أما تسمع ويحك قوله تعالى لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان الى ان قال له وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وقال تعالى لقوم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان الآية أما تسمع قوله صلى الله عليه وسلم وقد سمع رجلا يقول الحمد لله على الاسلام فقال انك لتحمد الله على نعمة عظيمة ولما قدم البشير على يعقوب عليه السلام قال على أي دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة وقيل ما من كلمة أحب الى الله تعالى ولا أبلغ عنده في الشكر من ان يقول

أولا تخايل القبول والالم يسمع منك وصار خصما عليك فاذا أخطؤا في مسئلة وكانوا يأنفون من التعليم من كل أحد فلا تعلمهم فانهم يستفيدون منك علما ويصبحون لك اعداء الا اذا تعلق ذلك بمعصية يقارفونها عن جهل منهم فاذكر الحق بلطف من غير عنف واذا رأيت منهم كرامة وخيرا فاشكر الله الذي حببك اليهم واذا رأيت منهم شرا فكلهم الى الله تعالى واستعذ بالله من شرهم ولا تعاتبهم ولا تقل لهم لم تعرفوا حقي وأنا فلان بن فلان وانا الفاضل في العلوم فان ذلك من كلام الحمقى وأشد الناس حماقة من يزكي نفسه ويثني عليها واعلم ان الله تعالى لا يسلطهم عليك الا لذنب سبق منك فاستغفر الله من ذنبك واعلم ان ذلك عقوبة من الله تعالى لك وكن فيما بينهم سميعا لحقهم اصم عن باطلهم نطوقا بمحاسنهم صموتا عن مساويهم واحذر مخالطة متفقهة الزمان لا سيما المشتغلين بالخلاف

العبد الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا الى دين الاسلام واياك ان تغفل الشكر للاسلام وتغتر بما أنت عليه في الحال من الاسلام والمعرفة والتوفيق والعصمة فان مع ذلك لا موضع للامن والغفلة فان الامور بالعواقب وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول ما أمن أحد على دينه الا سلب وكان شيخنا رحمه الله تعالى يقول اذا سمعت بحال الكفار وخلودهم في النار فلا تأمن على نفسك فان الامر على الخطار ولا تدري ماذا يكون من العاقبة وماذا سبق لك في حكم الغيب فلا تغتر بصفاء الاوقات فان تحتها غوامض الآفات وقال بعضهم يا معشر المغترين بالعصم ان تحتها أنواع النقم زين الله ابليس بأنواع عصمته وهو عنده في حقائق لعنته وزين بلعام بأنوار ولايته وهو عنده في حقائق عداوته وعن علي رضي الله عنه انه قال كم من مستدرج بالاحسان اليه وكم من مفتون بحسن القول فيه وكم من مغرور بالستر عليه وقيل لذي النون ما أقصى ما يخدع به العبد قال بالالطاف والكرامات ولذلك قال سبحانه سنستدرجهم من حيث لا يعلمون قال أهل المعرفة نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر كما قال الشاعر

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم انك كلما صرت أقرب فأمرك أخوف واصعب والمعاملة أشد وادق والخطر عليك أعظم فان الشيء كلما كان ابلغ علوا اذا انقلب كان أصعب وقوعا كما قيل

ما طار طير فارتفع * الا كما طار وقع

فاذن لا سبيل الى الامن واغفال الشكر وترك الابتهال في الحفظ بحال وكان ابراهيم بن أدهم يقول كيف تأمن وابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه يقول واجنبني وبني ان نعبد الاصنام ويوسف الصديق عليه السلام يقول توفني مسلما وكان سفيان الثوري لا يزال يقول اللهم سلم سلم كأنه في سفينة يخشى الغرق وبلغنا عن محمد بن يوسف رحمه الله انه قال تأملت سفيان الثوري ليلة فبكى الليل أجمع فقلت له أبكاؤك هذا على الذنوب قال فحمل تبنة وقال الذنب أهون على الله من هذا وانما أخشى ان يسلبني الله الاسلام والعياذ بالله وسمعت انا بعض العارفين يقول ان بعض الانبياء عليهم السلام سأل الله تعالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات فقال الله تعالى لم يشكرني يوما من الايام على ما أعطيته ولو شكرني على ذلك مرة واحدة لما سلبته فتيقظ أيها الرجل واحتفظ بركن الشكر جدا واحمد الله على نعمه في الدين وأعلاها الاسلام والمعرفة وأدناها مثلا توفيق تسبيح أو عصمة عن كلمة لا تعنيك عسى ان يتم نعمه عليك ولا يبتليك بمرارة الزوال فان أمر الامور وأصعبها الاهانة بعد الاكرام والطرد بعد التقريب والفراق بعد الوصال والله تعالى الماجد الكريم الرؤف الرحيم

(فصل) وجملة الامر انك اذا أحسنت النظر في منن الله تعالى العظام عليك وأياديه الجسام الكرام لديك التي لا يحصيها قابلك ولا يحيط بها وهمك حتى خلفت هذه العقبات الصعاب فوجدت العلوم والبصائر وتطهرت من الاوزار والكبائر وسبقت العوائق ودفعت العوارض وظفرت بالبواعث وسلمت من القوادح فكم حصل لك فيها من خصلة شريفة ورتبة عالية منيفة أولها التبصير والتعريف وآخرها التقريب والتشريف فتأملت فيها بمقدار عقلك وتوفيقك وشكرت الله تعالى على قدر طوقك بان يشغل لسانك بحمده وثنائه ويملأ قلبك بعظمته وبهائه ويبلغك مبلغا يحول بينك وبين عصيانه ويبعثك على الخدمة له بما أمكنك أو بسعة طاقتك معترفا بالقصور عن حق انعامه واحسانه وكلما غفلت شكره أو فترت أو زللت عاودت واجتهدت وتضرعت اليه وابتهلت وتوسلت وقلت يا الله يا مولاي كما بدأت بالاحسان بفضلك من غير استحقاق فأتممه بفضلك أيضا من غير استحقاق وتناديه بنداء أوليائه الذين وجدوا تاج هدايته وذاقوا حلاوة

واحذر الجدال واحذر منهم فانهم يتربصون بك بحسدهم ريب المنون ويقطعون عليك بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون يحصون عليك عثراتك في عشيرتهم حتى يجبهوك بها في غيظهم ومناظراتهم لا يقيلون لك عثرة ولا يغفرون لك زلة ولا يسترون عليك عورة يحاسبونك على النقير والقطمير ويحسدونك على القليل والكثير ويحرضون عليك الاخوان بالنميمة والبلاغات والبهتانات ان رضوا فظاهرهم الملق وان سخطوا فباطنهم الحنق ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب هذا حكم ما قطعت به المشاهدة على أكثرهم الا من عصمه الله تعالى فصحبتهم خسران ومعاشرتهم خذلان هذا حكم من يظهر لك الصداقة فكيف من يجاهرك بالعداوة قال القاضي ابن معروف رحمه الله تعالى
احذر عدوك مرة
احذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق
فكان أعرف بالمضرة

معرفته فخافوا على أنفسهم حرقة الطرد والاهانة ووحشة البعد والضلالة ومرارة العزل والازالة فتضرعوا بالباب مستغيثين ومدوا اليه الاكف مبتهلين ونادوا في الخلوات مستصرخين ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب (قلت انا) تقديره والله أعلم انا وجدنا منك نعمة فطمعنا في أخرى فانك أنت الجواد الوهاب فكما وهبت لنا مزية الانعام في الابتداء فهب لنا رحمة الاتمام في الانتهاء أما تسمع و يحك ان أول دعاء علمه رب العالمين عباده المسلمين الذين اصطفاهم من بين خلقه هذا الدعاء قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم أي ثبتنا عليه وأدمه لنا هكذا تتضرع اليه فان الخطب عظيم (وقيل) ان الحكماء نظروا وافردوا مصائب العالم ومحنهم كلها الى خمس المرض في الغربة والفقر في الشيب والموت في الشباب والعمى بعد البصر والنكرة بعد المعرفة وأحسن من ذلك قول من قال

لكل شيء اذا فارقته عوض * وليس لله ان فارقت من عوض

ولغيره

اذا ابقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر

وكذلك في كل نعمة أنعم بها عليك وتأييد أيدك به في قطع عقبة من العقبات ليثبت عليك ما اعطى و يزيدك فوق ماتريد وتتمنى فاذا فعلت ذلك كنت قد خلفت هذه العقبة الخطيرة وكنت قد ظفرت بالكنزين الكريمين العزيزين اللذين هما الاستقامة والاستزادة فتدوم لك النعم الموجودة التي اعطاكها فلا تخشى زوالها ويزيدك من النعم المفقودة التي لم تعط بعد ما لا تحسن أن تسألها وتتمناها فلا تخشى فواتها وكنت حينئذ من العارفين العلماء العاملين بالدين التائبين الطاهرين الزاهدين في الدنيا المتجردين للخدمة القاهرين للشيطان المتقين حق التقوى بالقلب والاركان القاصرين للامل الناصحين الخاشعين المتواضعين المتوكلين المفوضين الراضين الصابرين الخائفين الراجين المخلصين الذاكرين المنة الشاكرين لانعم سيدهم رب العالمين ثم تصير بعد ذلك من المستقيمين المكرمين من الصديقين فتأمل هذا الكلام والله تعالى ولي التوفيق فان قلت اذا كان الامر كذلك فقد قل من الناس العابد لهذا المعبود والواصل الى هذا المقصود ومن الذي يقوى على هذه المؤن وتحصيل هذه الشرائط والسنن فاعلم ان الله تعالى كذلك يقول وقليل من عبادي الشكور ولكن أكثر الناس لا يشكرون لا يعقلون لا يعلمون ثم ان ذلك يسير على من يسره الله تعالى عليه وعلى العبد الاجتهاد وعلى الله سبحانه الهداية قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا واذا كان العبد الضعيف يقوم بما عليه فما ظنك بالرب القدير الغني الكريم الرحيم (فان قلت) فالعمر قصير وهذه عقبات طويلة شديدة فكيف يبقى العمر حتى تكمل هذه الشرائط وتقطع هذه العقبات فلعمري ان هذه العقبات طويلة والشرائط فيها شديدة ولكن اذا أراد الله تعالى أن يجتبي عبده قصر عليه طويلها وهون عليه شديدها حتى يقول بعد قطعها ما أقرب هذه الطريق وأقصرها وما أهون هذا الامر وأيسره وفي مثل ذلك (قلت أنا) عند وقوفي على هذه الغاية

علم المحجة واضح لمريده * وأرى القلوب عن المحجة في عمى

ولقد عجبت لهالك ونجاته * موجودة ولقد عجبت لمن نجا

حتى ان منهم من يقطع هذه العقبات في سبعين سنة ومنهم من يقطعها في عشرين سنة ومنهم من يقطعها في عشر سنين ومنهم من يحصل له في سنة ومنهم من يقطعها في شهر بل في جمعة بل في ساعة حتى ان منهم من يحصل له في لحظة بتوفيق خاص وعناية سابقة من الله سبحانه أما تذكر أصحاب الكهف كيف كانت مدتهم خطرة حيث رأوا التعيير في وجه ملكهم دقيانوس فقالوا ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها الآية حصلت لهم المعرفة والبصر واما في هذه الطريق من الحقائق وقطعوا هذه الطريق فصاروا مفوضين متوكلين مستقيمين اذ قالوا فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته الآية وكل ذلك انما حصل لهم في مقدار ساعة أو لحظة أما تذكر سحرة فرعون ما كانت مدتهم الا لحظة حيث رأوا معجزة موسى عليه السلام قالوا آمنا برب هرون

وكذلك قيل في المعنى

عدوك من صديقك مستفاد
فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه
يكون من الطعام أو الشراب

وكن كما قال هلال بن العلاء

لما عفوت ولم أحقد على أحد
أرحت نفسي من هم العداوات
اني أحيي عدوي عند رؤيته
لادفع الشر عني بالتحيات
واظهر البشر للانسان أبغضه
كأنه قد ملا قلبي مسرات
ولست اسلم ممن لست أعرفه
فكيف أسلم من أهل المودات
الناس داء ودواء الحض تركهم
وفي الجفاء لهم قطع الاخوات
فسالم الناس تسلم من غوائلهم
وكن حريصا على كسب المودات
وخالق الناس واصبر ما بليت
٢/م
أصم أبكم أعمى ذا ثقبات

وكن أيضا كما قال بعض الحكماء الق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة

ومنهم من أبصروا الطريق وقطعوه فصاروا من ساعة الى ساعة بل أقل من العارفين بالله تعالى الراضين بقضاء الله تعالى الصابرين على بلائه الشاكرين لآلائه المشتاقين الى لقائه فنادوا لا ضير إنا الى ربنا منقلبون ولقد حكينا ان ابراهيم بن أدهم رحمه الله كان على ما كان عليه من أمر الدنيا فعدل عن ذلك وقصد هذه الطريق فلم يكن الا مقدار سيره من بلخ الى مرو حتى صار بحيث أشار الى رجل سقط من القنطرة في الماء الكثير هنالك ان قف فوقف الرجل مكانه في الهواء فتخلص وان رابعة البصرية كانت أمة كبيرة السن يطاف بها في سوق البصرة لا يرغب فيها أحد لكبر سنها فرحمها بعض التجار فاشتراها بنحو مائة درهم واعتقها فاختارت هذه الطريق واقبلت على العبادة فما تمت لها سنة حتى زارها زهاد البصرة وقراؤها وعلماؤها لعظم منزلتها واما الذي لم تسبق له العناية ولم يعامل بالفضل والهداية فيوكل الى نفسه فربما يبقى في شعب من عقبة واحدة سبعين سنة ولا يقطعها وكم يصيح ويصرخ ما أظلم هذا الطريق وأشكله واعسر هذا الامر وأعضله فان الشأن كله الى أصل واحد وذلك تقدير العزيز العليم العدل الحكيم (فان قلت) لم اختص هذا بالتوفيق الخاص وحرم هذا وكلاهما مشترك في ربقة العبودية فعند هذا السؤال ينادي من سرادق الجلال ان الزم الادب واعرف سر الربوبية وحقيقة العبودية فانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (قلت انا) ومثال هذا الطريق في الدنيا الصراط في الآخرة في عقباتها ومسافاتها ومقاطعها واختلاف أحوال الخلق فيها فمنهم من يمر عليه كالبرق الخاطف ومنهم من يمر عليه كالريح العاصف وآخر كالفرس الجواد وآخر كالطائر وآخر يعدو وآخر يزحف حتى يصير فحمة وآخر يسمع حسيسها وآخر يؤخذ بكلاليب فيطرح في جهنم فكذلك حال هذا الطريق مع سالكيه في الدنيا فهما صراطان صراط الدنيا وصراط الآخرة فصراط الآخرة للانفس يرى أهوالها أهل الابصار وصراط الدنيا للقلوب يرى أهوالها ذوو البصائر والالباب وانما اختلفت الاحوال للسالكين في الآخرة لاختلاف أحوالهم في الدنيا فتأمل ذلك حقه فهذه هذه وبالله التوفيق

(فصل) ثم اعلم ما هو التحقيق في هذا الباب وهو انه ليس هذا الطريق في طوله وقصره مثل المسافات الكائنة التي تسلكها الانفس فتقطعها بالاقدام فيقع قطعها على حسب قوة الانفس وضعفها انما هو طريق روحاني تسلكه القلوب فتقطعه بالافكار على حسب العقائد والبصائر وأصله نور سماوي ونظر الهي يقع في قلب العبد فينظر به نظرة فيرى بها أمر الدارين بالحقيقة ثم هذا النور ربما يطلبه العبد مائة سنة فلا يجده ولا أثرا منه وذلك لخطائه في الطلب وتقصيره في الاجتهاد وجهله بطريق ذلك وآخر يجده في خمسين سنة وآخر يجده في عشر وآخر في يوم وآخر في ساعة ولحظة بعناية رب العزة وهو تعالى ولي الهداية لكن العبد مأمور بالاجتهاد فعليه بما أمر والامر مقسوم مقدور والرب حكم عدل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (فان قلت) فما أعظم هذا الخطر وأشد هذا الامر وما أكثر ما يحتاج اليه هذا العبد الضعيف فكل هذا العمل والجهد وتحصيل هذه الشرائط لماذا (فأقول) لعمري انك لصادق في قولك ان الامر شديد والخطر عظيم ولذلك قال تعالى لقد خلقنا الانسان في كبد وقال تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ولذلك قال سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا وما روي أن المنادي ينادي من قبل السماء ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا وليتهم اذ علموا عملوا بما علموا ولذلك يقول السلف رضي الله عنهم فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه انه قال وددت اني كنت خضرا تأكلني الدواب مخافة العذاب وعن عمر رضي الله عنه انه سمع انسانا يقرأ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا فقال ليتها تمت وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وددت اني كبش لاهلي فيتعرقون لحمي ويحسون مرقي ولم أخلق وعن وهب بن منبه انه قال خلق ابن آدم أحمق ولولا حمقه ما هنأه عيش وعن الفضيل بن عياض رحمه الله قال اني لا أغبط ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا عبدا

ولا هيبة منهما وتوقر من غير كبر وتواضع من غير مذلة وكن في جميع أمورك في أواسطها فكلا طرفي الامور ذميم كما قيل عليك بأوساط الامور فانها طريق الى نهج الصراط قويم ولا تك فيها مفرطا أو مفرطا فان كلا حال الامور ذميم ولا تنظر في عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات واذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وادخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وطرد الذباب عن وجهك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها وليكن مجلسك هاديا وحديثك منظوما مرتبا واصغ الى الكلام الحسن ممن حدثك من غير اظهار تعجب مفرط ولا تسأله اعادته واسكت

صاحبها أليس هؤلاء يعاتبون يوم القيامة انما أغبط من لم يخلق وعن عطاء السلمي رحمه الله انه قال لو ان نارا أوقدت وقيل من ألقى نفسه فيها صار لاشيء لخشيت أن أموت من الفرح قبل أن أصل النار فالامر اذن أيها الرجل شديد كما تقول بل هو أشد وأعظم مما تظن وتتوهم ولكنه أمر سبق في العلم القديم وتدبير أجراه العزيز العليم فلا حيلة للعبد الا بذل المجهود في العبودية والاعتصام بحبل الله والابتهال دائما الى الله سبحانه عسى أن يرحمه فيسلم بفضله وأما قولك كل هذا المبالغ فهذا كلام يدل منك على غفلة عظيمة بل الصواب أن تقول كل هذا في جنب ما يطلبه العبد الضعيف ماذا أتدري ما يطلب العبد الضعيف أقل ما يطلبه على الجملة شيآن أحدهما السلامة في الدارين والثاني الملك في الدارين أما السلامة في الدنيا فان الدنيا وآفاتها وفتنها وغوائلها عجيبة لم يسلم منها الملائكة المقربون وقد سمعت حديث هاروت وماروت حتى روي انه اذا عرج بروح العبد الى السماء تقول ملائكة السموات متعجبين كيف نجا هذا من دار فسد فيها خيارنا وان الآخرة في أهوالها وشدائدها بحيث تصرخ فيها الانبياء والرسل عليهم السلام نفسي نفسي لا أسألك اليوم الا نفسي حتى انه روي لو كان للرجل عمل سبعين نبيا لظن انه لا ينجو فمن أراد أن يسلم من فتن هذه فليخرج منها بالاسلام سالما لا تصيبه بلية ومن أهوال هذه فليدخل الجنة سالما لا تصيبه نكبة أيكون هذا أمرا هينا وأما الملك والكرامة فان الملك نفاذ التصرف والمشيئة وان ذلك بالحقيقة في الدنيا لاولياء الله عز وجل وأصفيائه الراضين بقضائه البر والبحر والارض لهم قدم واحد والحجر والمدر لهم ذهب وفضة والجن والانس والبهائم والطير لهم مسخرون لا يشاؤن شيأ الا وهو كائن لهم لانهم لا يشاؤن الا ما شاء الله وما شاء الله كان ولا يهابون أحدا من الخلق ويهابهم كل الخلق ولا يخدمون أحدا الا الله عز وجل ويخدمهم كل من دون الله وأين ملوك الدنيا بعشر معاشر هذه الرتبة بل هم أقل وأذل وأما ملك الآخرة فيقول الله تعالى واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا وأعظم بما يقول فيه رب العزة انه ملك كبير وأنت تعلم ان الدنيا بأسرها قليلة وان بقاءها من أولها الى آخرها قليل ونصيب أحدنا من هذا القليل قليل ثم الواحد منا قد يبذل ماله وروحه حتى يظفر بقدر قليل من هذا القليل في بقاء قليل وان حصل له ذلك فيعذر بل يغبط ولا يستكثر ما بذل فيه من المال والنفس نحو ما ذكر عن امرئ القيس حيث يقول

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه * وأيقن انا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

فكيف حال من يطلب الملك الكبير في دار النعيم الخالد المقيم أيستكثر مع ذلك أن يصلي ركعتين لله تعالى أو ينفق درهمين أو يسهر ليلتين كلا بل لو كان له ألف ألف نفس وألف ألف روح وألف ألف عمر كل عمر مثل عمر الدنيا وأكبر وأكثر فبذل ذلك كله في هذا المطلوب العزيز لكان ذلك قليلا ولئن ظفر بعده بما طلب لكان ذلك غنما عظيما وفضلا من الذي أعطاه كثيرا فتنبه أيها المسكين من رقدة الغافلين ثم اني تأملت ما يعطيه الله سبحانه العبد اذا أطاعه ولزم خدمته وسلك هذه الطريق عمره فوجدتها على الجملة أربعين كرامة وخلعة عشرين منها في الدنيا وعشرين منها في العقبى أما التي في الدنيا فالاولى أن يذكره الله سبحانه ويثني عليه وأكرم بعبد يكون الله رب العالمين يثني عليه في ذكره وثنائه والثانية ان يشكره جل جلاله ويعظمه ولو شكرك مخلوق ضعيف مثلك وعظمك لشرفت به فكيف بإله الاولين والآخرين والثالثة ان يحبه ولو أحبك رئيس محلة أو أمير بلدة لافتخرت بذلك وانتفعت به في مواطن عزيزة فكيف بمحبة رب العالمين والرابعة أن يكون له وكيلا يدبر أموره والخامسة أن يكون له برزقه كفيلا يوجهه اليه من حال الى حال من غير تعب أو وبال والسادسة أن يكون له نصيرا يكفيه كل عدو ويدفع عنه كل قاصد بسوء والسابعة أن يكون له انيسا لا يستوحش بحال ولا يخاف التغير والاستبدال والثامنة عز النفس فلا يلحقه ذل خدمة الدنيا وأهلها بل لا يرضى أن تخدمه ملوك الدنيا وجبابرتها والتاسعة رفع الهمة فيترفع عن التلطخ بأقذار الدنيا وأهلها ولا يلتفت الى زخارفها وملاهيها

عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن اعجابك بولدك وشعرك وكلامك وتصنيفك وسائر ما يخصك ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تبتذل ابتذال العبد وتوق كثرة الكحل والاسراف في الدهن ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدا على ظلم ولا تعلم أحدا من أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فانهم ان رأوه قليلا هنت عليهم وان رأوه كثيرا لم تبلغ رضاهم قط واخفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك واذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وعجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الاشارة بيدك ولا تكثر الالتفات الى ورائك ولا تجث على ركبتيك واذا هدأ غضبك فتكلم واذا قربك السلطان فكن على حد السنان واياك وصديق العافية فانه أعدى الاعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك وهذا

ترفيع الرجال الالباء عن ملاعب الصبيان والنسوان والعاشرة غنى القلب فيكون اغنى من كل غنى في الدنيا لا يزال طيب النفس فسيح الصدر لا يفزعه حادث ولا يهمه عدم والاحدى عشرة نور القلب فيهتدى بنور قلبه الى علوم واسرار وحكم لا يهتدى الى بعضها غيره الا بجهد جهيد وعمر مديد والثانية عشرة شرح الصدر فلا يضيق ذرعا بشيء من محن الدنيا ومصائبها ومؤن الناس ومكايدهم والثالثة عشرة المهابة والموقع في نفوس الناس يحترمه الاخيار والاشرار ويهابه كل فرعون وجبار والرابعة عشرة المحبة في القلوب يجعل له الرحمن ودا فترى القلوب كلها مجبولة على حبه والنفوس كلها مجبولة مطبوعة على تعظيمه واكرامه والخامسة عشرة البركة العامة في كل شيء من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان حتى يتبرك بتراب وطئه وبمكان جلس فيه يوما وبانسان صحبه ورآه حينا والسادسة عشرة تسخير الارض من البر والبحر حتى ان شاء سار في الهواء أو مشى على الماء أو قطع وجه الارض بأقل من ساعة والسابعة عشرة تسخير الحيوان من السباع والوحوش والهوام وغيرها فتحبه الوحوش وتبصبص له الاسود والثامنة عشرة ملك مفاتيح الارض فحيثما ضرب بيده فله كنز ان أراد وحيثما ضرب برجله فله عين ماء ان احتاج وأينما نزل فله مائدة تحضره ان قصد والتاسعة عشرة القيادة والوجاهة على باب رب العزة فيبتغي الخلق الوسيلة الى الله تعالى بخدمته وتستنجح الحاجات من الله تعالى بجاهه وبركته والعشرون اجابة الدعوة من الله تعالى فلا يسأل الله تعالى شيأ الا اعطاه ولا يشفع لاحد الا شفع ولو أقسم على الله تعالى لأبره بما شاء حتى ان منهم من لو أشار الى جبل لزال فلا يحتاج الى السؤال باللسان ولو خطر بباله شيء لحضر ولا يحتاج الى الاشارة باليد فهذه كرامات في الدنيا وأما التي في العقبى فالحادية والعشرون أن يهون الله عليه أولا سكرات الموت وهي التي وجلت قلوب الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيها حتى سألوا الله أن يهونها عليهم حتى ان منهم من يكون الموت عنده مثل شربة الماء الزلال للظمآن قال الله عز وجل الذين تتوفاهم الملائكة طيبين والثانية والعشرون الثبات على المعرفة والايمان وهو الذي منه كل الخوف والفزع وعليه كل البكاء والجزع قال الله عز من قائل يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة والثالثة والعشرون ارسال الروح والريحان والبشرى والرضوان والامان قال سبحانه وتعالى ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون فلا يخاف مما يقدم عليه في العقبى ولا يحزن على ما خلفه في الدنيا والرابعة والعشرون الخلود في الجنان ومجاورة الرحمن والخامسة والعشرون الحلوة في السر لروحه فيعرج على ملائكة السموات والارض بالاكرام والالطاف والانعام ولبدنه في العلانية بتعظيم جنازته والمزاحمة على الصلاة عليه والمبادرة الى تجهيزه يرجون بذلك أكثر ثواب ويعدونه أعظم غنم والسادسة والعشرون الامان من فتنة سؤال القبر وتلقين الصواب فيأمن من ذلك الهول والسابعة والعشرون توسيع القبر وتنويره فيكون في روضة من رياض الجنة الى يوم القيامة والثامنة والعشرون ايناس روحه ونسمته واكرامها فتجعل في أجواف طير خضر مع الاخوان الصالحين فرحين مستبشرين بما آتاهم الله من فضله والتاسعة والعشرون الحشر في العز والكرامة من حلل وتاج وبراق والثلاثون بياض الوجه ونوره قال الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة وقال وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة والحادية والثلاثون الامن من أهوال يوم القيامة قال الله تعالى أم من يأتي آمنا يوم القيامة والثانية والثلاثون الكتاب باليمين ومنهم من كفي الكتاب رأسا والثالثة والثلاثون تيسير الحساب ومنهم من لا يحاسب أصلا والرابعة والثلاثون ثقل الميزان ومنهم من لا يوقف للوزن أصلا والخامسة والثلاثون ورود الحوض على النبي صلى الله عليه وسلم فيشرب شربة لا يظمأ بعدها أبدا والسادسة والثلاثون جواز الصراط والنجاة من النار حتى ان منهم من لا يسمع حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون وتخمد له النار والسابعة والثلاثون الشفاعة في عرصات القيامة نحوا من شفاعة الانبياء والرسل والثامنة والثلاثون ملك الابد في الجنة والتاسعة والثلاثون الرضوان الاكبر والاربعون

القدر يا فتى يكفيك من بداية الهداية فجرب بها نفسك فانها ثلاثة أقسام قسم في آداب الطاعات وقسم في ترك المعاصي وقسم في مخالطة الخلق وهي جامعة لجميع معاملة العبد مع الخالق والخلق فان رأيتها مناسبة لنفسك ورأيت قلبك مائلا اليها راغبا في العمل بها فاعلم انك عبد نور الله قلبك بالايمان وشرح به صدرك وتحقق ان لهذه البداية نهاية ووراءها أسرارا وأغوارا وعلوما ومكاشفات وقد أودعناها في كتاب احياء علوم الدين فاشتغل بتحصيله فان رأيت نفسك تستثقل العمل بهذه الوظائف وتترك هذا الفن من العلم وتقول لك نفسك أنى ينفعك هذا الفن في محافل العلماء ومتى يقدمك هذا على الاقران والنظراء وكيف يرفع منصبك في مجالس الامراء والوزراء ليوصلك الى الصلة والارزاق وولاية الاوقاف والقضاء فاعلم أن

لقاء رب العالمين اله الاولين والآخرين بلا كيف جل جلاله (ثم أقول) وانما عددت ذلك على حسب فهمي ومبلغ علمي في قصوره ونقصه ومع ذلك فقد أجملت وأوجزت وذكرت الاصول والجمل ولو فصلت بعض ذلك لما احتمله الكتاب ألا ترى اني جعلت ملك الابد خلعة واحدة ولو فصلتها الارتفعت على أربعين خلعة من نوع الحور والقصور واللباس وغير ذلك ثم كل نوع يشتمل على تفاصيل لا يحيط بها الا عالم الغيب والشهادة الذي هو خالقها ومالكها وأي مطمع لنا في معرفة ذلك وربنا سبحانه يقول فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وان المفسرين يقولون في قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ان هذه هي الكلمات التي يقولها الله تعالى لاهل الجنة في الجنة باللطف والاكرام وما تكون حاله هذه فأنى نبلغ جزأ من ألف ألف جزء منه ونحن بشر أو كيف يحيط به علم مخلوق كلا بل تقاعدت الهمم وتقاصرت دونه العقول وحق أن يكون ذلك كذلك وهو عطاء العزيز العليم على مقتضى الفضل العظيم وحسب الجود القديم ألا فليعمل العاملون وليبذل المجتهدون جهدهم لهذا المطلوب العظيم وليعلموا أن ذلك كله أقل قليل في جنب ما هم اليه محتاجون واياه يطلبون وله يتعرضون وليعلموا ان العبد لابد له في الجملة من أربعة العلم والعمل والاخلاص والخوف فيعلم أولا الطريق والا فهو أعمى ثم يعمل بالعلم والا فهو محجوب ثم يخلص العمل والا فهو مغبون ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات الى أن يجد الامان والا فهو مغرور ولقد صدق ذو النون حيث قال الخلق كلهم موتى الا العلماء والعلماء كلهم نيام الا العاملين والعاملون كلهم مغترون الا المخلصين والمخلصون كلهم على خطر عظيم (قلت أنا) والعجب كل العجب من أربعة أحدها من عاقل غير عالم امامه ثم بمعرفة ما بين يديه أما يتعرف ما هو مطلع بعد الموت عليه بالنظر في هذه الدلائل والعبر والاستماع الى هذه الآيات والنذر والانزعاج بهذه الخواطر والهواجس في النفس قال الله تعالى أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وقال تعالى ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم والثاني من عالم غير عامل بالعلم أما يتفكر ما يعلم يقينا مما بين يديه من الاهوال العظام والعقبات الصعاب وهذا هو النبأ العظيم الذي أنتم عنه معرضون والثالث من عامل غير مخلص أما يتأمل قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا والرابع من مخلص غير خائف أما ينظر الى معاملاته جل جلاله مع اصفيائه وأوليائه وخدمه الدالة بينه وبين خلقه حتى يقول لأكرم الخلق عليه ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك الآيات ونحوها حتى حكى انه كان عليه السلام يقول شيبتني هود وأخواتها ثم جملة الامر وتفصيله ما قاله رب العالمين في أربع آيات من الكتاب العزيز قوله عز وجل أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ثم قال جل اسمه ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون ثم قال جل من قائل والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ثم أجمل الكل فقال وهو أصدق القائلين ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طغا به القلم ونستغفره من كل أقاويلنا التي لا توافق أعمالنا ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنع وتزين في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه ونسأله ان يجعلنا واياكم يا معشر الاخوان بما علمناه عاملين ولوجهه به مريدين وأن لا يجعله وبالا علينا وان يضعه في ميزان الصالحات اذا ردت أعمالنا الينا انه جواد كريم * قال الشيخ رضي الله عنه فهذا ما أردنا ان نذكره في شرح كيفية سلوك طريق الآخرة وقد وفينا بالمقصود والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تنزل البركات

وصلى الله على خير مولود دعا الى فضل معبود محمد النبي وآله وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال

الشيطان قد أغواك وأنساك متقلبك ومثواك فاطلب لك شيطانا مثلك ليعلمك ما تظن انه ينفعك ويوصلك الى بغيتك ثم اعلم انه قطعا لا يصفو لك المال في حياتك فضلا عن قريتك وبلدك ثم يفوتك الملك المقيم والنعيم الدائم في جوار رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله على التمام والشكر له على الانعام والصلاة والسلام على من كان للانبياء الختام وعلى آله وأصحابه على ممر الليالى والايام *(أما بعد)* فقد تم طبع كتاب منهاج العابدين للعارف الامام حجة الاسلام أبى حامد الغزالى الطوسى قدس الله روحه ونور ضريحه وبهامشه كتاب بداية الهداية له أيضا وذلك بالمطبعة الميمنيه بمصر المحروسة المحميه بجوار سيدى أحمد الدردير قريبا من الجامع الازهرى المنير ادارة المفتقر لعفو ربه القدير أحمد البابى الحلبى ذى العجز والتقصير بتصحيح الفقير اليه تعالى أحمد المكتبى فى شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٥ من الهجرة النبويه على صاحبها أفضل صلاة وأزكى تحيه

(فهرسة منهاج العابدين لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي)

(تمت)

(فهرسة بداية الهداية المرقوم بهامش هذا الكتاب)

صحيفة

(تمت)